





﴿ أو الحكمة الاسلامية العليا ﴾

تأليف العلامة المفضال خلاصة الحكماء وصفوة العلماء حضرة

﴿ الشيخ طنطاوى جوهري ﴾

وهو الكتاب المستطاب الذي قدمه حضرة المؤلف هدية لمدرسة
ساكنة الجنان والدة المرحوم عباس باشا الأول وأذن
بطبعه لفائدة المدرسة المذكورة

طبع هذا الكتاب على نفقة وقف تلك المدرسة

١٣٢٤ — ١٩٠٦

الجزء الثانى

مطبعة مدرسة والدة عباس الأول

﴿ بالطرقة الشرقية بشارع خيرت بالقاهرة ﴾



﴿ الباب السادس ﴾

الكلام على الانسان

الانسان آخر نقطة وصل اليها الابداع واليه اتجهت الانظار من جميع العقلاء والجهلاء، وهم في ذلك أربع طوائف كل طائفة نظرها فيه مقدمة لما بعدها وارفع مما قبلها. الاولى مرتبة الشعراء والعامة. والثانية مرتبة الناظرين فى أوائل العلوم الرياضية. والثالثة علماء التشريح والرابعة علماء الفلسفة العالية أو ما وراء الطبيعة أو العلم الالهى أو العلم الاعلى وكل طائفة من هؤلاء تعرف علم ما قبلها وتجهل ما بعدها. فالعلماء بالنفس يعرفون علم التشريح وظواهر محاسن الانسان وعلماء التشريح يعرفون طبعاً المحاسن الظاهرة التى ولع بها عامة الناس

﴿ الطائفة الاولى ﴾

انك اذا نظرت الى النوع الانسانى عرفت بادنى التفاتة انهم جميعاً يلهجون بما يشاهدونه من محاسنه الظاهرة وعجائبه الباهرة المدهشة للناظرين بالحواس الخمس فتراهم يصفون كل عضو من أعضاء البدن بوصف دقيق وينثرونه وينظمونه حتى كان شعراء العرب في الجاهلية والاسلام لا ينظمون القصائد لمدح الملوك الا ويذكرون فى أوائلها دقائق المحاسن .

واذا تصفحت اكثر كلامهم وجدتهم به لهجين وهذا شائع في الكتب لا يجهله احد من أهل العلم فلا ترى كتابا من كتب الادب الا فيه نبذة أو نبذ من ذلك ولعمرى ان فطر الانسان صادقة ترمى الى غاية اذ الانسان كما قلنا نهاية الابداع فقد جمع المحاسن واللطائف كاللمس والشم والسمع والنظر ثم التخيل والعقل فقد جمعت فيه جميع المحاسن التى تلذ الانسان ولا ريب انها مفرقة في هذا العالم فبعض ذلك يلتذ بالنظر اليه أو لمسه أو ذوقه أو سمعه او شمه أو التفكر في محاسنه أو اثنين أو اكثر والانسان هو الذى جمع هذه اللطائف والمحاسن كلها ولذلك ترى

الشعرا يشبهون أجزاءه باجزاء هذا العالم فقال بعضهم

اشمس فى غلالة ارجوان   وبدر طالع أم غصن بان
وثغر ما أرى أم نظم در   ولحظ ما حوى أم صارمان
وخد فيـه تفاح وورد   عليه من العقارب حارسان

فانظر كيف شبه كل عضو بجزء من العالم وتارة يفضلونه عليها كقول بعضهم

ما أنت ما دحها يا من تشبهها   بالشمس فى الحسن لا بل انت هاجيها
من أين للشمس خال فوق وجنتها   ومبسم مثل نظم الدر فى فيهـا

وهؤلاء الشعراء هم المفصحون عن النظر الظاهر في الانسان ومثلهم فى ذلك العامة الذين يلهجون بتلك الاراجيز والموالى وفى هذه المرتبة كان عشاق يوسف عليه السلام فقطعن أيديهن وقلن حاشى لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم ولعمرك ما هذه المحاسن الظاهرة الا رمز لما وراءها وعنوان على ما بعدها كما ان محاسن السماء وزينتها وجمال النباتات وبهجتها وبدائع الحيوانات ودقتها اعراب عما وراءها لتتوق النفس الى ما وراء هذا الجمال البديع . ولقد اختلفت الفطر وبحث كل عما يرمي اليه غرضه ويصل اليه فهمه (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات) . فهذه المحاسن بالطبع تدعو الى التعاشق

والتزاوج لجميع النوع الانسانى كما تدعو اولى النظر للتفكر فى دقيق المحاسن التى وراءها .

فوقف نظر العامى عند الظاهر واكتفى بانواع الازدواج كما تزدوج النباتات والحيوانات فيأكلون ويشربون (كما تأكل الانعام) وكما وقف نظر الزارع من زرعه على القوت والملابس وهكذا مربو الحيوانات المنزلية كما وقف نظره على مأكله ومشربه من ذلك ولقد ترقى عن هؤلاء قوم وهم

﴿ الطائفة الثانية ﴾

وهم الناظرون فى الرياضيات

قالوا ان لكل ظاهر باطنا ولا بد لهذه المحاسن الجميلة والبدائع واللطائف من حساب متقن وهندسة محكمة اذ لسنا لهؤلاء الشعرا والعامة الذين وقفوا على الظواهر وانما نحن أرقى منهم عقلا واسمى نظراً واصح فراسة وقد قال الله تعالى ان فى ذلك لايات للمتوسمين وهم ارباب الفراسة وقال فاعتبروا يا اولى الابصار وقال ان في ذلك لآيات لاولى النهى وقال لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم . ثم نظروا فوجدوا بالاستقراء

ان الانسان اذا اعتدل خلقه فى الرحم ولم يمسسه سوء يحول وجهة خلقه كانت له مقادير معينة وأوضاع محكمة . فقامته ثمانية أشبار بشبره وقد قسمت أربعة أرباع فمن مفرق رأسه الى رأس فؤاده شبران ومنه الى حقويه شبران ومن حقويه الى رأس ركبتيه شبران ومن رأس ركبتيه الى أسفل قدميه شبران فهذه أربعة أقسام متساوية متى استقام وضع الجسم ولم يحصل فيه تنوع يوجب بعض الاختلاف فاذا مد يديه الى أعلى كان عشرة أشبار بشبره خمسة من رؤوس اصابع يديه الى سرته وخمسة من سرته الى اسفل قدميه واذا مد يديه الى اليمين واليسار كان الباع كله ثمانية أشبار كطوله فتأمل كيف كان طوله كعرضه مع مد يديه وما هذا الوضع العجيب الغريب ثم ترى هذا الباع ايضاً مقسما أربعة اقسام كتقسيم الطول من رؤوس الاصابع الى المرفقين الربع والى الترقوة النصف فانظر كيف تشابه التقسيمان وتناسق الوضعان ·

ثم ان طول وجهه وهو ما بين اذنيه شبر وربع وعرضه وهو ما بين منابت شعره ورأس ذقنه شبر وثمن وطول انفه ربع شبره وهكذا طول شق فمه وشفتيه وطول جبينه ثلث

طول وجهه وطول قدمه كطول وجهه شبر وربع وطول كفه من الكرسوع الى رأس الاصابع الوسطى شبر واحد والابهام والخنصر متساويان ورأس البنصر زائد على الخنصر نصف ثمن شبر وكذلك الوسطى على البنصر وهكذا ترتيب الابهام والسبابة والوسطي كل يزيد عما تحته نصف ثمن الشبر فالوسطى اليها تنتهي الزيادة والطرفان متساويان وما حول الوسطى كذلك بل حال الاصابع وترتيبها يفهمنا ترتيب الحياة اذ يخلق الانسان من ضعف الى قوة الى ضعف من الصبا الى الشباب والكهولة الى الشيخوخة

وعرض الصدر شبر ونصف وما بين الثديين شبر واحد ومن السرة الى العانة شبر واحد ومن رأس فؤاده الى رأس ترقوته شبر واحد وبين المنكبين شبران اثنان وهذه المقاييس تحتاج الى عناية وتدقيق ومن هذا تعلم قوله تعالى وكل شيء عنده بمقدار وخلق كل شيء فقدره تقديرا وقوله وكل شيء فصلناه تفصيلا وقوله يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون : ولا كتف بهذا القدر مما ذكره هؤلاء الرياضيون عن هذا الانسان العجيب فبحثوا بما يناسب فهمهم وعلى مقدار

علمهم ثم ترقي عن هؤلاء قوم ونظروا فيما هو ادق من ذلك وهم علماء التشريح المدققون وهم .

﴿ الطائفة الثالثة ﴾

(التشريح) رأى بعض علماء العرب والغربيين وعليه مدار التعليم في مدارسنا الان ان الطبيعيات مؤخرة عن الرياضيات وهناك راى آخر درج عليه صاحب الهداية وغيره يقدم الطبيعيات على الرياضيات (ولكل وجهة هو موليها). وهؤلاء نظروا فقالوا ان هذه المحاسن التي ولع بها الناس من العامة والشعراء والمقادير المقياسية التى عرفها الرياضيون لا بد وراءها من سر عجيب وكما ان انتظام اوراق الاشجار وقياسها البديع واتساق اعضاء الحيوان بمقاييس معينة وحساب الشمس والقمر وانتظام سيرهما فى دوائرهما وهكذا الانوار والظلمة وهندسة العالم كله دلت العلماء على نظام عجيب من هذا الحساب الظاهر. فبحث النباتيون عن التحاليل والتركيب في المواد وهكذا علما الفلك حللوا الضوء بالبلورات المنشورية واستنتجوا منه المواد المكونة للشمس والقمر وبعض الكواكب ولا زالوا يوالون البحث بانوار الآلات

حتى عرفوا بعض اشياء طنيه مما على سطح القمر والمريخ بل حاول رجل فى زماننا هذا في امريكا ان يخترع طريقة فى ان يكلمهم بالتلغراف الذى بلا سلك ؟ فلنحبث عن هذا الانسان المشاهد امامنافلا بد ان يكون فيه من الحكمة العجيبة مايجهله هوءلا اذ العلم ولذته هى الباقية للروح بعد الموت بل هى اللذة الحقيقية للانسان اذا عقل وهاك مخلص ابحاثهم .

تأمل فى وضع جسم الانسان وما اوتى من حق اتقانه تجد عجباً عجابا تجده كساعة بهاظاهر يروق والآت ترتب بعضها على بعض بحيث لو اختل واحد منها لاختل باقيها او احتاجت الى الاصلاح فمثل الانسان كمثل الساعة متى اختل جزء من اجزائه تألمت الاجزاء الاخرى ولكن بينهما فرق من وجوه

(١) فالساعة من مواد معدنية كالحديد والذهب والفضة وغيرها ففيها التماسك بنفسها طبعاً بخلاف الانسان فانه من مواد نباتية وأخرى حيوانية واغلبه ماء يبلغ نحو ٨٠ جزءً من مائة منه فكل هذه الاجزاء لا تماسك بطبعها فياليت شعري كيف وضعت على وضع تراه في اتقانه ارقى من الساعة بما لا يتناهى

(٢) ان الساعة اذا اختل جزء منها اسرع الخلل الى باقيها طبعاً ووقفت حركتها .

والانسان لاتقف حركته بضعف جزء منه بل ولا قطع عضو او عضوين بل يشتغل بالباقى فى منافعه مع تركيبه من اجزاء رطبة رخوة وتركب الساعة من أجزاء متماسكة

(٣) اذا اختلت الساعة فمصلحها من خارج أما الانسان فانه يسعى على الدوام لاصلاح جسمه بالقوت والملابس فمصلحه فى أغلب الاحوال هو نفسه فيأكل ويشرب ويدفع من يؤذيه بهذا السر العجيب وهى الروح المنبثة فيه المحركة له

٤ وتركيب الساعة ليس فيه كثرة وانما هو بالنسبة لتركيب الجسم قليل التركيب واعلم ان الشي كلما كان اكثر اتقانا واجمل وضعاً واحسن تركيباً كان اكثر نفعا واتقن صنعاً . وجسم الانسان حاز من حسن التركيب ودقة الوضع ما حار فيه اولو الالباب وقاسوه بنظام السموات والارض فقالوا انا ينظرنا الى عالم السموات والارض رأينا بها مزاجا واحدا كمزاج الانسان والله هو المدبر لها وفيها ترتيب كترتيب جسم الانسان.

وكم ضربوا الامثال للعالم وخالقه بالجسم وروحه وهكذا

علماء السياسة وعلماء تكوين الشعوب كأبى نصر الفارابى يقولون ان المدنية الفاضلة هى التى تشبه وضع الانسان فانظر كيف أشبه العالم كله والمدنية الفاضلة وسيرد عليك هذا فيما سيأتى باوضح بيان ولعل هذا شاقك الى معرفة وضعه لتقيس عليه المدنية الفاضلة وترتيب السياسات ودرجات الناس فيها فهاك

أول ما ينال الصبى شهوة الغذاء فيأتى له عرق متصل بأمه يغذيه بدم الحيض ويدخل فى السرة وينتشر فى سائر أجزائه فلا يحتاج الى طعام من خارج ولا ادخاله من الفم فاذا استهل من بطن أمه قطع ذلك العرق وعوض عنه بثدى أمه فأول ما يعطى شهوة الغذاء ثم حاسة اللمس فالذوق فالشم فالسمع فالبصر ثم قوة التخيل ثم العقل فبهذه القوى والادراكات مع الحركة يجلب مايغذيه ويدفع ما يضره فاذا حصل الطعام ومضغه بفمه ونزل في المرىء فالمعدة فالاثنا عشرى فالامعاء الدقاق وهكذا حتى وصل الى القلب فرقه على سائر أجزاء البدن بالدورة الدموية الآتية من الدم بخلاصة لطيفة جداً وهى حرارة تنبعث من القلب مع الدم تسمى الروح الحيواني وتصل الى الدماغ بكثرة وقد جعل فى هذا الاخير رطوبة طبيعية متى

وصلتها تلك الحرارة المنبعثة عن القلب وزعتها على سائر أعضاء البدن بالتساوى فالروح الحيوانى منشؤه القلب والموزع له مع حفظ النسب لكل قطعة من الاعضاء هو الدماغ ولذلك كانت أعصاب الحس وأعصاب الحركة انما يصدران عن الدماغ والنخاع الشوكى المتصل طبعاً به. وتوضيحه أن الانسان له حواس خمس يحس بها مايرد عليه من خارج ليعرف ماينافر وما يلائم فتقوم الاعضاء من اليدين والرجلين وغيرهما بدفع المنافر وجلب الملائم بما لها من العضلات والعظام والرباطات والاوتار .

فههنا حركتان احداهما من الخارج الى الداخل حتى تصل الى الدماغ والاخرى من الداخل الي الخارج

فالحواس تحس بالخارج وتوصله أعصاب الحس الى الدماغ ثم يأمر الحاكم الذى فى الدماغ أعصاب الحركة فتحرك الاعضاء تارة للطلب وأخري للهرب فكل من أعصاب الحس وأعصاب الحركات لم يكن منشؤهما الا من الدماغ أو النخاع الشوكى الا انها ثلاث درجات فمنها أعصاب تحتاج الى أن تكون حرارتها الحيوانية خالصة من المادة الكربونية وهى أكثر أعصاب الاحساس فكان محلها الدماغ اذ الحس لطيف فوجب في الحكمة

خلوص الحرارة الحيوانية لاعصابه

ومنها أعصاب تحتاج مع الحرارة الى مادة تكسبها لزوجة لتقوى على فعلها. وتلك هى أكثر أعصاب الحركة فكانت مغارزها في النخاع الشوكى.

ومنها أعصاب تحتاج الى زيادة يبس عما قبلها فكانت مغارزها في العصعص أسفل فقرات الظهر وعدد الجميع ثمانية وعشرون فى الرقبة سبعة وفى الظهر اثنا عشر وفي القطن خمسة والعجز عظم واحد مفصل الى ستة ملتحمة من بعد الولادة والعصعص ثلاثة ولا تلتحم الا فى سن الاربعين فهذه ثمانية وعشرون فقرة

فتأمل كيف وضع كل شىء فى موضعه فان هذه الاعصاب لو كانت مغارزها فى القلب نفسه لاحترقت لشدة حرارته فانظر كيف اقتضت الحكمة الالهية أن تكون مغارزها فى الدماغ الذى جعلت فيه رطوبة حتى في الملمس لتلطف تلك الحرارة وتأمل كيف كانت أعصاب الاحساس ناجمة من الدماغ الذى يتعالى عن المواد الكربونية الدخانية وأعضاء الحركة تحتاج الى لزوجة تساعدها على الانقباض والانبساط لتسهل بها الحركة فكانت مغارزها فى النخاع الشوكى المتصل بالدماغ وبالجملة فكلما كان

عمل الاعصاب ألطف كانت مغارزها اعلى وكلما كان عملها محتاجاً الى معاناة وشغل جثمانى كانت مغارزها أسفل بمقدار تلك المعاناة والنصب. فالقاعدة فى أعمال الجسم ان الا على أشرف والادنى انزل منه بترتيب محكم ووضع متقن

واذا نظرت الى صورة الجسم وتلك الاعصاب رأيتها كشجرة أصلها ثابت في الرأس وساقها مار بالنخاع الشوكى والفروع خارجة من الجذع الذي فى الرأس ومن الساق في جميع انحاء الجسم. وبالجملة فالدماغ بمنزلة ملك المدينة الفاضلة يوزع الحرارة الحيوانية بمقادير مخصوصة لكل عضو من أعضائه ويخص تلك الاعصاب بفضل عنايته كما رأيت وباعتدال الحرارة يعتدل فعل القوة المخيلة التي تحلل وتركب وتمثل الصور التى نقلتها الحواس بواسطة الاعصاب الى الحس المشترك وهو يعطي المخيلة مالديه منها . ويعتدل فعل القوة الناطقة التى تنظر في الكليات . ولسنا الآن بصدد بيان تلك القوى وانما ذكرناها لبيان اعتدالها بواسطة فعل الدماغ وعدله فى توزيع الحرارة الحيوانية . وفي كتابنا ميزان الجواهر ما فيه الكفاية لمعرفتها فراجعه ان شئت وسيأتى فى هذا الكتاب أيضاً

ويلي الدماغ في المرتبة القلب اذ منه ينبعث الدم لسائر البدن وكذا الحرارة والدماغ هو المسقط لها والمنظم والآمر والناهي والمحرك والمسكن.

فالقلب مشتغل بمعالجة المادة الغليظة وهو الدم . والدماغ انما يعالج ما هو الطف واشرف وهى الحرارة الحيوانية التى هى الخلاصة . ومن آثار ذلك ان الدم اذا تغير انحرف الدماغ واذا اعتدل اعتدل فكان الاشرف يعالج الالطف والاقل مرتبة يعالج ماهو غليظ والرأس أعلى البدن أما القلب فهو فى وسطه فالقلب كالوزير والدماغ كالملك ولا تظن ان هذا التشبيه بعيد بل هو قريب . وما مثل الدماغ مع سائر البدن الا كمثل ملك امامه خدام البريد ومعهم آلات التلغراف الواصلة الى اطراف المملكة فيقبل الاخبار من الخارج ويصدر اوامر اليه فاليه الوارد ومنه الصادر وهو المدبر للحركة العمومية وقد وضح المقام لكل ذى لب

وللدماغ وزيران أحدهما القلب والآخر القوة المولدة وايضا ان الانسان خلق فى الدنيا ولا بد له من الحياة الى اجل مسمى واقتضت الحكمة الالهية والعدل ان يموت ليقوم في مادته

صوراً أخرى كثيرة وكلما خلعت صورة لبست اخرى إظهاراً للقسط والعدل. فلا بد من الموت والحياة والا لكان العالم بلا عدل ولا حكمة تامة واذا كانت الاشخاص تموت فلا بد من بقاء النوع لتحصل عمارة الارض ويكثر المنعم عليهم . فجعل لبقاء الشخص القلب ولبقاء النوع قوة التوليد فالقلب كالوزير الاول وقوة التوليد كالوزير الثاني أما القلب فتخدمه الرئة في الصدر والكبد تحت الحجاب الحاجز بين البطن والصدر فالاول يأتي له بالهواء والثاني بالدم وايضاحه

ان الانسان يحس بحواسه فيعرف الاغذية ويتناولها بيديه ففمه فيمضغها ويساعد الريق فيه على هضمها وهو المسمى بالهضم الاول ثم يندفع الى البلعوم فالمرئ فالمعدة وهناك يطبخ بمساعدة سوائل أخرى هناك حتى يصير كماء الشعير وتسمى كيموسا ثم ينزل منها الى الاثنا عشرى فيزيد طبخه بمساعدة البنكرياس والمادة الصفراوية الآتية من الصفراء المفرزة في الكبد لتحلل المادة الزيتية الباقية في الطعام وبعد ان يتم نضجها في الاثنا عشرى تنزل في بقية الامعاء الدقاق الموضوعة وضعا تعريجياً وفيها غدد صغيرة لا ترى الا بالنظارة المعظمة كثيرة جدا تمتص خلاصة

ذلك المطبوخ على هيئة مادة بيضاء كاللبن الابيض تسمى كيلوساً تذهب في الوريد الذي يذهب صاعداً الى أعلى ثم تصل الى الكبد فيطبخ تلك المادة

﴿ معنى قول القدماء الصفراء والدم والبلغم والسوداء ﴾

وانت تعلم ان كل مطبوخ فلابد له من مادة غليظة أسفله ورغوة فى اعلاه ومائية تتخلله ولا يمكن هذا المطبوخ ان يؤدي وظيفته الا اذا خلص من تلك الشوائب فالرغوة فى الدم انما هي الصفراء. فاقتضت الحكمة الالهية ان تذهب تلك المادة الى عضو رقيق يسمونه المرارة تجتمع فيه الصفراء وتذهب الى الاثنا عشرى كما تقدم وهو اول الامعاء الدقاق مما يلي المعدة ويسمى بذلك لانه اثنا عشر قيراطاً ثم تسير مع الغذاء في مجراه وتسلك سبيله هذا غاية المادة الصفراوية

أما الماء فيذهب في عروق الى الكليتين وهما يدفعانه الى الحالبين الى المثانة الى القضيب الى الخارج

(اقوال القدماء وحكماء العصر في الكبد وظهور حكمة الله تعالى فيه)

وبقيت المادة الغليظة التى تكون عادة في اسفل المطبوخ

المسماة بالدردى والعكر وهي المسماة بالسوداء فقال الاقدمون انها تصل الى الطحال وهو يجعلها جزئين جزء يصل الى فم المعدة فيحرك الشهوة وجزء يذهب مع الخارج من الامعاء الغلاظ ولكن المحدثون لم يكتشفوا الى الآن له وظيفة يعرفونها وغاية الامر انهم عرفوا ان فى الجسم كرات بيضاء ذات حياة تخترق كافة العضلات والاوتار والعروق وهذه تارة تكثر وتارة تقل وظيفتها انها اذا وجدت مواد سمية اجتمع منها عدد واخذ تلك المواد ووضعها فى ناحية من نواحى الجسم لا يضره هذا السم وكذلك اذا حصل قرح فى عضو من الخارج اسرعت اليه تلك الحيوانات كلمح البصر وتراكمت على ذلك المكان فامتصت الحرارة المحرقة له وصارت هي نفس القيح الذي به تقل الحرارة عن الجرح فيستريح المريض فاذا قارب الشفاء تراكمت أيضا فصارت لحماً يلتئم به الجرح وهذا فى المكتشفات الحديثة فهذه الكرات البيضاء المالئة لاجزاء الجسم ولا ترى الا بالمنظار المعظم قد اكتشف انها كلما كثرت فى الجسم كبر الطحال فلا بد اذن من علاقة بينها وبين الطحال (وما يعلم جنود ربك الا هو وماهي الا ذكري للبشر) . ولقد صنعوا تجربة

فقطعوا طحال كلب فكثرت تلك الكرات البيضاء فى الدم جداً فمات ذلك الحيوان وهذا أمر عجيب جداً فقد قارب المتأخرون أن يكتشفوا ماذكره الاقدمون فان هذه الكرات البيضاء ماهى الا فضلات لدم التى سماها الاقدمون السوداء والكبد هو المصرف لها وفى ظنى ان بين اقوال الفريقين قرباً يظهره المستقبل .

هذا آخر ما وصل اليه النوع الانسانى فالاقدمون هكذا تقريرهم والمحدثون انكروا اولا فعله فى الجسم بالكلية وقالوا لم يعرف له وظيفة ثم اكتشفوا تلك الكرات البيضاء ولاحظوا تلك العلاقة معه تخميناً .

﴿ مقارنة حيرة علماء الفلك بحيرة علماء التشريح ﴾

لعمرى لقد حار الاقدمون والمحدثون فى الاستكشاف والعلم واقروا بالعجز وانبهر حكماؤهم وعجز علماؤهم وقالوا لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . ان نظرنا الى علماء الفلك وجدناهم صاغرين امام هذه الحكمة الباهرة مقرين بالعجز والتقصير غير معجبين بعقولهم يثبتون اليوم ما نفوه بالامس ثم يقرون على ما نفوه فيثبتونه . فيالله والعدل فكأن الله لما نظم ملكه على العدل وحسن النظام اراد أن يرينا العدل ايضاً

في العلم والاعتقاد. فترى علماء الفلك قبل بطليموس الرومي كانوا يحكمون بدوران الارض حول الشمس ثم عكس القضية بطليموس ثم جاء من بعدهم كوبرنيكوس وارجع الهيئة الى حالها الاولى والاعتقاد الاول وسبقه الى ذلك علماء الاسلام كما اوضحناه في جواهر العلوم . وان نظرنا الى علماء الطبيعة نراهم حيرتهم اجسام الانسان وفعلوا فى التشريح فعل علماء الهيئة في الافلاك من الاثبات تارة والنفى اخرى فهاك مسئلة الطحال اثبت له الاقدمون فعلاً كما علمت وجاء المتأخرون فقالوا أولا لا وظيفة له ثم قالوا له علاقة بالكرات البيضاء فقد قاربوا ان يكتشفوا عمله هذا ولنرجع الى ما نحن فيه فنقول

﴿ ترتيب الاعضاء الباطنة فى جسم الانسان ﴾

اعلم ان الخادم للكبد ثلاثة أعضاء وهى المرارة والكلية والامعاء باتفاق الحكماء الماضين والحاضرين ولكل منها خوادم درجات بعضها فوق بعض فيخدم المرارة العرق الموصل الى الاثنا عشرى وهو يخدم ما بعده المخدوم بما بعده وهكذا الكليتان وهما موضوعتان في الجزء العلوي من البطن وشكلهما كحبة اللوبيا يخدمهما الحالبان فالمثانة فالقناة البولية والامعاء تخدمها المعدة

فالفم فاليد . فالكبد هو المخدوم لهـذه كلها بعضها يجلب النافع وبعضها يدفع الضار ويبقى خالص الدم فيؤديه الى القلب وهو المقصود الحقيقى أما تلك الشوائب فانها تخرج منه لمصالح وحكم عجيبة فانظر كيف كانت المرارة مساعدة على تحليل مواد الغذاء الحاصلة في الاثنا عشرى فما اعجب هذه الحكم وادقها حتى قال تعالى (وفي انفسكم افلا تبصرون) اشارة الى هذه الحكم العجيبة

وهذه الخوادم كما رأيت كل واحد منهما خادم من جهة ومخدوم للآخر من جهة الا الاطراف فانها خادمة لا مخدومة كاليد والقضيب وكلها كما رأيت موصلة للكبد وهو يخدم القلب فهو خادم ومخدوم ايضاً والقلب يخدم الدماغ فهو مخدوم وليس عليه رئيس فالرئاسة الكبرى للدماغ الذى ليس عليه رئيس وبقية الاعضاء خادمة ومخدومة باعتبارين الى ان تصل الى الاطراف فتجدها خادمة لا غير . وكلما كان فعل العضو اقرب الى الرئيس كان عمله اشرف . ثم الشرف والخسة تارة يكونان باعتبار المادة التي فيها العمل ولا ريب ان الحرارة الحيوانية اشرف من البول فعضو الاول وهو الدماغ اشرف من عضو الثانى وهى المثانة

وتارة يكون باعتبار كثرة العمل وقلته فالقلب بلا ريب اكثر عملاً من الكبد مثلاً فهو اشرف بهذا الاعتبار وتارة باعتبار كثرة النفع وقلته فرب عامل يعمل قليلا ومنفعته اكثر ممن يعمل كثيراً كاعصاب الحركة فان معاناتها اشق وأصعب ولكن اعصاب الحس اكثر نفعاً اذ هي موجبة للعلم وهو اشرف من العمل .

والى هنا عرفنا الحكمة الالهية فى الكبد وخوادمه

بقى ان الغذاء بعد مروره من الامعاء الدقاق ويأخذ الكبد خالصه تبقى هناك حثالة فتخرج فى وعاء متعرج يسمى الاعور منسد من اسفل مفتوح من اعلى فتصل ثم في الامعاء الغلاظ فتذهب فيه تلك الفضلات الى وعاء متعرج يسمى السينى وتنزل منه الى وعاء آخر نازل على الاستقامة الى اسفل يسمى بالمستقيم فكأن الطعام في مروره من اعلى الى اسفل انطبخ حتى اذا وصل الى وسط الانسان اخذت خلاصته وذهب ثقله الى اسفل فلله الحكمة البالغة والصنع العجيب (صنع الله الذى اتقن كل شي) فن هنا نفهم اتقان شخص الانسان اما اتقان النوع فيكون عند ذكر المدينة الفاضلة وقياسه تماما على جسم الشخص الواحد لنفهم

معنى قوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة)

هذا ما اردنا ذكره بالنسبة للكبد الذي هو احد خادمى القلب اما الخادم الثانى فهى الرئة

(الرئة)

اعلم ان الحكيم جلت قدرته جعل الفم باب الجسم يدخل منه الطعام او الشراب الواصلان الى المعدة اسفل الحجاب الحاجز فى الجهة اليسرى من البدن ويدخل الهواء ايضاً منه الى الحنجرة الى القصبة الهوائية المتفرعة فرعين داخلين في الرئتين اللتين وضعهما الحكيم جلت قدرته في الصدر وهما عبارة عن انسجة كالاسفنج تتخللها تلك الشعب الدقيقة الحاملة للهواء . ودخول الهواء في الرئتين يحدث بحركتين شبيهتين بحركة المنفاخ احداهما حركة الدخول بانتفاخ الصدر المسماة بالشهيق والاخرى حركة خروج بالانقباض المسماة بالزفير ولكل منهما حكمة عجيبة . اما حركة (الشهيق) فبها يدخل الهواء فى الرئة وقد علم فى المكتشفات الحديثة انه مركب من خمسة عناصر وهي الاكسوجين والازوت (النيتروچين) وحمض

الكربونيك وبخار الماء والارغون وهو عنصر استكشف حديثاً وحمض الكربونيك عبارة عن كربون واكسوجين وادرجين فالعناصر البسيطة له خمس وهي :
(الاكسوجين والاوزت والكربون والادروجين والارغون) فيقابل الدم هناك بواسطة الدورة الدموية.

(الدورة الدموية)

عملت فيما ذكرنا آنفا ان خالص الغذاء يصل بعد نضجه في الكبدوصيرورته دما الى الكبدونقول الان انه يمتزج بالدورة الدموية وذلك ان القلب مقسم اربعة اقسام مجوفات فالتجويفان الاعليان هما الاذينان والسفليان هما البطينان. والدم اذا تقابل مع الهواء فى الرئتين وهو مسود المزاج متغير اخذ من الهواء مادة الاكسوجين لتعطيه الحرارة التى بها الحياة واعطاه المادة الفحمية وهى الكربون اذ الدم اذا اعطى كل عضو ما يستحقه بالحرارة الغريزية والتفاعل العجيب فى الجسم فلا جرم تخالل فيه اجزاء فحمية دخانية تعكره مع تركه ما فيه من المواد الصالحة للغذاء فى الاعضاء فقد اخذت الاعضاء

من الدم الجيد واعطته الخبيث فانظر هـذا العجب العجاب كيف دخل الهواء فاعطى الدم ما فقده فى الاعضاء وهو الاكسوجين واخذ منه تلك المادة الفحمية فيصفو الدم ويذهب الى الوريد الرئوى الى الاذين الايسر فالبطين الايسر بواسطه فتحه بين الاول الذى هو اعلى والثانى وهو الاسفل ذات صمامة تفتح وتقفل سريعا على حسب الانقباض والانبساط بنظام محكم عجز عنه مهندسو القناطر وغيرها . ومن البطين الايسر يخرج فى الاورطى وهو يوزع الدم فى البدن كله بتقدير محكم فيعطى الغليظة غليظاً والدقيق دقيقا والكبير كثيراً والصغير قليلا ولولا هذا لكانت العين كالرأس والرأس كالعين والانف كالرجل والرجل كالانف حكمة قد حيرت من يبصر

وهناك يؤدى مادة الحياة والغذاء الى تلك الاعضاء فيصير لحما وعظما وعروقا واربطة وشرايين واوردة وعيناً وانفاً وفما ومخاً وظفراً وجمالا وحسناً وبهاء وبهجة فانظر كيف صار التراب حسناً وبهجة..وكيف اصبح الجماد حيوانا وانسانا (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون) ثم يذهب ذلك الدم الباقي مادة سوداء في تلك العروق الشعرية المنتشرة

فى الجسم الآخذة للدم الصافي عن العروق الكبرى الوريدية المعطية الدم الاسود للعروق الشريانية ومنها الى الاجوف الذى هو مجتمع العروق الشريانية الى الاذين الايمن ومنه ينزل الى البطين الايمن بصمامة كالمتقدمة في الايسر ويندفع منه الدم الى الشريان الرئوى المتفرع الى فروع داخلة فى الرئة وهناك يتقابل مع الهواء الجوى وهكذا يدور دورات لا نهاية لها (ذلك تقدير العزيز العليم)

وانى ليعجبنى ان هذه الآية ذكرت فى مسئلة دوران النيرات العلوية فانظر كيف ذكر هناك التقدير وان ذلك كله ليسير بمقادير معينة واوضاع محكمة وما اشبه العلوى بالسفلى بل ما اشبه الانسان الصغير بهذا العالم الكبير

ولسنا نقول هذا من باب التقليد وانما نقوله علما وفهما فتأمل معى ايها الاخ فها انت رأيت هذه الدورة ونظامها المحكم فقارنها رعاك الله بسير الكواكب التي يحدث منها اظلام واضاءة أليست كالدورة الدموية وان جرى الدم فى الجهة الشريانية اليمنى كالليل وفى الجهة الوريدية اليسرى كالنهار اذ الاول دمه خال من مادة الحياة والثانى فيه الغذاء والحياة وانه لو انقطع

التنفس لحظة وقفت حركة الدمومات الانسان كما ان الكواكب لو وقفت لحظة لفنى العالم فالحركة في العوالم كلها لا تتناهي. طبع العالم على الحركة علويه وسفليه

الست تشاهد الرياح فانت تراها تتحرك يميناً وشمالا وقد قال علماء الطبيعة ان هناك رياحا دورية تجول في الجو كما تدور الدورة الدموية وكما تدور الكواكب

حدق ببصرك قليلا واجل طرفك في الماء ودورانه الست تجده في البحار الملحة فالسحاب فالارض فالنبات فيتبخر فيصير سحاباً فيرجع ثانياً وينزل في البحر الملح .

اليست هذه كلها دورانا متشابها

تأمل في الطعام فانك تراه ينقسم الى قسمين احدهما يصير دما والاخر ينزل فضلات من الانسان والحيوان ويجعل سماداً ويترقى ثانياً وهكذا حتى يرجع فيصير دما او ينزل الى الخارج وهكذا فما من شيء الا وهو مستعد دائماً للترقي ومهما تسفل فانه يرجع كرة اخرى طالباً العلو

ولقد علمت ما ذكرناه في الصفراء الذاهبة مع البنكرياس الى الاثنا عشري وما هي الا افراز من الكبد ذهبت الى

الطعام لتهضمه حتى يصير دما آخر .

فيا عجباً كيف كان كل ما لفظته الطبائع يرجع لها فيصير نافعا فلولا الصفراء ما تم هضم الغذاء ولولا براز الحيوان وبقايا النباتات ما نما نبات ولكانت الحياة رديئة (كلوا وارعوا انعامكم ان فى ذلك لايات لاولي النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى) وكما خلقنا فيها ويعيدنا ويخرجنا فهكذا يفعل مع كل ما رايته فى الكائنات وكأن هذه الايات الفات لاولى النهى والالباب الى هذه البدائع العجيبة

وتأمل ثم تأمل كيف رأيت الصفراء التي هي الطف من الفضلة الغليظة جعلت طابخة لخالص الغذاء في الجسم اما الفضلات الغليظة نخرجت لتصلح النبات الذي هو فى غاية البعد عن الانسان فلله الحكمة البالغة

ولعمرك ايها الاخ ما هذه الكائنات كلها الا طالبات للترقى الى الاعلى فهاك مقالا حسناً .

تأمل في التراب كيف يصير نباتاً بتلك الاسمدة من فضلات الحيوان والانسان وبقايا النبات فينمو حتى اذا بلغ حصاده درس وازيل المحمول وهو غذاء الانسان عن الحامل

وهو غذاء الحيوان كالتبن وتأمل كيف كان الاعلى للانسان والاسفل للحيوان في نحو البر عدلا وحكمة واتقاناً للصنع .

واذا فصل البر من التبن فانه لا يصلح للدخول في جسم الانسان وانما يحتاج الى صناعات نحو ما يفعل به اذا دخل الجسم باعضاء الهضم فانه يغربل ليفصل منه بقية المادة الغريبة ثم يطحن ويفصل منه المادة غير المقصودة . فمن وقت حصاده الى نخله تعمل فيه اعمال لفصل مالالزوم له فاذا تم ذلك لم يصلح لدخوله الجسم وهو على هذه الحال . وهذه الاعمال هندسية من حيث كميته اما كيفيته فلا بد له من عجن وخبز وبعد ذلك يصلح للاكل فاذا تمت افعال الهضم داخل الجسم صار بعضه انساناً سمعاً وبصراً وحركة وبعضه صار مبدأ لانسان آخر مثله وبعضه مادة تسمد النبات او يأكلها الحيوان فها هو غذاء الانسان صار انساناً حيا ومبدأ انسان سيحيي وغذاء لحيوان او نبات وكل واحد من ذلك يرجع الى الترقي كما صار اليه الارقى وهو القسم الذي صار سمعاً وبصراً وعقلا وهكذا فتأمل في هذه السلسلة من ابتداء كونه تراباً الى نهاية كونه انساناً فلما كان نباتاً علمت ان الاعلى ذهب الى ما ذكرنا واما الاسفل

وهو التبن فانه اكل الحيوان او منفعة للانسان ادنى من الاكل كأن يجعله وقوداً او داخلا فى البناء فانظر كيف كانت الاشياء موضوعة مواضعها والجاهل لا يعقل لها معنى وهذا من ملكوت السموات والارض الذى اراه الله لسيدنا ابراهيم اذ قال (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين) فهذا حقا الايقان واليقين الذى يرينا كيف يكون النظام ثم غذاء الحيوان طبعاً ترقية له ويحصل فيه انقسام كانقسامه فى بدن الانسان فمنه ما يصير حيواناً سمعا وبصراً وذوقا وشما ومنه ما يكون مبدأ لحيوان آخر ومنه ما يخرج فيصير غذاء للنبات وكل واحد من هذه يترقى الى المرتبة التى فوقه

فتأمل بعقلك كيف كانت جميع هذه المواد طالبة للرفعة والتنقل من اسفل الى اعلى وكلما صارت ترابا رجعت الى العلو ولا تظن من التعبير اننا نقصد انها هى التى تطلب فانه غير معقول وانما نقول نظام واحكام وحكمة عالية دبرت هذه المواد وبرهنت للعلماء والحكماء على حسن الابداع وجمال الصانع وغرابة افعاله حتى ادهشتهم وحيرتهم وكلما زادوا تعمقا في البحث ازدادوا

شوقا واستطلاعا وازدادت الحقائق تقصيا واستبعادا . ولقد ضرب رئيس المجمع البريطانى فى آخر القرن التاسع عشر مثلا لذلك (فقال كان الاقدمون يقولون ان الهواء بسيط وآخر اكتشاف وصلنا اليه انه من خمسة عناصر فاصبح كل عنصر يحتاج الى بحث وحده ولعله مركب من عناصر وهى مركبة من اخرى الى مالا يتناهى فها هو ازداد العلم وتباعدت الحقائق) ويقرب من هذا ان نعيم الجنة لا يتناهى وهو يتزايد كلما امتد الزمان كانه بالعلم بازدياده تزداد الاشواق وتبتعد الحقائق ثم تامل في سوق النباتات وجذوع الاشجار وفضلات الحيوان التى قلنا انها منافع للانسان فى خارج جسمه او للحيوان فى اكله اذا احترقت فانك ترى نارا ودخانا ثم نارا صافية ولعمرى انها تعبر عما يؤول اليه حال الرماد الباقي اذ هو مستعد تمام الاستعداد الى الدخول فى جسم النبات ثم يترقى فى زمان طويل او قصير الى ان يصير حيوانا او انسانا الا ترى ان النار الخالصة من شائبة الدخان كانت نهاية الاحتراق فهكذا يرتقى الى النور الخالص والعقل في الانسان وكأن النار فى شبوبها تمثل حركة نمو هذه الحوادث وتشير بلطف خفي الى رقيها من

احسن الى اشرف. وهنا نكتة لطيفة وهى ان مركبات العناصر تارة لا تقبل النار اذا كانت فى مرتبة الحجرية والترابية فاذا ترقت نباتا قبلتها وتدوم فيها بدرجات مختلفة على حسب المواد الزيتية قليلة او كثيرة الى الزيتون فاذا ترقت حيوانا قبلت الاحساس مترقياً فيها من اسفل الى اعلى الى مرتبة النبوة التي هى نهاية العقول فلذلك ضربت الامثال للعلوم والعقول بالنور (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة الاية) ويشير اليه قوله تعالى (الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً)

وهذه العناصر في الترقي مختلفة فمنها ما يطول امده ومنها ما يقصر على حسب ما يصادفها فى سيرها ومنها ما يرجع الى اول امره ثانياً وهكذا ومتى وصل العنصر الى النهاية رجع ثانياً وانحل الى اسفل وقام غيره مقامه فى الدخول في جسم الانسان القائم بالخلافة . فانت ترى ان المستضعف منها السافل هو الذى يأخذ فى الترقي وان ما وصل الى النهاية رجع الى اسفل سافلين كما في قصة ابن افعى الجرهمى وابناء نزار وقولهم ان الشراب تغذى من جسم ميت فاذا هو ابوه فقد صار جسم الانسان غذاء نبات بعد انحلاله الى عناصر .

وههنا جواهر

(الجوهرة الاولى) ان سنة العالم الترقى مهما عاقته العوائق وهكذا النوع البشرى يترقى فى مدنيته فى الدنيا والشخص الواحد يترقى بعد موته فيما هو فيه . ومن هنا نفهم أنه كيف استدل على البعث بهذه الاية وهي قوله تعالى (ياايها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج ذلك بان الله هو الحق وانه يحى الموتى وانه على كل شيء قدير وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور) فانظر هذه الآية كيف استدل بها على البعث اليس ذلك لتشابه العالم وان اوله كآخره فى سنن الترقى

(الجوهرة الثانية) ان سنة الكون وان كانت كلها فى الترقى فهى تختلف فى تدريج سيرها واليه الاشارة بقوله مخلقة وغير مخلقة

ثم اعقبه بقوله لنبين لكم اذ السيرليس متحداً بين انواع السائرين

(الجوهرة الثالثة) ان الذى يصل الى النهاية هو الذى ينزل الى اسفل سافلين من العناصر ويقوم غيره مقامه ومن هذا يعلم ان الامة المستضعفة هى المستعدة للترقى الى ان تصل الى نهاية العزة وتقوم مقام غيرها الا ترا ه تعالى يقول (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض) ويقول (وتلك الايام نداولها بين الناس).

وهذا حقيقة مقتضى العدل وسنة الكون لا تجد دولة تبقى امداً طويلا فللدول اعمار وآجال كاعمار الانسان وآجاله اليها تنتهي وتقوم اخرى مقامها .

(الجوهرة الرابعة) لما علمت ان سنة الكون هى الترقي وان المستضعف هو الذى يرقى فاليائسون اغبي الجاهلين ولذلك قال (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) فكل امة تيأس من الترقى فقد دلت على جهلها بنواميس الكون ووقوعها فى مهواة الانحطاط ودرك الخسران فى الدنيا. اولا يرون ان دوران العالم كله كالدورة الدموية في الجسم التى نحن بصددها فبينما يكون الدم وريديا اذا هو شريانى فيرتفع تارة وينخفض

اخرى وهكذا نجوم السماء وماء البحر وكذا الجو

(الجوهرة الخامسة) إن الاية المتقدمة مذكورة فى سورة الحج ومن العجيب ان الحج عبارة عن اعمال مخصوصة من العبادات فى مكان يحجه اى يقصده جميع المسلمين من اقطار الارض ويجب على القادر ان يحجه فى العمر مرة فتأمل كيف ناسب الوضع الدينى نواميس الكون اذ كلها تنتهى الى نقطة واحدة وهو الترقى وان اختلف سيرها بطآ واسراعاً فهكذا الحجاج يذهبون لمكان واحد وان اختلفت المسافات قربا وبعداً بل الدين كله عبارة عن قصد الى رقي النفس وان اختلفت العبارات وتنوعت الاشارات وتباينت العقول .

(الجوهرة السادسة) من المدهش العجيب ان البعث الذى استدل عليه الله سبحانه وتعالى بالاية المتقدمة الدالة على ترقى الكون يناسب تمام المناسبة لسنن ترقى العناصر الا ترى ان الصراط يختلف مرور الناس عليه فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من هو كالنجم وهكذا الى من يمشي على بطنه فهاهنا اختلاف فى السير من باب ضرب الامثال كما اختلفت العناصر فى سيرها للترقى وهكذا الحجاج والعباد على اختلاف طبقاتهم فبين

الحج والبعث وترقى العناصر مناسبة فلهذا استدل به الله تعالى فكأنه يقول ها انتم شاهدتم سير العناصر فى الترقى من نطفة وعلقة وهكذا الى ان تصير بشراً سويا وسنتنا واحدة ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا فانتم هكذا تترقون فى عالم أخر ولقد وضعنا لكم سننا تسيرون على مقتضاها عبادة وعلما ترمز الى ذلك « افلا تبصرون »

(الجوهرة السابعة) هذه الحركة المستمرة في الدورة الدموية ونظائرها في الكواكب والماء والعناصر تستفز الانسان الى التشمير عن ساعد الجد والنشاط فمن وقف عن الاستطلاع الى المعالى لحظة واحدة فهو جاهل بسنن الكون حائد عن الوجهة التى خلق لها اولا يرى ان الحركة عامة في جميع الكائنات حتى الذرات الصغيرة بل لولا الحركة ما امكن التجاذب الذى به حفظ النظام فاية امة او انسان لم يفقه ما خلق له ولم يجتهد فى الاعمال النافعة المرقية له ولامته فجزاؤه السقوط في الدنيا ولعذاب الاخرة اشد وابقى . وليغالب عقبات الدهر وتقلبات الحوادث مستعيناً بمن سن هذه القوانين قارئاً (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون)

(الجوهرة الثامنة) الدورة الدموية تجرى بنظام محدود وقانون لا تتعداه وبهذا السر دام الكون كله فمن لم تكن اوقاته كلها مرتبة وكذا امكنته وعلومه واعماله فهو من الاخسرين اعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً اولئك الذين كفروا بآيات ربهم) ولا ريب ان من الايات المذكورة حسن النظام في جميع ما يدور فى العالم .

(الجوهرة التاسعة) ربما يظن ان موت فلان وحياة فلان وتحرك الاشجار وتمايل الاغصان وهبوب الرياح بلا نظام حسب مايصادف من الاحوال وترى الدم في العروق الشعرية في الجسم كأنه ساكن وهو يزيد وينقص بالاتفاق . ومن علم ان الدورة بنظام فلا جرم ان ما نتج عنها بنظام تبعاً لها وانما كثرة الفروع التي لا يمكن عدها حتى كان كل عضلة من عضلات الجسم مركبة من عروق شعرية لا تكاد تحس اوجبت عدم تمييز الدورات فيها وتمييز النظام وقس عليه ما ترى فى الماء والعناصر والتفرق والاجتماع والموت والحياة كل ذلك بمقدار تابع لنظام السموات السائر بقوانين محدودة (وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)

(الجوهرة العاشرة) سير هذه الدورة والدورات المناظرة لها بنظام ينتج منه العدل وبيانه انا لو نظرنا كوكباً من الكواكب سائراً في جو هذا الاثير فبالله اي نقطة اولى به من الاخرى وكل نقطة يجب ان يكون ملازما لها الكوكب فتعارض امر ان بقاء الكواكب في موضع واحد دائماً ابداً مع حرمان النقط الاخرى من الدائرة منه وسيره في جميع النقط واحدة بعد الاخرى مع ان كل واحدة منهن تطلبه لها دائماً فلم يمكن الا ان يمر بالنقطة الواحدة حيناً بعد حين ويعم جميع نقط الدائرة . وان سألت عن العدل لم تجده سوى هذا فقد حصل دوام الوجود في كل نقطة ولكن وقتا بعد وقت ووفيت كل واحدة قسطها من الكواكب ومثل هذا ما نحن فيه من الدورة الدموية والرياح والماء والعناصر فبين النظام والعدل مناسبة تامة وهذا هو المعبر عنه بقوله تعالى والسماء رفعها ووضع الميزان فمتى فهمت هذا الكتاب عرفت مقصود الميزان والعدل والقسط المذكور في قوله تعالى شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم فياليت شعري ما للنفوس البشرية معرضة عن ادراك

كنه ما حولها من الكائنات

(الجوهرة الحادية عشرة) واذ عرفت ان سنة الكون انما هو العدل فيجب علينا ان نعدل فى جميع اقوالنا وافعالنا بأن نضعها فى مواضعها اللائقة ونحكم بين الناس بالعدل كما شاهدنا فى الكائنات وعلى طبقها جاءت اشارات الكتب السماوية

هذا ما خطر بالبال عند ذكر الدورة الدموية اثبته ليكون تذكرة لى ولاخ صادق الرغبة في العلوم

ولقد اطنبنا في هذا المقام لغرابته وحسنه واذ قد عرفنا وظائف الكبد والرئتين الخادمين للقلب الخادم للدماغ وقد قدمنا ان القلب وحركة الدم فيه وضعت لبقاء الشخص فلنذكر الان ما به بقاء النوع وهو اعضاء التوليد التى بها يلد الانسان والحيوان والنبات مثله

(اعضاء التوليد)

قضت سنة الكون ان الاشخاص تفنى ولا يبقى الا الانواع رحمة من واضع هذه النواميس وعدلاً . الست ترى ان هذه المادة التى منها صنع هذا الكون كما علمت مما قدمنا

في مواضيع من هذا الكتاب انها مادة بسيطة خالية من كل نقش وصورة ادركها العقول ولم تتجل للحواس الا في جلابيب الصور والاشكال وانت ايها الذكي ترى ان الاشكال لا تتناهى عداً فبحقك قل لي اي صورة اولى بالمادة من الاخرى أليست كل صورة لها الحق ان تكون في المادة فتساوت جميع الصور بالنسبة لها في الحق فكانت كل واحدة يجب ان تنفرد بالصورة وحدها دون ما عداها ومن جهة اخرى فالصورة الواحدة اذا تشكلت بها المادة كان الواجب ان تبقى ابد الابدين ودهر الداهرين فلا يموت انسان ولا يذبح حيوان ولا يحصل تغيير البتة . فلما تعارض هذان الامران حكم ذو العدل والميزان والقسط اللطيف الخبير منظم الاعمال فأوجب ان تلبس المادة صورة بعد صورة وشكلا بعد شكل بحكم النظريه الاولى فكان الموت والحياة والزرع والحصاد ودوران الافلاك وهذه الحركة العامة .

ثم اخذت خلاصته من الصور ليبقى مثلها فتفنى الاشخاص وتبقى الانواع فنوع الانسان مثلا تموت اشخاصه ولكن يبقى نوعه وبقاء النوع بحكم القضية الثانية ففناء الاشخاص لئلا يحصل

الاجحاف وبقاء الانواع ليكون لها نوع من البقاء فهذا هو الامكان المذكور في قول الغزالى ليس فى الامكان ابدع مما كان.

ولعمرك لولا الموت والحياة والزرع والحصاد لبطلت الحركات وسكن الكون ووقفت الكواكب وتحطم الكون كله واليه الاشارة بقوله (الذى خلق الموت والحياة) (هو يحيي ويميت فاذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) فتأمل كيف عبر بلفظة قضى اشارة الى ما علمت فى النظريتين السابقتين

واذا علمت هذا فلنذكر كيفية التناسل فنقول : إن الدم اذا غذى اعضاء الجسم وأخذ كل قسطه منه بقيت هناك مادة تحول الى منى فان الغذاء يطبخ أولاً فى الجهاز الهضمى وثانياً فى الكبد وثالثاً فى الاعضاء ورابعاً تصير البقية منيا يتم نضجه في عروق تحت العانة تعينها الانثيان فاذا تم النضج اخذت تطلب الخروج الى ماخلقت له الى الرحم بواسطة عضو التناسل فيفعل الانسان فعل الطبيب بالمريض. فكما ان الطبيب لا بد له من عقاقير وآلات يديرها بها ومن تلك الآلات ما هو متصل به تمام الاتصال وهو اليد ومنها ماله به نوع اتصال وهو المبضع الذى به دخول الدواء فى جسم المريض فكذلك

الرجل آلته فى تدبير مادة التناسل هى تلك العروق تحت العانة مع مساعدة الانثيين وهى قائمة مقام اليد فى الطبيب وآلته في ادخال تلك المادة هي آلة التناسل بها تدخل المدة فى الرحم وهى قائمة مقام المبضع وكلاهما فى المرتبة الثانية في العمل. فالمبضع بعد اليد المحركة للدواء المعطية له قوام ما يليق بالمريض والعروق التى تحت العانة اعطت لمادة التناسل قوامها وشكلها بتدبير الحكيم العليم.

وكما ان الطبيب ليس له عمل الا ادخال الدواء في جسم المريض ثم تتم هناك افعال الدواء ولا علم للمريض بها ولا دخل له بل ربما تتم افعالها وهو ميت فكذلك الرجل متى وضع المادة فى الرحم حصلت تلك الافعال التى بها يتم خلق الجنين في الرحم ولا علم للرجل ولا للمرأة به كما انه لا علم للطبيب ولا للمريض بما يفعله الدواء في الجسم.

واعلم أن ماء المرأة منه يخلق الجنين ومنى الرجل هو الذى يعطى الصورة فقط وما مثلهما الا كمثل الانفحة واللبن والخمير والعجين فليس للانفحة بالنسبة للبن الا اعطاء الصورة فقط فيصير جامداً بعد ان كان سائلاً وهكذا الخمير انما يعطى العجين

صورة الانتفاخ وخروج المواد التي يضر بقاؤها منه فهكذا مني الرجل يتوقف عليه تخلق الجنين.

فالولد انما يخلق من مادة فى رحم المرأة وان كنت في شك من ذلك فتأمل فى دم الحيض الست تراه ينقطع ايام الحيض أليس ذلك لتغذية الجنين ولا ريب ان الغذاء به النمو فأما تشكل هذه المواد بهذا الهيكل فانما يكون بحلول مادة الرجل فيه واذن تخلق الاعضاء وتتشكل بنظم عجيب وسر غريب . ويا ليت شعرى ما الذي ينقش تلك الصورة في داخل رحم المرأة ونحن لا نرى نقاشاً لا داخل الرحم ولا خارجه حتى صنع العين والحور والاصداغ والنظر والانف وتقويسه والثغر وحسنه والثنايا وبريقها ورقتها والشفة ودقتها وما الذى اوجب تناسب الاطراف فجعل مد اليدين يساوى طول الانسان وان الطول والعرض متساويان وانهما ثمانية أشبار وما الذي أوجب تلك النسبة ثم ما الذى قوس الحاجبين لم نر قلما يسطر ولا نقاشاً يهندس هذه هى العجائب التى حارت فيها عقول الحكماء

ويا ليت شعرى ما المناسبة بين منى الرجل وبين هـذه الاعاجيب وهل هو الذى ساق المواد الى ما تصلح له فأعطي

العين مع رقتها والاذن مع دقتها والمخ مع لطفه والانخاذ مع غلظها والعظام مع جمودها المواد الصالحة لكل بحسبه فالمواد الداخلة فى عنصر الدم مختلفة كثيرة على حسب اختلاف الاعضاء ثم توزع بعد الدخول في الرحم الى ما اريدت له ذلك تقدير العزيز العليم.

فهذه العظام تدخل فيها المادة الفصفورية التى تعجن مع مواد اخرى وتوضع على اعواد الكبريت وبها يوقد الناس وهى التى يظهر ضوؤها من منافذ المقابر عند تحلل العظام في القبور فهذه المادة في مواد الغذاء كيف تخرج من الدم وتذهب الى العظام وهكذا حدقة العين كيف تذهب اليها المادة الزجاجية التى تصنع منها العدسات. ان هذه لحكمة حار فيها العقلاء وان أردت المزيد فعليك بما سطرناه فى كتابنا ميزان الجواهر فاذا فصلت الاجزاء تميز القلب أولا ثم أخذت الاعضاء فى التفصيل وآخرها وجودا أعضاء التناسل وبها يتميز الذكر عن الانثى وهذه عامة في نوع الانسان وهكذا الحيوان فترى الذكر والانثى منفصلين ولما كان الحيوان اقل شرفاً من الانسان واضعف تركيباً وجد بعضه وليست وظيفة الذكورية كاملة فيه كبعض

الاسماك تبيض اناثه فيأتى الذكر فينزو على البيض فيصيب بعضه ولا يصيب الاخر فها هى وظيفة الذكوريه لم تنل تمامها كما فى الحيوانات العليا وكما فى الانسان ثم بعض الحيوان يحاك الذكر مع الانثى فينزوان على بيضهما .

اما النبات فالذكر والانثى فيه غير متميزين تميزهما في الحيوان وقد علمت ان وظيفة الذكورة اعطاء الصورة ووظيفة الانوثة تكون المادة فها هى جميع الحبوب والنوى توضع فى الارض فتنبت وتخضر بما نالت من قوة الذكورة والانوثة معاً وهذا باعتبار ما عرفه الاقدمون وتأمل كيف اظهر الاكتشافات تفصيلاً اوسع وعلم ان النبات فيه ذكور واناث تارة في نبات واحد وتارة فى نباتين وتارة في زهرة واحدة وتارة في زهرتين (يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) ولما كان من اعجب التدبير واتم التفصيل ما رآه الناس فى النبات من الذكورة والانوثة اعقبه بقوله (وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فالذكورة والانوثة علم انهما واضحان فى النبات

كله وفى النخيل المعروف امره من قديم فترى الزهرة الذكر تعطى الزهرة الانثى مادة فيها فتظهر صورتها وتتخلق كما يتخلق الجنين ويبقى حبا او نوى ويمضى زمان فيزرع ويخرج بما نال من القوتين المودعتين فيه . غاية الامر ان الحيوان يحتاج الى الدقة والنبات بخلافه اذ يمكث جنينه مدة طويلة ويقرب من النبات الحيوانات التى تبيض وارفع منها ما تحمل وترضع . فتأمل كيف كان ارفع المولدات شروطه اكثر ومقيداته اعظم لما اعطي من العقل والقوة وما كان اوسط كالدجاج جعل بيضه يبقى مدة قصيرة ليحضن وان زاد عنها فسد اما النبات فان ما هو بمنزلة البيض فيه وهى الحبوب والنوى تعطى مواد التغذية داخلة فيها كما فى البيض وتبقى أمداً طويلا شهورا بل سنين ثم تزرع فتخرج زاهرة ناضرة .

فالاقدمون عرفوا الذكورة والانوثة فى نفس الحب والنوى ولم يعلموا ما سبب ذلك واكتشفه المتأخرون .

هذا هو الاجمال فى تزاوج النبات وان اردت المزيد فعليك بكتابينا ميزان الجواهر وجواهر العلوم واول هذا الكتاب أيضاً فقد اودعناها مايكفيك قراءته ولكن لا بد

لنا من ذكر اية (والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد) فذكر اولا عند التبصرة البهجة والتزاوج وعمم جميع الاصناف وخصص فى قوله جنات وحب الحصيد وعمم الخلق كلهم في الرزق

فكانه يقول ان جميع النبات فيه تزاوج ذكور واناث مع بهجة وجمال وحسن وبهاء وهذه تكون ذكرى للخواص لا للعوام فبهجتهم تكون بكل نبات متى ادركوا حكمته وما فيه من العجب . واما كافة الناس فان رزقهم يكون من اصناف معلومة كالجنات وحب الحصيد والنخل ذات الطلع النضيد . فهذه امور مشتركة بين جميع الناس الخاص والعام ولم يذكر معها بهجة ولم يخصصها باحد ولم تعم جميع النبات اما فى الخواص فقد اشار الى ان رزقهم التبصرة والتذكر والتعقل الراجعة الى البهجة وادراك الجمال والحسن والرونق فلذلك ذكر فى جانبهم البهجة اما هؤلاء فلذاتهم امور حيوانية اذ الاكل اشترك فيه الحيوان والنبات والانسان وادراك الجمال لاولى

الالباب الذين عرفوا ماهى لذتهم وما المختص بهم وما هو جمالهم وبهاؤهم واشراقهم وبهجتهم . فلعمرك ان معرفة قوة الذكورة والانوثة من اغرب ما يدهش العقلاء ويحير الحكماء فى اصناف النبات والحيوان والانسان فانظر كيف تخلق اعضاء الرجل والمرأة متشابهين فى الحواس والاعضاء ما عدا عضوى التذكير والتأنيث وهكذا فى القوى والادراك الا في امور تميز فيها الذكور عن الاناث فاعضاء الحركة والتحريك فى الرجل أقوى منها فى الانثى وهكذا الحرارة فيه اقوى منها وما كان من الصفات قوة وشدة فانها في الرجل اقوى وما كان فيها من رحمة ورأفة فهى في الانثى اقوى واما فيما عدا ذلك فيتقاربان ويحصل اختلاف واتفاق على حسب الاحوال .

﴿ ابداع غريب وحسن وضع وترتيب ﴾
فى الكبد والرئة والحواس

ليعرني قارئ كتابى هذا سمعاً وليصغ الى ما أقول الان وليناجني بضميره وليدخل معى فى عباب هذا البحر من العلم ولينظر الرئة والكبد وترتيبهما مع المواد العنصرية

فياليت شعري اننا نرى ماينفع الانسان اما غاية فى اللطافة او الكثافة والاول هو الضوء والثانى عناصر طبقات الارض المكونة للنبات. واما متوسطة بينهما وهذا المتوسط اما اقرب الى اللطافة وهو الهواء او الى الكثافة وهي عناصر الماء

ثم تأمل كيف كانت هذه الاقسام الاربعة موضوعة بترتيب درجاتها فالاثقل في اسفل وهي الارض وما يقرب منه فوقه وهو الماء ويليه عناصر الهواء ويداخلها من فوقها الضوء اللطيف الذى لا وزن له وانما هو حركات فى الاثير آتية من الكواكب سارية في هذه الاجسام الشفافة اللطيفة للمناسبة. هذا هو وضع مايحيط بالانسان والانسان في وسطها كأنه جنين يحيط به الهواء المتداخل فيه كرات الماء (البخار) وفيه الضوء ومن تحته الارض فهذه كلها محيطة به احاطة الرحم بالجنين في بطن المرأة ليتبين للعقلاء تمثيل احاطة الرأفة من ذلك المبدع بهم وكيف تمثل احاطته بالناس وما مقدار تحببه اليهم والذى يهمنا الان ان ننظر لوضع جسم الانسان وترتيبه ومقارنته بها فنقول

هذه المعدة تحت الحجاب الحاجز فى البطن ومعها الامعاء وكلاهما فيه الطعام يطبخ والكبد يأخذ مارق وراق ولا يدخل

لهذه الاعضاء مما حولنا الا المواد العنصرية الارضية الثقيلة مع الماء وماتركب منهما فانظر كيف وضعت هذه المذكورات اسفل لمناسبتها لما تأخذ منه (الارض والماء) وتأمل كيف وضعت الرئة اعلى واخذت من الهواء اذ هو اعلى من سابقيه فما هذا التناسب العجيب فما كان في البطن فمادته الارض والماء وهما اسفل وما كان فى الصدر فمادته الهواء وهو اعلى منهما ثم انظر أيضاً فى الحواس الخمس فانك تعلم ان حاسة اللمس وان كانت تعم الجسم كله فيمكن اعتبار اليد هى التى بها الاحساس اعم من غيرها لانها تمر على الجسم كله فيمكن اعتبارها عضو الاحساس . واللسان للذوق والانف للشم والاذن للسمع والعين للابصار فكل واحد منها وضع بازاء ما يناسبه وهاك البيان اللمس يكون للمواد الغليظة التفلية وغيرها فلذلك عم الجسم كله واليد جعلت اسفل من الحواس الاخري لان عملها في الاحساس انما يغلب فى المواد الارضية والمائية والذوق وضع فى اللسان لانه لا يذوق كل شيء وانما يختار بعض ما يمكن بخلاف اليد فهي تباشر كل شيء وللذوق خلاصتها فلذلك وضع اعلى فى الفم للطف ما يذوق نوعاً وانه خلاصة لما يلمس باليد

والانف فوق الاثنين لانه عضو الشم ويأخذ المواد اللطيفة بواسطة الهـواء فلذلك كان يشم القريب والبعيد ويحتاج الى العناصر الدقيقة المتخللة فى الهواء فهو ارفع من حاسة الذوق واقرب الى حاسة السمع التى تسمع الاصوات وهى حركات فى الهواء لا دخل للعناصر فيها ولا مواد تخللها وتسمع من بعد كثير فهى ارقى من حساسة الشم ووضعت في الجانبين اللذين هما اقل من المقدم الذى فيه البصر لانه لا يرى الا بالضوء ويميز الاشكال والصور والالوان والاضواء (الاتية من الكواكب المناسبة لوضع العين فهى اشرف واعلى) والقرب والبعد والصغر والكبر فهو اشرف الحواس لارتفاع مكانه وشدة تمييزه وحسن ما به ابصاره فهو مقدم بالمكان والشرف والرتبة على سائر الحواس ويرى من بعد عظيم الى مسافة مئات ملايين من الفراسخ والكواكب ذات البـعد الذي يعجز الانسان عن تقديره وهذه لم تصلها حاسة غير النظر

ولاريب ان كل حساسة تميز على بعد اكبر فهى اشرف والعكس بالعكس فتأمل كيف كانت حساسة اللمس وهى اسفل لا تحس الا بالملاصق ويليها الذوق ويعلو عنهما الشم فالسمع

فالبصر وبالجملة فكل حاسة تميز باربعة مميزات المادة المستعملة هى لها وقوتها في ادراك القريب والبعيد ومكانها فى الجسم ووضعها بما يناسب ما تستعمله

فهذه من حكم وضع جسم الانسان العجيبة التى تترفع ان ينالها من يضيع أوقاته فى اللعب واللهو ومن يشغل الاوقات باظهار مسئلة عرفها ليفتخر على الاقران فمثل هؤلاء يظنون ان المقصود من العلم انما هو غلبة الاقران في المجالس والتظاهر ولم يعلموا ان نفوسهم تطالبهم كل آونة باشباعها من هذه الحكم الغريبة المودعة فيما حولهم من الكائنات فياليت شعرى كيف يقر لعاقل قرار اذا لم يعرف حكم هذا الكون التي تركت فطاحل العلماء والهين بها صاغرين امامها فرحين بما آتاهم الله من فضله قارئين (فبذلك فليفرحوا هو خير بما تجمعون)

او لم يروا انهم ياسفون على الحياة اذ المعت لهم بارقة من بوارق العلم ويتأففون حسرة على مافرطوا ثم يرجعون لاهين على عادتهم (كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا) (افلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء)

وهناك حاسة أرقى من هذه التي هي مشتركة بين طوائف الحيوان والانسان وهي حاسة العقل ولذلك كان اتصالها بالدماغ أعلى من الجميع مستخدما لما يرد عليه من هذه الحواس بقوته الآتية من عالم فوق عالم الكواكب وهو الجمال العقلي يرتفع عن الاجسام ومخالطتها اذ أنت ترى أن الحواس قد حكمت على جميع ما نشاهد حتى أضواء الكواكب فلم يبق لقوة العقل الا عالم فوق ما نشاهد والا فلا عقل ولا عوالم واذا كانت هذه الحواس كل منها له مواد بها اشتغاله وهي تمده فما الذي به صرنا عقلاء وما مادته وبهذا واحده تظهر قوة العقل ويعلم أن له عالما يستمد منه يناسبه تمام المناسبة عبر عنه الاقدمون من اليونان بالعقول العشرة وعلماء الديانات بالملائكة يخافون ربهم من فوقهم ويناسب ما نحن فيه بعض المناسبة تكسير الخليل الاصنام ونظره في الكواكب حتى وصل الى الشمس ثم استدل على المبدع (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا) . واية النحل (أو لم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون

يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) وقصدنا من هذا موازنة ما يذكر فى الكتاب السماوى بما ادركته العقول فوجدنا اتحاداً بينهما فهذا الخليل نظر من الاسفل الى الاعلى الى الاصنام ثم الزهرة فالقمر فالشمس وما وراءها الى مافوقها وها هى الاية الاخرى ذكرت فيها الظلال للاشباح الارضية ثم السموات والارض الشاملة للسبب والمسبب ثم ما فوق ذلك من العالم الذى يستمد منه العقل المناسب له فتأمل ألست ترى بين هذه كلها تناسبا تاما

ثم ان هذه الحواس مرتبة أيضاً من أسفل الى أعلى من حيث الوجود اذ الجنين أول ما يخلق توجد له مادة التغذية فالحس فالذوق فالشم فالسمع فالبصر فها أنت تراها مرتبة من أسفل الى أعلى وجوداً ومن أعلى الى أسفل شرفا وترى كل ما كان أسفل كسلم لما هو أعلى على الترتيب الطبيعى فى الوجود من جعل الاسفل مقصوداً للأعلى وهل بعد البصر الا العقل الذى هو المقصود الحقيقى المستمد من عالم ليس بمادة واذا تكبر البصر عن الاستمداد من المادة وانما استمد من الضوء وهو أرفع منها قدراً فما بالك بالعقل ومن هنا نفهم قولهم الله منزه عن

المادة وتعلم كيف يكون البقاء بعد الموت وان الى ربك المنتهى ومن هنا نعرف قوله تعالى (لقدخلقنا الانسان فى أحسن تقويم) وقال (الله الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) فكأنه يقول كل شيء في العالم حسن والانسان احسن العالم تقويماً لأنا بدأناه من طين ثم ترقى بهذه الاوضاع في المواد المختلفة بحكمة عجيبة حتى استحق أن يلهم العقل الذى يستمد من عالم المجردات (ان ربي لطيف لمن يشاء انه هو العليم الحكيم) وهذه الآية ذكرت فى قصه يوسف عند مسألة صواع الملك وما ترتب عليه من السياسة الموجبة لاجتماع شملهم وحضور أبويه واخوته ليعلم ملوك الارض كيف يحتالون فى السياسات وهكذا وضع الف سياسة فى وضع جسم الانسان واخراجه من المواد الميتة الى أن صار فى احسن تقويم وهذا هو اعجب سياسة تحويل عناصر ميتة الى عاقل متعلم متصرف (ان ربى على صراط مستقيم)

فآخر ما وصل اليه الاحساس فى البدن تلك الاضواء الآتية الينا من الكواكب التى هى الة الضوء في الاحساس وهذا الضوء امره عجيب جداً فانه حارت فيه عقول الحكماء قديما

وحديثاً فان العوالم التى نشاهدها اما اجرام واما اعراض وهذا
الذى نسميه ضوءً الا ندرى اى شئ هو فان كان جسما عارضه
اننا اذا أقفلنا المكان الذى فيه الضوء او توارت الشمس بالحجاب
او غاب الكوكب ذهب النور وهذه تخالف صفات الاجسام
اذ الجسم يبقى في المكان بعد ذهاب واضعه فاما ذهابه بذهاب
سببه فلم يعهد قط فاذن هو ليس بجسم وان قلنا انه عرض فما
لنا نراه ينتقل من مكان الى مكان وكيف ينتقل العرض اذ
الاعراض كالبياض والسواد والطول والقصر والحسن والجمال
لا تتحرك بنفسها وانما تتحرك بغيرها واذا لم يكن عرضاً ولا
جسما فما هو اذن ولما رأى الاقدمون هذا التعارض قالوا انه
يخلق بمجرد مقابلة الكوكب لما امامه ويكون ظهور الكواكب
سبباً عادياً لخلقه وجعلوا هذا ليتخلصوا من تعليله ثم جاء حكماء
الافرنج وفرضوا انه حركات فى الاثير وهو هذا الموجود الذى
لا يدركه الحس وانما ادركه العقل فاذا قابل الكوكب المرئيات
تحرك الاثير الذى لا يرى بحركات سريعة لا يمكن ادراك كنهها
تبلغ في الثانية الواحدة مئات الآلاف فهذه الحركات ينشأ
عنها هذا الضوء الذى نراه بابصارنا وهذا الغرض الذى تخيلوه

لم يجعلوه آخر الاراء وانما فرضوا ذلك لحل المشكاة مؤقتاً حتى يجعل الله لها سبيلا آخر فى المستقبل وها انت تعلم ان الاثير الطف من المادة وهو شيء اقرب الى المجردات فبالاولى تكون حركاته الطف وابهج ولذلك تري الضوء امامنا اجمل شيء نراه حتى حمل الصابئين على عبادة الكواكب والمجوس على عبادة النار لما فيها من النور فياليت شعرى ما للناس أصبحوا سكارى وما هم بسكارى ولكن الشهوات شديدة والآلام المعنوية عديدة ها هو الضوء ينادي جميع الامم يوبخهم انهم لم يعرفوا كنهه بل حاروا في ظواهره ونواميسه التي بها تدرك العين الموضوعة طبقاتها وضعاً غريباً فهى من مواد زجاجية من الرمل وما معه من مواد الزجاج ويتنوع هذا النور فيها تنوعا سنأتى على تفصيل بعضه فيما بعد والذي نختاره فى ترتيب العوالم ما اشرنا اليه من انها تأخذ فى اللطف من اسفل الى أعلى حتى تصل الى الضوء وهو وسط بين الاجسام والمعنويات وبه تدرك الابصار وتراه داخلا فيما لا يدخله الهواء لشدة لطفه جداً فاذا تراقينا عن العين رأينا الدماغ وهو مناط الروح والادراك واذن يجدر بنا ان نتكلم على علم النفس

﴿ الباب السابع ﴾

(المرتبة الرابعة — علماء الفلسفة العالية)

(علم النفس)

الى هنا وصل علماء الطبيعة وقالوا الاطاقة لنا بما فوق ذلك فان هذا آخر ما وصلت اليه ابحاثنا ولو عرفنا علم من هم ارقى منا من علماء العلم الاعلى ما ذكرنا هذه المباحث فجاء قوم ارقى منهم عقلاً واسمى نظراً وقالوا نحن عرفنا ماعرفه عوام الناس وشعراؤهم وما استنتجه رياضيوهم من القياس في الجسم وما ادركه مشرحوهم وطبيعيوهم فلنبحث اذن نحن عما هو ارقى من هولاء ولا يصح لنا الوقوف عند هذا الحد وقد قال تعالى وفوق كل ذي علم عليم تنبيهاً لذوى العقول على الجد والبحث والتشمير في نظر الاشياء ولقد رأينا الاطباء لا يعرفون من الانسان الا اعضاءه المفصلة وروحه الحيوانى وهو عبارة عن خلاصة الدم الحاملة للحرارة الحيوانية السارية في سائر الحواس وما هذه الحرارة الا كسراج يدار فى جانب المنزل فتضيء جوانبه وتخرج منه اضواء الى الخارج من منافذه فهكذا هذ الروح الحيوانى

المنبث في أعصاب الحس وأعصاب الحركة الخارجة من الدماغ والنخاع الشوكى وهذا الروح هو الذى يعرفه الطبيب فاذا سد شريان أو وريد أو انقطع عرق ووقف العضو عن العمل عالج الطبيب هذا العضو حتى يخلص الروح الحيوانى اليه أما مافوق ذلك من عالم النفس الذى هو أرقى من الضياء فهو من عالم فوق عالمنا وفوق قدرة الطبيب ولا يمكن معرفة بعض ظواهره الا بمزاولة الطبيعيات والرياضيات وقد قدمنا فى كتابنا هذا وسائر كتبنا مايكفى الذكي ان يدخل معنا فى عباب البحث فى هذا العلم

وقد قدمنا في آخر التشريح قريبا ان البصر ادرك الاضواء وبها ميز الالوان بعضها عن بعض والاشكال والصور والجمال والتناسب وقد كبرت العين وتعاظمت أن تتنازل الى الهواء فتبصر بواسطته وتشامخت عن المادة وارتفعت الى ماهو متوسط بين المادة والمجردات .

اما العقل الذي يستخدم تلك الحواس ويدرك بواسطة الجزئيات الآتية اليه كليات كأن الكل مثلا اعظم من الجزء من مبادىء الهندسة ومبادىء معرفة مالا دخل للانسان في خلقه والتمييز بين الحسن والقبيح من افعال الانسان وهى الحكمة العملية

فذلك لايجوز ان يكون مدركا بلاشيء مشرق عليه ممايناسبه

وكما ان العين مع صحتها لا تدرك الا باشراق أنوار عليها من الكواكب البعيدة عنا المرتفعة جداً فهكذا عقولنا التي هى ارقى من ابصارنا لاتدرك الا باشراق نور عليهامن عالم لايجوز ان يكون جسما والا لكان هو اخس من العين ولا متوسطا بين الجسمانى وغيره والا لكان مساويا للعين وقد علمناه ارقى منها مكاناً ومكانة واحاطة ومعلومات فاذن ادراكه انما يكون باشراق نور من مجردات عن المادة لانراها بحواسنا وانما عرفناها بعقولنا وكما ان البصر لايدرك الا اذا كان صحيحاً فهكذا العقل لا يدرك الا اذا سلم من الآفات وكما ان البصر لايدرك بنفسه وانما يدرك بواسطة نور يأتى له من عالم اعلى وهى الكواكب فكذلك العقل لايدرك وان كان صحيحاً الا باشراق عليه مما يناسبه وكما ان البصر يدرك النور بنفسه ويدرك بواسطته الاشياء ويدرك مشرق النور وهي الكواكب ولا يدرك ذلك كله حاسة اخرى مما هي تحت العين فهكذا العقل يدرك الاشياء بواسطة اشراق يناسبه من موجود ليس بجسم فيدرك ذلك النور ومبدأه ولا يقدر على ذلك غيره مما هو اسفل منه طبعاً

وهو البصر وغيره وكما ان الاضواء الآتية من الكواكب بعيدة عنا جداً مرتفعة مكاناً فكذلك الموجود الذى لا نراه الذى يشرق النور على العقل الذي ليس له مكان اعلى فى الرتبة والشرف من العقل بما لا نهاية له .

وكما ان العين مع صحتها واحاطة النور بها قد لا تبصر لمانع صرفها عن ذلك كاطباق الجفن فهكذا العقل قد يحجب عن التعقل والتبحر فى العلم بانصرافه الى جهة الاغذية والمآكل والملابس والعداوة مع الناس وموالاة الاصدقاء ومعاداة الاعداء والى ذلك يشير قوله عليه الصلاة والسلام .

(لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا فى ملكوت السموات والارض) وكما ان مشرق النور وهى الكواكب لا يعرف منها لشدة بعدها الا ظواهر قليلة لا نعرف حقائقها بل نرى اكثرها قدر بيضة مع انها قد تكون اكبر من الشمس فكذلك من اشرق نوره وهو مبدع هذا الكون على نفوسنا لا نعرف عنه الا مايصل من نعمه لنا نظير ضوء الكواكب ولا نعرف من صفاته الا مقدار ماعرفنا من جرم الكواكب وكما ان فينا قوما نظروا بالمنظار المعظم فعرفوا كثيراً من ظواهر

الكواكب وآخرين بالبرهان علموا ابعادها واقدارها واقطارها فكذلك العلماء من جملة الناس قد يحثون بالعقل تارة وبصفاء الفكر اخرى فيتجلى لهم كثير من العلم بصفات من اشرق نوره على النفوس وهو مبدع هذه الكائنات ومن هذا نعلم كيف اقسم بمواقع النجوم على مدح القرآن وما المناسبة بينهما فقال (فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون تنزيل من رب العالمين)

فتأمل كيف اقسم بمواقع النجوم ثم اعظم هذا القسم واكبره جداً واشار الى جهل اغلب الناس به فقال لو تعلمون وذكر المقسم به وهو مدح القرآن واشار الى انه في كتاب مكنون اشارة الى بعد مناله كما بعدت الكواكب وكل هذا لما بين العلم ومصدره والكواكب وانوارها من الشاكلة واما النور فنظير قرآن كريم واما مصدره فنظير تنزيل من رب العالمين لانه هو معلم العلم ومنزل الكتاب كما ان الكواكب مشرق النور

ومن هذا التقرير نعلم كيف يتصور ان يكون موجود ليس بجسم وانه أرفع واجمل من النور وابهى وابهر وانه محيط بكل شيء واذا رأيت ان النور اكثر احاطة بالاشياء فلا بد

ان يكون ما فوقه اكثر احاطة بما يعجز النور عنه وتعلم كيف مثل ذلك بقوله الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح الآية ولسنا نأتى بهذه الآيات مقلدين وانما هى البراهين والحجج العقلية التى نراها بعقولنا كما نسمعها من الشرح ليتحد النقل والعقل واعلم ان العقل هو الغذاء والنقل هو الدواء كما ذكره الغزالى فى احياء علوم الدين

هذا ولعلك شاقك ماسمعته الآن الى معرفة ماهى النفس وما صفاتها وما الذى تحسه وكيف تحس فهاك البيان فنقول .

اعلم ان النفوس ذللت لها هذه الكائنات وكأننا اذا دققنا النظر لم نجد حولنا الا شيئين خادما ومخدوما فالمخدوم هى النفس والخادم هي المادة ولا ريب ان كلتيهما لم تظهرا قط وانما الظاهر صفاتهما فقد اجمع حكماء العصر والاقدمون ان المادة لم يمكن ظهورها الا لصورها المختلفة كما اثبته القدماء . وهكذا مذهب لابلاس الذى اعتبرها كرة غازية تنوعت الى اخره : وما اشبه المادة الا بغادة حازت جميع المحاسن التى يتصور وجودها فى العقل ثم وقفت امام النفوس بحللها وحلاها (والنفوس لم تظهر الا بصفاتها كالمادة فظواهر كل منها تجلت لظواهر الاخرى)

وجمالها وبهاها ونرى النفوس كالعشاق والمادة كالمعشوق فنتمتع بجميع ما فيها من المحاسن واللطائف بحواسها الخمس وتخزن منها مارق وراق بصور في قواها الباطنة كما يستحضر العاشق صورة المعشوق واليه الاشارة بقوله (الذى جعل لكم الارض ذلولا) وقال ايضاً (الذى جعل لكم الارض فراشا) ولذلك ترى اغصان الاشجار كانما تمديدها بالازهار وتسلم على الناظرين اليها وتحيي القادمين عليها وكأن كل شيء يدعوك بلسان حاله (خذ ماتشاء) (كلوا مما فى الارض حلالا طيباً) وقد آن لنا أن نشرع فى المحسوسات فانه اسهل ثم كيفية وصولها الى الحواس ثم الحواس الظاهرة ثم الباطنة فنقول .

﴿ المحسوسات ﴾

اعلم ان الجسم جوهر طويل عريض عميق وهكذا النفس كالجسم ولكنه ليس لها ابعاد ثلاثة وهذا هو الفرق بينهما وانما هى جوهر ليس بمادة وهذا التعريف هو بعينه قولهم انه مركب من هيولى وصورة فالهيولى هى المادة او الجوهر ومعنى الجوهر هو الموجود الذي ليس صفة فى غيره كالبياض والحمرة

والصفرة وهكذا والصورة هى الابعاد الثلاثةوالمادة يستحيل
ظهورها الابالصورة فهى لم تعرف الا بالدليل اذلم نرالاالجسم
واما المادة التى هي احد جزئيه فلم ترقط . واذا علمت ان
الجسم ماذكر فجميع مازاد عن الامتدادات الثلاث فهي صور
متممه وهى صفات كثيرة وكل جملة منها تختص بحاسة من
حواس النفس الانسانية فالحواس خمس اللمس والذوق
والشم والسمع والبصر وصفات المادة ست وثلاثون صفة فعشرة
منها لحاسة اللمس وهي الثقل والخفة واللين والصلابة والملاسة
والخشونة والرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة فهى انما
تدركها القوة اللامسة بملاصقتها لها وهذه الصفات للجسم لا
من حيث هو جسم وانما هى عوارض حدثت له من احوال
عارضة والثقل والخفة لاندماج المادة وانجذابها نحو الارض
مع قربها فى الاول وعدم اندماجها وتخلخلها اوبعدها عن مركز
الجاذبية في الثانى وهكذا بقيتها فالرطوبة لقلة المواد السائلة
عليها واليبوسة بالضد والخشونة لوجود نتوات كثيرة في سطحها
والعكس بالعكس وبقيتها ظاهرة وقوة اللامس تدرك هذه العشرة
من صفات المادة بملامستها

﴿ المذوقات ﴾

وللاجسام تسع صفات اخرى وهى الحلاوة والمراره والملوحة والدسومة والحموضة والحرافة والعذوبة والقبض والعفوصة كالعسل والحنظل والملح والزيت واللبن الحامض والفلفل والماء والليمون والعفص فهذه التسعة لواحق للمادة ومحاسن قدمتها هدية الى حاسة الذوق .

ومن العجيب ان هذه الطعوم التسعة انما تكون فى خلاصة المواد لا كالملموسات التى كانت صفات لجميع المواد فتأمل كيف كانت خلاصة المادة هدية للذوق الذى جعل فى الفم وهى ارقى من الملموسات فكانت الخلاصة للاعلى

﴿ المشمومات ﴾

وكثير من النباتات والمواد الاخرى تخرج منها اجزاء لطيفة تمتزج بالهواء فيتكيف بها فيصل الى قوة الشم في الانف وتصل الى الدماغ فيحس بريحها وينقسم الى محبوب ومكروه فتأمل كيف كانت حاسة الشم فى الوضع اعلى من سابقتيها ولها الشرف من حيث لطف ما تستعمله . ألا ترى أنه لا يأتى لها

الامواد لطيفة في الهواء سائرة اليهافقداستخدمت الهواءلتنال مشتهاها اما سابقناها فكانماتباشران نفس .المادة بدون توسط الهواء لعمرى انه لوضع عجيب

﴿ المسموعات ﴾

والى هنا عرفنا صفات المادة الاحد والعشرين الموزعة على تلك الحواس الثلاثة ولا جرم انها كلها غليظة لم تصل الى اللطف التام وبقى للمادة بهجة ارقى مما ذكر وهي الاصوات الناشئة من اصطكاك بعضها ببعض ولعمرى ان هذه الصفة وحدها تكاد تعبر عن محاسن المادة وتعرب عما استكن فيها من الجمال ولما ضعفت ان تؤدي مافيها من المحاسن وتظهر مااستكن فيها من الجمال لضيق نطاق الصور اذلاتسع صورتين فى آن واحد مع انها مستمدة لصور لانهايه لهاولذلك تراها تلبس صورة وتخلع أخرى فعبرت عن تلك المحاسن والاستعدادات بالنغمات الموزونات المتتابعات لتقوم مقام الصور الكثيرة فى الازمان المتباعدة وسرت تلك الاصوات في ارق جزء من الاجسام وهو الهواء اللطيف فاتى الى الاسماع فطربت النفس وصفت

ولعمرك ان النفس وقد سمعت الالحان لاشبه شيء بمن عشق
فسمع كلام معشوق . وترى ان النغمات كلما كانت اكثر وزنا
واحسن وقعا زادت قبولا وبهجة وحسناً عندالنفس لمشاكلتها
وزن الصور وتناسقها. والاصوات اما حيوانية او غير حيوانية
وغير الحيوانية اما آلات كالطبول والاوتار واماطبيعية كخرير
النهر وصليل الحديد . والحيوانية اما منطقيه واما غير منطقيه
الثانية اصوات الحيوانات والاولى اصوات الانسان وهي اما
مفهومه او غير مفهومه فالاولى كالاشعار ونحوها والثانية
كالضحك والبكاء فهذه خمسة فانظر كيف كان الهواء اللطيف
يحمل هذه الاصوات مع اختلافها وكثرتها ولا يختلط بعضها
ببعض فتحمل صوت الاشجار وما حولها من الحشرات الصغيرة
والحيوانات الكبيرة والانسان والنهر الجارى ويسمع الانسان
هذا كله ويميزه اذ الهواء لطيف وبلطفه يسع هذا كله وتأمل
كيف تحفظ الاذن هذه الاصوات كلها وتميز بينها مع انها ليس
لها لطف الهواء ولكن قد اكتشف الطب الجديد ان القوقعة
التى هى وراء اعصاب الاذن فيها سائل داخله حبوب صغيرة
تبلغ نحو ثلاثة الاف كل منها متصل بعصب دقيق جداً اختص

يسمع نوع من الاصوات فقد قامت كثرة الاعصاب في الجسم الكثيف مقام لطف اللطيف (ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم) فعلم كثافة الجسم ففرق الصوت على الاعصاب لا كالهواء الذي هو لطيف محيط بالارض صالح لحمل المختلفات فتراه محيطاً بالقائلين والسامعين على الدوام. وههنا يجب تذكر النعم الواصلة من الرب لعباده فالهواء لا نستغني لحظة عنه لغذاء اجسامنا بتلطيف الدم اذ لسنا في تلطيف دمنا احوج منا اليه في كلامنا وتوصيل اخبارنا والتواصل فيما بيننا مع ما فيه من نقل الروائح الينا لنعرف الضار والنافع. فما اقصر عقول كثير من نوع الانسان لا يحمدون الله على مثل هذا وانما يحمدونه على المال والغنى اما المبذول لنا في كل آن مع شدة حاجتنا اليه فلا نكترث به ولا نعده نعمة وهذه معنى قوله (قتل الانسان ما اكفره) (ان الانسان لظلوم كفار) نعم هذا هو كفر النعم

﴿ المبصرات ﴾

اما المبصرات فهي عشرة الانوار والظلمات والالوان والسطوح والاجسام والاشكال والابعاد والاوضاع والحركات

والسكنات فالظلمة ترى ولا يرى فيها غيرها بل هي كالحجاب اما النور فيرى وترى به الالوان وبها تظهر السطوح وهي لا تقوم الا بالاجسام فتظهر تبعاً لصفاتها والجسم لا بد له من شكل فتظهر الاشكال فالابعاد فالاوضاع فالحركات والسكنات والحامل لهذه العشرة هو الضوء المشرق من الكواكب السارى فى العوالم كلها الداخل فى العيون ا الزجاجية المناسبة له كل المناسبة الموضوعة بترتيب يناسب نواميس الضوء فتجتمع الصور على الشبكية ثم تذهب الى المخ مع اخواتها السابقة فيحكم بين جميعها وهو من لطاف الحاكمين

واعلم ان تقسيم الاجسام الى مضيئته ومظلمه خطأ وانما هى مظلم وهو ماله ظل كالارض ومضيء كالشمس وهو مالا ظل له يعطى الضوء لغيره وشفاف وهو مالا يحجب الضوء وانما يسرى فيه ويفيض على مابعده ومنه عين الانسان والزجاج وبعض الاحجار الكريمة والماء والهواء وجسم الاثير وهي اجرام الافلاك .

واعلم ان الالوان بعضها حقيقى وبعضها غير حقيقى فالاول الوان الزرع مثلا والثانى كخضره الهواء وزرقه الماء العميق

وهذا رحمة من الله ولطف بالحيوان اذ يحتاج في تصرفه الى نظر نحو السماء حين يبحث عن الاغذية والى النبات وهو يرعاه فاقتضت الحكمة الالهية تلك الخضرة واختها الزرقه فى الارض وفى السماء لشدة مناسبتهما للعيون (ان ربكم لرؤوف رحيم) فهذه حكمة تحارفها نفوس العقلاء ويخر العقل ساجداً وياقوم كيف جعل فى الاجسام الشفافة ناموس عام فيها وهو الزرقة فى عمقها المتباعد وكيف كانت بهجته بهجة الحيوان وحسن منظره وان هذه الظواهر حكم وراءها جمال وبهاء وحسن اعلى واشرف وابهج (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته تؤمنون) بهذا يفرح الاذكياء المجدون ويفر فرار جعل من ريح الورد الجاهلون. فالملموسات عشره والمذوقات تسعة والمشمومات اثنان والمسموعات خمسة والمبصرات عشرة فالجميع ستة وثلاثون واغلب هذه تسمى الكيفيات المحسوسة وقد دخل معها الوضع وهو مايرى من الترتيب ونظام العسكر وطرق البساتين ونظام المنازل والاشجار وكل حسن وبهاء وهو الجزء المهم من علم تمييز الجمال .

ثم ان الكيفيات المحسوسات قد تكون راسخة كحلاوة

العسل وملوحة ماء البحر وتسمى انفعاليات وان كانت غير راسخة كحمرة الخجل وصفرة الوجل تسمى انفعالات هذا في غير الانفس فان كانت الصفات الراسخة فى الانفس سميت ملكة لجميع المتدربين على العلوم واللغات وان لم ترسخ سميت حالا

وبعض الاجسام فيه صلابة بها يدفع الوارد عليه كالحديد ويسمى هذا الاستعداد قوة وبعضها فيه ضعف عند ورود خارج عليه ويسمى ضعفا كالماء والسوائل كلها

فعلم لك من هذا الكيفيات كلها ومعها الوضع والكم المتصل الذى هو الابعاد الثلاثة. وهناك كم منفصل قار وهو الاعداد وفروع علوم الرياضة الحسابية كلها تبحث عنه كما يبحث عن الكم المتصل وهو ابعاد الجسم الثلاثة فن الهندسة وفروعها وكما يبحث الفلك عن الكم المنفصل الذى ليس بقار وهو الزمان وكما يبحث في الطبعيات كلها عن جميع الجواهر ويلاحظ فى علم التاريخ المتي وفي الجغرافيا الاين وفى علم تميز الجمال الوضع وفى الصنائع كلها والحروب والتعاليم الفعل وفي المواد السائلة والمسبوكات والمصنوعات والمتعلمين والمحكومين الانفعال وفى الاحاطات كلها كاحاطة الثياب بالاجسام والماء بالارض والهواء بهما مقولة

الملك وفى علوم الانسان ومعرفة منازل الناس ونسب العلويات الى السفليات واللطائف الى الكثائف والاسراع الى البطء وهكذا تلاحظ النسبه .

فهذه عشر مقولات وهى الجوهر والكيف والكم والاضافة والفعل والانفعال والمتى والاين والملك والوضع وانما قصد الفلاسفة بها معرفة هذه المادة وصفاتها بطريق الحصر الوجودى وانما تتعلق الحواس بالكيفيات المحسوسات وقد يتبعها غيرها .

واذ فرغنا من الكلام على صفات المادة فلنشرع الآن فى كيفية وصولها الى حواسنا ولنشرح اعمال الباصرة فنقول :

علمت ان الصفات التى تحس عشرة فيظهر الجسم المرئى بشكله وابعاده الثلاثة ومن العجيب ان الضوء يحمل هذه الصور والاشكال مجردة عن مادتها فيتكيف بها بدل موادها فتراه يحمل جميع مواد صور ماتراه . ويا ليت شعرى كيف يتكيف الضوء بما لا يعد من الصور المزدحمة فيه ويوصلها الى الابصار ولكن لاعجب في ذلك فان الهواء هو الطف منه يحمل مالا يحصى من الاصوات المختلفة ويميزها فكيف به هو وهو ارق

والطف واعجب ولذلك تراه اختص بالصور نفسها. أما الهواء فلم يأت الا بالحروف المعبرة عن تلك الصور ففرق بينهما فالضوء كالآلات الفوتوغرافية والهواء كالفونغراف فالاول مظهر لصور الاشياء والثانى معبر عنها بالفاظ والضوء يقرب فعله من فعل المخيلة التى تزدحم الصور فيها ولا يختلط بعضها ببعض فتأمل كيف كان الشيء كلما رق ولطف كان اوضح فى فعله واشرف وكلما قرب من الغلظ ضعف ايضاحه ووضوحه فالهواء حمل الاصوات وهي بلاريب اضعف تعبيراً عن الاجسام من صورها المنقولة بنفسها فى الضوء داخلة فى الاعين مرسومة في الدماغ فتدركها النفس. ولعمرى كم من الفرق بين من يعبر عن الشيء وهو الهواء وبين من يحضره بنفسه وهو الضياء ولعلك من هذا تعلم كيف تكون حال ماهو ارقى من هذا وهى عقولنا ونفوسنا ومن هو الطف منها وهو مبدع الكون وملائكته (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ماتفعلون وما يعلم جنود ربك الاهو)

ولقد علمت من هذا ان العائق عن الوضوح هى كثافة

الاجسام فالقوة اللامسة والذائقة لاتدركان الا المجاور لهما فتتكيفان بكيفيته ولاتشعران بها وتنتقل فى الاعصاب حتى يحس بها المخ وارقى منهما الشامة .

وقد علمت فعل السمع والبصر وهو انمايدرك بواسطة الضوء الذى ليس بجسم فكيف عقولنا وكيف من يعلو عليها فان هذه ليست باجسام اذلم تبق مرتبة بعد الضوء الا وجود مجرد عن المادة واسع الاحاطة ومنه نفهم معنى القدوس والمنزه وكيف احاط بالكائنات علما اذ الذى علمناه بالمشاهدة ان المادة هى العائقة فاذا لم تكن مادة حضر كل معلوم لم يعقه عائق ثم تصور هذا صعب علينا جداً مادمنا فى جلابيب المواد فاذا تخلينا منها كنا اقرب الى العلم بذلك.ثم اننا اخترنا فى الابصار مذهب علماء الطبيعة وهو انه بالانطباع كما اوضحناه لامذهب الرياضيين اذقالوا انه بالشعاع الخارج على هيئة مخروط قاعدته على الجسم المرئى وقمته فى العين الباصرة ولهم فى ذلك تشعب وآراء كثيرة فلا ثمرة في الاطالة بذكرها والانطباع الذى اخترناه مذهب ارسطو والشيخ الرئيس ابن سينا وفلاسفة الاسلام وقالوا ان مقابلة المبصرات للباصرة تفيد استعدادا لتفيض به صورته

على الجليديه ولا يكفى فيه الانطباع في الجليدية والا لراى شيئاً واحدا شيئين لانطباع صورته فى جليدتى العينين واذن لابد من تأدى الصورة من الجليدية الى الملتقى ومنه الى الحس المشترك ولم يريدوا من تأدى الصورة من الجليدية الى الملتقى ومنه الى الحس المشترك انتقال العرض الذى هو الصورة اذ لا ينتقل العرض وانما ارادوا ان انطباعها في الجليدية معد لفيضانها على الملتقى وهو معد لفيضانها على الحس المشترك كما كان الضوء بين الجسم والعين معدا ايضا وقس على سير الضوء سائر المحسوسات بالحواس الخمس فى الاعصاب حتى تحس بها النفس فهى اشبه بالكهرباء او النار تسرى من جزء الى جزء وليس المعنى ان ما كان في الجزء الاول انتقل الى الثانى بل هي استعدادات حاصلة بالمجاورة وهكذا شأن عالم اللطائف الذى منه التعليم فعلم المعلم لم ينتقل عنه الى التلميذ وانما تعليمه جعل فى المتعلم استعداد القبول فيضان الصورة التي عند المعلم نظيرها

﴿ شرح رؤية العين ﴾

ويجدر بنا الآن ان نذكر نبذة لطيفة فى ابصار العين وما

فيه من التدبير العجيب فان للنور نواميس لا يتعداها فوضعت العين على حسب تلك النواميس ولولا هذا لما ابصر حيوان فنها ان الصور تنتقل في الضوء على خطوط مستقيمة دائما فاذا مرت بجسم الطف مما هي فيه زاد افتراقها وان مرت بجسم اكثف مما هي مارة فيه انضمت اجزاؤها واقتربت فاذا نفذ الضوء من الهواء الى الماء تضامت خطوطه او من الماء الى الهواء تفرقت وهكذا يضم خطوط النور الاجسام المحدبة بوجهيها او المقعرة من وجه ومحدبة من الاخر او محدبة وجه واحد ومستوية الآخر ثم ان السواد يتشرب النور فلا ينعكس عنه بخلاف بقية الالوان والصورة لا ترسم على شيء الا اذا كان في بعد مخصوص من المرئي او من الجسم الشفاف الذي مر فيه النور فهذه اربع نواميس في جمع النور وافتراقه وتشربه وارتسامه على بعد مخصوص وهناك ناموسان اخران وهما ان النور ينحل لالوانه السبعة المعروفة في قوس قزح اذا مر بجسم محدب وان الصورة توضع مقلوبة اذا مرت بجسم يجمع النور فهذه ست نواميس للنور وضعت العين على مقتضاها. فاذا جاءت الاشعة من الجسم المرئي ومرت بالهواء ووصلت الى الشبكية وهي

اعصاب منفرسة فى مؤخر العين لم ترسم الصورة فيها فقط لانها
تكون مفرقة فاقتضت الحكمة الالهية ان تكون القرنية التى نرها
محدبة من الخارج مقعرة من الداخل محيطة بالعين من الامام
لتلاقي النور فتجمعه بعض التجمع ويمر في اوساط اخرى تزيد
فى تجمعه وهى الرطوبه المائية فتجمع النور زيادة جمع لكثافتها
فتأمل كيف وضع القرنية والرطوبة المائية مناسبين لجمع النور
احداهما بالتحدب والتقعر والاخرى بانها اكثف من الهواء
الجوى فياليت شعرى ان الاشكال كثيرة جداً يعرفها من درس
الهندسة بل العامة ايضا فلم اختار هذا المبدع شكل القرنية
محدباً ولم وضع الرطوبة المائية ثقيلة ثم تعجب ايضا فيما وراء
ذلك ولنمثل العين وطبقاتها بقبة من الزجاج خلفها ماء وتحته سد
فيه فتحة ووراءها زجاجة محدبة الوجهين ومن خلفها مادة كبياض
البيض وتحتها اعصاب تسمى شبكية العين فالقبة هى القرنية
والماء هى الرطوبة المائية والسد الذي فيه فتحة هو غشاء القزحية
والفتحة تسمى البؤبؤ ملونة اطرافها بالوان كالسواد او الخضرة
او الزرقة ايتشرب النور وهو مار الى البلورية وهى كزجاجة
محدبة من وجهين تجمع النور زيادة تجمع ثم جعل ذلك البؤبؤ

وتلك البلورية تحت ارادة الناظر فيوسع ويضيق كما اراد على حسب كثرة النور وقلته فلاختلاف الاضواء يختلف التضييق والتوسيع فيوسعه اذا كان النور قليلاً لتدخل كميات كافية ويضيقه اذا كان كثيراً لئلا تتشوه الصورة . ويا ليت شعري كيف روعى ماخلق في الخارج من انواع النيران التي لا تتناهى فى خلقة هذه العين العجيبة حتى يتسنى لها الرؤية بكل بون (ان ربك هو الخلاق العليم) وان قلنا ان العين واتقانها اعجب مانشاهد من الغرائب لكنا مصيبين اذ العبرة بالاتقان لا بكبر الاجسام المخلوقة واختلاف النور كثير جداً اذ فرق بين ضوء الشمس وضوء مصباح ضعيف فبينهما مراتب لا تتناهى ومع ذلك امكن الناظر ان يوسع للقليل ويضيق للكثير بمراتب كثيرة على حسب اختلاف الاضواء ربما كان الافا مؤلفة فتأمل كيف جمع فى هذه العين الصغيرة هذه العجائب التى لا تتناهى فاذا مرت بالبلورية نفذ النور في الرطوبة الزجاجية ثم وصل الى الشبكية مع حيرة العقلاء فى تعليل رؤية الاجسام معتدلة لا معكوسة كما هو مقتضى النواميس وان الجسم اذا مر في شفاف ينحل الى الوانه السبعة وقد اختار بعضهم ان الرطوبة الزجاجية التي

هى امام الشبكية فرقت الصورة بعد تجمعها بالبلورية وماقبلها
لكون الرطوبة الزجاجية الطف مما قبلها ثم اجتمع مرة اخرى
على الشبكية معتدلاً وهكذالما انحل الى الالوان السبعة بدخوله
فى القرنية حلته بقية الاوساط بعكس ماحلته الاولى فرجع لونا
ابيض وقد وضعت الشبكية وهذه الطبقات بحساب لايختل
شعرة واحدة لترسم الصورة في بعد مناسب حسب النواميس
اذمن المشاهد فى العلوم الطبيعية فى الضوء انه اذا مر بجسم
شفاف لايجتمع الا على بعد مخصوص كما يشاهد في العدسات
امام الشمس. فياليت شعرى كيف وضعت الشبكية على بعد
مخصوص من الطبقات فوقهافلم تتقدم ولم تتأخر. ثم ان الشبكية
مقعرة تجمع الصورة ولكن لابد بعد رسم الصورة عليها من نفوذ
النور الى ما خلفها فيقع على الصلبة التى هى خلفها مما يلى المخ
ومن الحكمة الالهية انها ملونة باللون الاسود لئلايرجع النور
بالانعكاس فيشوش الصورة حكمة وعدلا ودقة فهذا هو وضع
العين قد اوضحته بقدر الامكان لنفهم معنى قوله تعالى (وفى
انفسكم فلاتبصرون) وقوله (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة
لعلكم تشكرون) كل هذه حكم تسجل علينا الخزى والعار اذا

خرجنا من الدنيا ونحن بها جاهلون بل ان هذا الجهل هو الذى سجل علينا الذلة في الدنيا .

ولما كان فى العين هذه الحكم وغيرها وهى كثيرة جداً كثر ذكرها في القرآن ليلفت الانظار اليها فالجاهل انما عرف مايقوله الشعراء في الغزل والعالم ينظر هذه الاعاجيب. وتأمل فى ان الشيء كلما كان اكثر اتقانا كان اكثر منفعة وكلما قل اتقانا قل منفعة . فهذه العين لما ابصرت ما بعد الى ملايين من الفراسخ ورات صور جميع الاشياء واظهرت لنا كواكب السماء وقربت ان تكون عقلا كما قرب النخل ان يكون حيوانا والانسان ان يكون ملكا صنعت مطابقة لنواميس النور العجيبة لتقوم بهذه الاعمال مع غرابتها وفعلت فعلا مدهشاً فهذه هى الحكمة وهذا هو العلم . فياليت شعرى كيف يحيا الانسان في الدنيا وهو لم يشاهد هذا الاتقان وكيف يموت ويخرج من هذا الكون وهو لم ينظر مافي هذه الصنائع اللطيفة من الدقائق وما اشبه نظام العين بنظام السموات والارض بل العين مع صغرها اخذت صور السموات مع اتساعها والارض واكنافها والشمس واشراقها واستحضرت هذا كله واوصلته الى الشبكية . ولئن قلت ان هذه

الحدقة في خلقها اعجب من هذه الاجسام الواسعة واغرب منها لم اكن مبالغاً اذ كيف تسعها كلها وتوصلها الى الدماغ وكيف يسع اللطيف الكثيف والصغير الكبير. ولئن ادهشتنا العين وصنعها فالحس المشترك الذى وراء ذلك اعجب واغرب وهكذا المخيلة والواهمة والذاكرة والحافظة. وقد ذكرناها مفصلة فى كتابنا ميزان الجواهر ولكن لا بد لنا من زيادة تفصيل في بعضها لا سيما الحس المشترك والمخيلة فنقول :

﴿ الحس المشترك ﴾

فاذا شعرت النفس بهذه المحسوسات الخمس كلها اجتمعت فى قوة واحدة لا يهمنا مكانها وانما يهمنا فعلها تسمى الحس المشترك يزعم الاقدمون انها فى مقدم الدماغ وما هي الا كرئيس ارسل رسلا ووكل كلا بجهة من اطراف بلاده ليأتى باخبارهم حتى اذا اجتمعت عنده الاخبار رصدها في دفاتر الوارد ثم اودعها مخازنه حتى اذا حضر الحاكم الاكبر فيها فصل في قضاياها وتوضيحه ان كل حاسة لها عالم يخصها . فللعين الالوان وللاذن الاصوات وللشم المشمومات وللفم المذوقات وللحس الملموسات

فاذا ابصرنا سرابا وسط النهار رأيناه ابيض كالماء فهذه الحاسة
ادت وظيفتها وهي رؤية اللون والحس المشترك يودعها في
المخيلة — وهي ترفعها الى العقل فان حكم بانه ماء فقد ضل
لانه لايجوز له الحكم الا اذا شهدت حاسة اخرى وهي الذوق
هنا فحينذاك يحكم بانه ماء وهكذا اذا نظرنا هيئة رمانة صناعية
فلا نحكم بانها رمانة حقيقية الا باستعمال حاسة اخرى كالذوق
حتى نحكم بذلك . ثم ان تكرار المشاهدة بحاستين شيئاً واحداً
مراراً يوجب الاستغناء باحداهما عن الاخرى فاذا رأى أي
حيوان نباتا واكل منه فوجد طعمه لذيذا ثم نظره كرة اخرى
فلولا الحس المشترك الذي اجتمع فية الذوق والمنظر لما عرف
الحيوان ان هذا الاخضر هو اللذيذ بعينه . فمن رحمته تعالى
ان خلق هذه القوة الرئيسة تجتمع الاخبار عندها بهيئة غريبة
ويتصرف الانسان والحيوان في شؤونه باعانتها. فالحواس الخمس
كانهار خمس انهر تصب في حوض واحد فهذا الحوض مخدوم
وهي خادمة فهو اجل منها قدراً اذ المخدوم اشرف من الخادم
والعالم بخمس فنون افضل من العالم بفن واحد على ان الحواس
لا علم لها وانما هي موصلات للصور كما علمت من قبل فهو العالم

وحده ثم هذه الصور تخزن في الخيال

﴿ المخيلة او المصورة ﴾

افعالها عجيبة فانها تخزن فيها الصور الى وقت الحاجة من كل ما احس به الانسان . ومن العجيب انك كلما احسست به تراه بشكله بعينه مجسما واضحا فيها فاذا ابصرت قصراً منيفاً أو نهراً جارياً او بستانا زاهراً واغمضت عينيك رأيته واضحاً فيها وانما الفرق بينه وبين الحواس الظاهرة انها لا تشاهد الا بعلاقة بينها وبين المحسوسات فاذا انقطعت العلائق كالهواء والضوء بان ضمت الاجفان او سدت الآذان فلا ابصار ولا سمع اما هذه القوة فانها تشاهد ما فيها بوضوح بشرط قطع العلائق ولكن الصفات بدلت بامثالها قطعاً اذ خضرة البستان في الخيال ليست هي التى فى النبات وانما هى مثلها وعلى صورتها ومن نوعها فقط فهذا حصل نوع الصفات لا هى فياليت شعرى كيف تسع هذه القوة عالم السموات والارض وصورها المختلفة المجتمعة فيها وكيف يوضع الكبير فى الصغير. قد اجمع الحكماء على عدم تداخل الاجسام فلو كانت هذه القوة جسما فكيف

تسع هذه الاجسام كلها . ينسى الانسان الشيء مدة طويلة حتى اذا اراد ان يتذكره كرة اخرى احضره من هذه المخيلة ولولا حضوره عنده ماتذكره فهذه القوة .

(١) تقبل الصور عن الحس المشترك

(٢) تحفظها عندها لوقت مسيس الحاجة اليها

(٣) تحلل وتركب مادامت الحواس مشتغلة بالعالم الخارجى فهى ترسم مايرد عليها. فاذا ركدت الحواس اخذت المخيلة فى النظر فيما عندها من الصور فتحلل تارة وتركب اخرى اما صدقا واما كذباً فان كان تخيلها لقصد صحيح كتخيل النجارين وعلماء البلاغة باختراع صور جميلة فى هذين الفنين وكاختراع المصورين والنقاشين وهكذا جميع علماء الفنون الجميلة فهذا تخيل صحيح وهو منشأ الاختراعات والروايات والتآليف والصناعات وذلك يكون تحت اشارة القوة المفكرة فان اطلقت المفكرة لها العنان اخذت تحلل وتركب كالهازلين والمخرفين فتأتى بصورة انسان عليه رأس جمل او بالعكس

(٤) ثم هى كما تحلل وتركب تضرب الامثال وبيانه انها تصور الشيء بصورته تارة وتمثله بصورة غيره تارة اخرى ولذلك

ترى النائم يتخيل اخاه فى صورة صديقه والعدو في صورة الصديق . والعكس. هذه اعمال القوة المخيلة فى الصور المخزونة عندها

(١) ولا تقتصر على ذلك بل تمثل مزاج الانسان واخلاقه ومعقولاته

(٢) فاذا كان المزاج حاراً فربما يتخيل النائم انه في الشمس قرب نار . وتأتى بالمعقول في صورة المحسوس الذي اعتادته عليه فلا تترك شيئاً من المحسوسات او المعقولات الا وترجعها اليه

(٣) وتمثل الاخلاق فيرى الغضوب انه ينازع الاقران والشهواني انه يتصرف في شهواته والكريم انه يفرق الاموال فانظر كيف ضربت مثل هذه الصفات المعقولة بالجزئيات المحسوسة

(٤) وتمثل المعقول الا ترى ان العلم يؤتى به في صورة اللبن . والكليات فى صورة الجزئيات كما اذا تصورنا الرحم وهى الامر المعقول (القرابة) بصورة انسان يطالب بصلته بين يدى ملك . فهذه تمثل الامر المعقول بين الناس المستلزم للتعاطف والمودة . هذه هى اعمالها في التمثيل وهي اربعة كما رأيت

(٥) ومن صفات المخيلة انها سريعة الحركة فتخرج من الكلى الى الجزئى وبالعكس ومن الكل الى الجزء ومن الصديق الى العدو وبالعكس رحمة من الله بعباده ليذكروا مانسوه فيخرج الانسان من صديقه الى صديق آخر ثم يذكر منزل ذلك الصديق وينتقل الى جاره ويذكر قضية له ومنها الى القاضى ومنه الى الحكومه ومنها الى السياسة وهكذا فتكون الافكار سلسلة واحدة ايا كانت متضادة اومتماثلة اومتجاورة اومتناسبة ولولا هذه الحكمة العجيبة ماامكن الانسان ان يكون مدنيا ولم يتذكر مانسيه ولم يعرف معايشه (صنع الذى اتقن كل شيء) فهذه خمس اعمال اجمالا ثمانية تفصيلا للمخيلة فانت ترى من هذا البيان ان اعظم نعمة علينا هي هذه المخيلة ولو نظرت حق النظر لعلمت انها جمعت فيها كل شيء مع ان حقيقتها مجهولة بالكلية فياليت شعرى ماهذا الذي ليس معروفاً ثم يسع هذا العالم كله فترى المخيلة تسع السموات والارض ومابينهما وتفصلها واحدة واحدة وان كنت فى شك مما تلونا عليك فاغمض عينيك وفتش على الصور تجد مارأته عيناك وما سمعته اذناك حاضراً فيها بصوره واشكاله . فان كنت لاتتعجب من هذا فابك على نفسك وعالجها

بالا داب والعلوم حتى ترتاض فتصل لادراكه فانه خفي مع ظهوره
ها نحن نصور الكرة الارضية والسماوية بطريقتين احداهما
بالكرات الصناعية المشاهدة في المدارس والاخرى بالخرائط
الجغرافية وكلاهما صور ناقصه فالكرة تكون صغيرة جداً عن
الحقيقة والخريطة ليس فيها الا ظل لا حقيقة له وهو مع ذلك
صغير جداً ربما بلغ المقياس فيه واحداً من مليون. اما هذه المخيلة
التى ضل عنا محلها فكيف تسع السموات كلها بشكلها مع صغر
جمجمة الرأس وهي شيء صغير جداً على ان جمجمة الرأس لا
تسع شيئاً من ذلك كله اذهى مملوءة مادة دهنية هى المخ
واعصاب موزعة فى الجسم وماء سائلا فلم يبق متسع لرسم نجم
صغير فضلا عن السموات والارض. ولعلك ايها القارىء يأن
لك ان نفوسنا شيء غير مادة بالمرة وعرفت انها عالم اوسع من
عالم النور الذى ذكرناه لك سابقاً لان المادة امامنا قدعجزت
كل العجز عن تحمل هذه الرسوم العظيمة بهذا البرهان الحسى
الذى اقمناه في هذا الزمن والعلوم راقية والامثال مضروبة منها
ثم انظر كيف تدخل هذه الصور العظيمة من حدقة العين
مع صغرها فائن سلمنا هذا البرهان فى المخيلة التي هى ظاهرة

من ظواهر النفس فكيف بالحدقة التي وهي من اعضاء البدن وما بالنا نراها تسع هذا كله وتدخله الى المخيلة. حارت الافكار في قدرة هذا المبدع الحكيم واني لا ذكر لك المحاورة المشهورة بين ابليس وادريس التي ملأت كتب التوحيد وقولهم ان ابليس قال لادريس أيقدر ربنا ان يدخل الدنيا في قشرة بيضة فقال يقدر ان يدخلها في سم هذا الخياط وفقأ عينه بالابرة . واجابوا عن هذا بقولهم ان هذا من المستحيل الذى لا تتعلق به القدرة وانما هو من عجز الممكن عن قبول الايجاد والا فالقدرة لا حجر فيها. هذا ملخص ما اجابوا به . وانت ايها الاخ القارىء لكتابي هذا تأمل في السؤال وما يشير اليه الجواب فان هذه المسئلة من الاشياء المضروبة للناس امثالا لعلهم يتذكرون فلقد شاهدت ان الحدقة والمخيلة قد وسعتا العالم كله بشكله وهيئته مجردا عن المادة (ان الله على كل شيء قدير) اذ ليس المراد من العالم الا خلاصته وشكله ولقد قالوا ان الله يقدر ان يدخله كله في قشرة البيضة بان يكبر البيضة او يصغر العالم وها انت شاهدت ان العين والمخيلة بقيتا على حالهما ودخل فيهما العالم بحاله جملة واحدة فلا العالم صغر ولا محل الرسم كبر وانظر

كيف قالوا فى هذا المثال انه فقأ عينه فتأمل كيف اشار الى ان
العين هى نفس جواب السؤال كانه يقول ان عينك ومخيلتك
فيهما الجواب هذا ماخطر بنفسي عند كتابة هذا الموضوع والذي
انقدح فى نفسي انها ضرب امثال للناس ثم تنوقلت فى الكتب
على انها حقيقية مع ان اصل الواضع لم يرد به الا تنبيه العقول
والتأمل ويظهر انه حصل فيها تحريف وتغيير وتبديل وفى نسبتها
الى سيدنا ادريس دلالة على انها قديمة الوضع من وضع بنى
اسرائيل الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثوا
عن بنى اسرائيل ولا حرج وكثر النقل عن موضوعاتهم
ورواياتهم فى كتب المفسرين على انها مواعظ يراد غاياتها لا
حقائقها وهذا امر يعلمه رسولنا صلى الله عليه وسلم ولكن شأن
الامثال اذا تداولت عليها الايام ظنت انها حقائق . ولعلك تقول
لم لم توضح فى كتب التوحيد قلنا ان العقول لا تحتمل ان المتخيل
يقال له موجود وانما يعرفه من ارتاض بالعلوم . هذه الصور
المتخيلة يصدق عليها انها موجودة وانها معدومة وانها متوسطة
بين الموجودة والمعدومة اذ فيها امارات الاحوال الثلاث فلعدم
الجزم ربما يتوهم العدم ولوجود الصورة يظن الوجود ولتعارضهما

يقال لا موجود ولا معدوم. وما اقدر هذه القوة على الاعمال فانظر كيف لطفت الاجسام الكثيفة ووضعتها في اعلى بعد وان كانت في اسفل واضاءتها بعد الاظلام فى قوله تعالى انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ثم ابرزت المعقول فى صورة المحسوس والمعقول هو التعظيم والمحسوس هو السجود وكل ما ذكرناه فى هذا المقام من عجائب المخيلة والى هنا قد ذكرنا قوتي الحس المشترك والمخيلة التى ذكرنا لها هذه الاعمال كلها ولها غير ذلك من الاعمال فهي تدرك المعانى الجزئية كالعداوة بين الذئب والشاة مثلا هذا مايظهر من كلام ابى نصر الفارابي فى آراء اهل المدنية الفاضلة وكتاب اخوان الصفاء اما كلام غيرهما من العلماء فانهم يجعلون القوى خمسا وهى الحس المشترك والخيال وليس له وظيفة الا حفظ الصور والواهمة ولها حفظ المعانى المدركات بين الصور والحافظة تحفظ المعاني الصادرة عما قبلها والمتصرفة تتصرف في تلك الصور والمعانى فان اتبعت العقل فهى مفكرة او الوهم فهى متخيلة هذا ونحن لا يهمنا كثرة الاسماء والالقاب وانما المهم هو معرفة مافيها من الغرائب وها انت قد عرفت

المذهبين من باب الإحاطة فلندع الاصطلاحات جانبا ولنذكر القوة العاقلة

﴿ القوة العاقلة ﴾

اعلم ان جميع ماذكرنا من القوى الباطنة والحواس الخمس الظاهرة خدم للقوة العاقلة فهي التى تستنتج من تلك الصور المخزونة والمعانى المدركة ومركباتها كليات معقولة تارة لتدبير البدن وهو العقل العملى وتارة لتكميل قوتها بالمعارف والعلوم وهو العقل النظرى. قال الطوسي فى شرح الاشارات. فالعقل العملى هو ادراك كل مستنبط من مقدمات كليه اوليه او تجربية او ذائعة شائعة او ظنية يحكم بها العقل النظرى ويستعملها العقل العملى فى تحصيل ذلك الرأى الكلى من غير ان يختص بجزئي دون غيره والعقل العملى يستعين بالنظرى فى ذلك ثم إنه ينتقل من ذلك باستعمال مقدمات جزئية او محسوسة الى الرأى الجزئى الحاصل فيعمل بحسبه ويحصل بعمله مقاصده فى معاشه ومعاده اما العقل النظرى فاعلم ان له ست درجات بعضها فوق بعض ولكل درجة منها درجات كثيرة لايحصى عددها الا مبدعها

ولنتبع درجات الانسان من صباه الى بلوغه النهاية من العلم ونسمى كل حال من أحواله باسم فاذا نظرنا اليه في أول ولادته لم نجد عنده الاستعداد لفهم الكليات المستنتجة من الجزئيات لمعرفة الحيوان والانسان والنار والماء وهكذا من الاشياء المحيطة فعند عدم هذا يسمى عقله عقلا هيولانيا أى ماديا لم يرتسم فيه شيء من أنواع الصور العقلية فكانه مادّة خالية من الصورو ان كان جميع الحكماء أجمعوا على عدم وجود مادة تخلو من الصورة أما العقل فها هو خلا من الصور العقلية ولعلك تقول انه يحسّ ويتخيل كما تقدم نقول ذلك ادراك قواه لا ادراكه هو فان الادراك المتقدم للجزئيات لا للكليات. فان ميز بين الاشياء كما ذكرنا فهو العقل بالملكه وهذا يكون عند الفطام ونحوه الى سن التميز

ثم ترتقى عن ذلك وتحصل لها الاستنتاجات وتحصل النتائج بالبراهين العقلية وهى القوة الفكرية التى تحصل المعلومات بالمشقة او التعب في استخراج المجهولات كما يحصل للتلاميذ فى علوم الحساب والهندسة والجبر. فاذا استكملت هذه القوة ونمت جدا حصل عنها قوة أرقى منها وهى الحدس وهى سرعة

حصول النتائج بحضور الحدود الوسطى بلا مشقة كما كان فى الفكر كما يحصل للمدربين على العلوم والسياسات مع استعداد فيهم من الفطرة معين على ذلك . وهؤلاء قليل وأقل منهم من يترقى عنهم فيصير ذا قوة قدسية اذ هى صافية تكاد تضيء . والعلم المشرق عليها عقل مستفاد من المبدأ الفياض بالنور على الناس واجتماعهما معا عقل بالفعل . فهذه سبع مراتب . العقل الهيولانى

العقل بالملكة . الفكر . الحدس . القوة القدسية . العقل المستفاد العقل بالفعل ولنضرب مثلا لهذه الدرجات السبع بالمشاهد امامنا فنرى ان العقل الهيولانى عند الطفل كالمشكاة وهي الكوة فى البيت المسدودة من الخارج فانها تقبل النور بدرجات مختلفة حسب ما فيها من الهواء وصقالة حيطانها وعدمها والعقل بالملكة كالزجاج فانه أشف من الهواء فى الكوة ومن حيطانها واكثر قبولا للانارة منهما . والقوة الفكرية التى هى أرقى منهما كشجرة الزيتون اذ فيها زيت مستعد لظهور النور فيه ولكنه محتاج للنصب والتعب فى اعتصاره واستخراجه والحدس كالزيت اذ هو أقرب لقبول ظهور النور من شجرة الزيتون وهما جميعا يولدان النور بخلاف المشكاة والزجاجة فليس فيهما قوة لاخراج النور

منهما وانما هما قابلان لاشراقه عليهما فتفطن للفرق بين الجميع والقوة القدسية كالزيت الشفاف الذى يكاد يضيء ولولم تمسسه نار . والعقل المستفاد كنور على نور فانه علم اشرق على هذه النفس القدسية واجتماع هذين النورين يسمى عقلا بالفعل وهو كالمصباح صار مضيئا بنفسه . وفي التحقيق ان الثلاثة الاخيرة مرتبة واحدة وبهذا تكون المراتب خمسة فقط .

اذاً فهمت ما تلونا عليك عرفت ما نشير اليه الآن وهو قوله عز وجل (الله نور السموات والارض مثل نوره) الفائض على الناس من العقول والعلوم (كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كانها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية) اشارة الى الاعتدال الغريب (يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم) فتأمل هذه الاية كيف جمعت فى نظمها من المشاهد امامنا ما ينطبق على درجات العقول فى النوع الانسانى وما استخرجه الفلاسفة من المباحث وكيف تناسب المعقول والمحسوس وبقى هنا شيء هو : انه ذكر النار وهي توقدها المصابيح ولعلك تتذكر ما قلناه

قريبا ان العقول البشرية لاتأتى لها العلوم الامن مبدأ يشرق العلوم عليها يناسبها كما ان الكواكب مبدأ يشرق النور المشاهد على الابصار المناسب لها وقد أوضحنا فى أول الكلام في هذا الباب وهو علم النفس بمالا مزيد عليه . فهذه النار اشارة الى موجود لا نراه ولا نسمعه ولانحس به ولا نشمه ولا تذوقه ترفع عن ادراك الابصار (لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصار) عجزت الابصار عن ادراكه لانه يناسب قوة أرقى من قوتها كما قدمنا

فلا قوة للابصار الا على الاضواء الظاهرة وكيف لها ان تتخطى مراتبها وتعلو فتدرك ما يدرك العقل كلاً ثم كلاً وهو يدرك الابصار اذ هو مسيطر على العقل قطعا يمد له والعقل مسيطر على آلاته فقد علا على الجميع بالعلم (وهو اللطيف الخبير) فللطفه جدا ودقته عن الاضواء المشاهدة لم تدركه الابصار فهو برهان عقلى للفطنة الاولى (الخبير) لانه استعلى على هذه القوى كما قدمنا فهو برهان للقضية الثانية فتأمل هذه التمثيلات الظاهرة ثم الحجج الباهرة

فالممد للعقول المخرج لها عن البساطة الى المعقولات في الدرجات المختلفة موجود لا نراه يعبر عنه بالملائكة والعالم الاعلى وكانها نفوس قدسية شرفت على المادة اقرب الى اشراق النور عليها من المبدع الحكيم منا. فكل علم حصل فى قلوبنا فانه بواسطة عالم ينزله الينا على حسب استعدادنا قلة وكثرة. وكل حادث على نفوسنا من المشاغل الدنيوية مؤخر لهذه النفس عن الكمال الذى اختص به (الانبياء عليهم الصلاة والسلام والوحى والرؤيا ونحو ذلك)

واعلم ان النوع الانسانى على وجه العموم له اتصال بعالم الجمال المشرق على هذه النفوس البشرية تراهم يقتبسون المغيبات في المنام وهم كثير جداً. ومنهم من تحتاج رؤياه الى تأويل ومنهم من لا تحتاج وهذا قد يقوى فيرى فى اليقظة ما يراه في المنام ثم بالحواس وهى مرتبة فوق مرتبة المنام وهؤلاء هم الكهنة ومن نحا نحوهم من كل من يستعين بشيء من الخارج كالمندل وضرب الحصى والنظر فى الزجاج فى الشمس وتحضير الارواح والتنويم المغناطيسي وبالجملة كل ما يفعله الانسان يشغل الحواس عن النفس حتى تتصل بعالمها وتخبر بالغيب الذى هو شغلها الحقيقي ومنبعها الاصلى فالكهان قسمان قسم يحتاج

الى استعانة وقسم لايحتاج وهذا الثانى هو ما كان لكهان العرب
مثل سطيح وغيره ولكنهم لاينظرون بكهاناتهم الا فى الامور
الجزئيات اما الكليات فمعرفتهم بها قليلة جداً كالرؤيا ويحصل
عندهم كثير من الغلط وقلب الحقائق فيختلط الصادق بالكاذب
كما فى الرؤيا فقد اختلط الصادق بالكاذب فيهما . وذلك لان
المخيلة تحلل وتركب في المنام واليقظة صدقاً وكذباً كما علمت فى
تعبيرها عن المزاج والاخلاق . وغيرها فيما لديها من الصور .
يشير لذلك ابن صياد وقول النبي صلى الله عليه وسلم له كيف
يأتيك فقال يأتيني صادق وكاذب فقال خلط عليك :

وهؤلاء قوتهم المخيلة قوية حتى تتحمل مايرد عليها من
الحواس وما يرد عليها من العالم الاعلى وهي عند الكهان اقوى
منها عند عامة الناس اذ لايقوون الاعلى اختلاس المغيبات وقت
المنام فيتصور المعقول بصورة المحسوس بهيئة عجيبة جداً :

القوة التى هي ارقى من هذين قوة الانبياء فانهم يرون
فى اليقظة وفى المنام واول الوحى الرؤيا الصادقة ثم يتدرج شيئاً
فشيئاً حتى يتمثل له الملك بشراً سوياً في اليقظة واخبار الله
للانبياء على ثلاثة اقسام

وحى في القلب بحيث يعلم ان هذا من عند الله ولا يمكن دفعه وبروز هذا المصدق به من العقل فيسمع صوته ولا يرى شخصه وهذا هو المعبر عنه بسماع الملك وظهوره الي البصر وهو رؤية الملك يكلمه واليه الاشارة بقوله تعالى (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا) هي المرتبة الاولى (او من وراء حجاب) هي المرتبة الثانية (او يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء) وهي المرتبة الثالثة (انه عليم حكيم) والى هنا تمت مراتب التعلم من العالم الاعلى وقد علمت انه كله سبعة اقسام للمنام مرتبتان وللكهانة مرتبتان وللنبوة ثلاث مراتب فهذه سبعة كاملة. وتأمل كيف كانت النبوة نهاية للقوتين ثم كيف كان البشر كلهم عندهم هاتان القوتان

ولعمرك لولا قوة مودعة في نوع البشر وهي الرؤيا الصادقة ما صدقوا الانبياء فما من انسان الا ورأى رؤيا صادقة او سمع ممن رآها

﴿ اقسام العلماء ﴾

ولما اختلف الناس في اخذ العلوم من بابي الحواس والعالم القدسي رأيت العلماء قسمين قسم اخذوا علومهم عن الفكر والنظر

فان تبعوا الانبياء فهم المتكلمون وان لم يتبعوهم فهم الفلاسفة وقسم اخذوا العلوم من جهة اشراق النفس فان تبعوا الانبياء فهم الصوفية . اولم يتبعوهم فهم الفلاسفة الاشراقيون فهذه اربع فرق لايخرج احد من العلماء عنهم .

﴿ اقسام العلوم ﴾

والعلوم ستة اقسام ثلاثة نظرية وثلاثة عملية فالنظرية اما ان تحتاج الى المادة فى الخارج والذهن وهي الطبيعيات ويدخل تحتها علوم كثيرة من الطب والتاريخ الطبيعي والبيطرة والبيذرة وعلم التشريح وغيرها واما ان تحتاج الى المادة فى الخارج فقط لافى الذهن وهي العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك فانه لا توجد المقادير ولا الاعداد الا في مقدرات ومعدودات معينة ولكنها فى الذهن لا تحتاج الا الى تصور مطلق مادة لامادة مخصوصة واما ان لا تحتاج الى المادة لافى الخارج ولا فى الذهن وهى علم ماوراء الطبيعة من الخالق وصفاته والملائكة اذ هذه موجودة بلا مادة لما علمت فى البراهين التى قدمناها ويتصورها العقل بلا مادة .

واذا كانت العلوم الرياضية لم تحتج الى المادة في الذهن فكيف بالمجردات فهي لا تحتاج اليها من باب اولى

وهذه الاقسام الثلاث كالتقسيم الذى قدمناه فى الاجسام والاضواء وعالم العقل فالاجسام كعلم الطبيعة والاضواء كعلم الرياضة وعالم العقل كالعلم الالهى فاجتمع التقسيمان فى لفظة واحدة لان البراهين الصادقة ترجع الى امر واحد كلها فهذه اقسام العلوم النظرية.

وهناك علوم عملية وهى سياسة الانسان لنفسه وسياسته لاهل بيته وسياسته لاهل مدينته وهذه تكلفت بها الشريعة الاسلامية وعلوم الاخلاق والسياسات المستنتجات من التجارب فهذه ستة اقسام وتحتها فروع كثيرة تعرف بالاطلاع والمزاولة والى هنا تم الكلام على اقسام المعرفة الثلاثة وهى الحواس والقوى الباطنة والعقل

﴿ الارادة والاختيار ﴾

وللانسان ميل طبيعى الى ما يعلمه بهذه القوى الثلاث ويسمى ارادة وهى عامة في الحيوان والانسان فيشتاق الحيوان

الى ما يراه بحواسه وينفر عما يضره وهكذا الى ما يتخيله وما يعقله ولكل من هذه الثلاث مرغوب عنه ومرغوب فيه فهي ستة اقسام ثلاثة مرادة وثلاثة غير مرادة . فما اشتاقت اليه النفس من المحسوسات حركت تحت ارادتها الاعضاء للطلب وما نفرت عنه حركتها للهرب منه فتأمل كيف خلقت الاعضاء صالحة للطلب والهرب على مقتضى ما تحسه في الخارج ليكون النظام تاماً وتكون الافعال هنا جسمية بالاعضاء وعقلية بشعور الحواس واما القوة المخيلة فيكون وصولها الى ما ارادته بمجرد التخيل او بالاستعانة بالحواس على استحضار الصورة بالمشاهدة او بأخذها من العقل كما في حال الرؤيا الصادقة .

واما العقل فمتى اشتاق لشيء فانما يكون باعمال عقلية لا غير مسخراً تلك القوى تحت امره لتحضر له الجزئيات لاستنتاج الكليات ذلك عمل عقلي فلكل درجة من درجات الحس عمل يناسبها

﴿ السعادة والاختيار ﴾

لاريب ان الارادة عامة عند جميع الحيوان وهو مشترك كله في الحواس وقوى النفس يتصرف على حسب الخيال والحواس

اما الانسان فارادته التابعة لعقله ارقى من تلك الارادة اذ هذه معرفة للعواقب لا كالارادة في الحيوان اذ لا يعرف الا المشاهد امامه الحاضر ولنسم ارادة الانسان اختياراً ولا ريب انه بهذا الاختيار يرقى الى السعادة تارة وينزل الى حضيض الهوان تارة اخرى ومتى تمكن الشوق في فؤاده حركه طبعا الى المشتهى ولا تظن ان العقل مهما وصل من الكمال وكذا الخيال والحس يكفي للحياة في هذه الدنيا بدون شوق فالحيوان بحسه وخياله والانسان بعقله مهما ادرك كل منهم النافع والضار لم يعبأ به الا اذا حصل عنده شوق الى الطلب او الهرب فلا بد اذن في كل امة من انماء قوة الشوق عند التلاميذ الى المعالي وعلو الحياة ونظام الامة والعلوم والمعارف ومكارم الاخلاق وبهذا الشوق يشتغل الناس بالسعادة ويصلون الى الكمال

﴿ حكمة تامة ونظام عجيب ﴾

ها أنت علمت نظام العين وتركيبها العجيب أولا ثم قوى النفس الداخلة وما معها من العقل ودرجاته ثم العالم كله وغرائبه فها هو تركيب العين في غاية من الاتقان والبهجة والنواميس

الغريبة التي علمتها وعالم النفس قد شاهدت حكمه العجيبة ورأيت ان العين والنفس كلاهما من حسن اتقانه قد اتسع لما لا يحصى من العالم فالعين وسعت السموات والارض وان كانت لا شعور لها بشيء وانما هي آلة والنفس وقواها قد ادركت ما لا نهاية له من الصور والمعقولات فكأن كلا منهما عالم مركب متقن غاية الاتقان ولعمري ان بينهما وبين العالم كله مشاكلة تامة ولذلك يقول تعالى (الله نور السموات والارض) اشارة الى النظام العمومي في السموات والارض .

ثم قال مثل نوره كمشكاة الآية اشارة الى ان عالم النفس عالم وضعه كوضع العالم كله والسراج وأما العين فانما هي آلة من آلات النفس وهاك البيان قد علمت ان المصباح ما تم أمره الا باشياء مختلفة من زجاج ومشكاة ومادة بها يتقد كالكهرباء أو المواد الدهنية وهي لا جرم تختلف درجات بعضها فوق بعض في الاضاءة ولولا هذه الشروط ما تمت الاضاءة ولو نظرنا الى جسم الانسان لوجدناه مركبا من عناصر مختلفة اتحدت وكونت هيئة اشتعلت فيها نار الروح الحيوانية ولكن فرق بين النارين فهذه نار معنوية وتلك نار حسية لان تركيب الجسم أتم من

تركيب المصباح ثم انك اذا تأملت العالم كله الفيته كالمصباح في
تركيبه بل كالجسم في نظامه فكلما كان الشيء أتم تركيبا واجمل
وضعاً كان اكثر نفعاً ولذلك كان نظام العين لشدة دقته اجمل من
نظام السراج فى صنعته ولذلك كان نفعه اعم وأهم وما نسبة العين
لنفس الانسان الا كنسبة السراج لهذا العالم بل كل سراج فى
العالم محسوس من الكواكب والمصابيح فهو نظير الحواس عند
الانسان ولكل نور يناسبه فالكون المحسوس نوره محسوس
وجسم الانسان لما كان مداره على الروح ضوؤه روحا كان نوره
أقرب لها وهو نور العين

فقوله الله نور السموات والارض اشارة لنظام العالم وقوله
مثل نوره اشارة الى روح الانسان فى جسمه موازنا بينها وبين
المصباح وتركيبه

فالموازنة بين العالم والانسان والمصباح والعين او الروح
صحيحة فايهما وزن بالاخر صح اعتباره فاذا وازنا بين روح
الانسان والمصباح وجدنا ان جسمه كالزجاجة وروحه كالمصباح
وكما ان للمصباح زيتا يتقد منه فكذلك الروح لها مادة وهو الدم
المنبعث من القلب المبخر لخلاصته وهى الحرارة الغريزية

وكما ان السراج يضيء البيت فكذلك الروح تضيء الحواس كلها وكما انه اذا أحيل بين السراج وبين ركن من اركان البيت أظلم فكذلك الروح متى احيل بينها وبين خاسة من الحواس بحصول عائق في اعصاب الحس أو مواد الاحساس لم تحس تلك الحاسة واظلمت وكما ان المصباح ينطفيء باحد امرين اما بوارد عليه من خارج واما بانقطاع مادة ايقاده كالمواد الدهنية او روح الكهرباء فهكذا الانسان يكون موته اما بقتل واما بنفاد مادة الحياة وكما ان للسراج مادة يتقد فيها اياكانت تلك المادة فهكذا الروح لها مادة وهي خلاصة الدم السارية في جميع العروق واعلم ان هذه المواد المشاهدة بينها تفاوت عظيم جداً فالمادة الطينية لا تقبل ناراً البتة فاذا شرفت الى ان صارت نباتاً قبلت النار المحسوسة فاذا ارتقت الى الحيوانية كانت نارها اضوء كالشموع التي نارها حسية وظهرت فيها الروح الحيوانية في جسم الحيوان فاذا ارتقت الى الانسانية صارت الروح اجمل وجاء لها العقل وارتقت الى عالم الجمال وهذا هو نهاية الابداع فهذه هي سنة الكون وهي الترقي، (ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) (فسنة الله في الكون الترقي دائماً)

فوازن بين هذه السلسلة الآخذة من الجماد الميت الى الروح العاقلة فى الانسان وبين نحو الطفل ولادة فصبا فشباب فكهولة فشيخوخة فموت وهكذا المولدات من جماد فنبات فحيوان فانسان فعقل راق وهكذا الامة تبدو كالطفل فتشب فتصير فى الكهولة فالشيخوخة فالموت وهكذا الليل والنهار فى زيادتهما ونقصهما فى السنة كلها وهكذا في نفسهما فترى الشمس تأخذ في الارتقاء حتى تصل الى كبد السماء ثم ترجع كاحوال الانسان بل العالم كله على هذه السنة (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)

﴿ ابداع العقل والمنطق والخط ﴾

علمت حواس الانسان وقواه الباطنة ورأيت انها جمعت تفاصيل مالدينا من كل ما نشاهد من العالم بصوره ومعقولاته فتأمل كيف عمل العقل فى الكثيف عملا جعله لطيفاً ثم ترقى فصار معقولا فللمحسوس مراتب ثلاث صوره الخارجية ثم تلطفه وخروجه عن المادة بصورة في النفس ثم صوره العقلية المنتزعة من صور الخيال فما اعجب هذه الحكم وما ابهجها فياليت

شعري كيف صار الجماد معقولا وبأي وسيلة اصبحت هذه
الاجرام العظيمة كلها فى عالم النفس بصورها واشكالها ثم كيف
نرقت فصارت اموراً كلية فى العقل وبأى وسيلة ترجع الامور
المعقولة فتصير خيالا اما فى النوم ورؤية الكليات في صورة
جزئيات واما باستعمال العقل لاستخراج جزئيات يتصورها
الخيال ثم تبرز في الخارج بالجوارح بواسطة الآلات المسوقة
بالشوق ثم تأمل كيف برزت صور الخيال والعقل الى الخارج
بواسطتين احداهما الافعال بواسطة المواد والآلات وثانيتهما
بواسطة اللسان وآلات النطق بالهواء فيحدث صوت يتشكل
باشكال مختلفة تسمى حروفا تجتمع مع بعضها فتكون كلمات
لاحصر لها مساوية لما يحدث في الخارج من المركبات العنصرية
في انواع الكائنات الداخلة من الحواس المصورة في الخيال. ولكون
الانسان مدنيا بالطبع احتاج الى النطق يبرز مافي ضميره الى
ذهن غيره فكان نسخة العالم كله احضرت امامه ويختار منه
ما يشاء ويعبر عنه ليعرف الآخر ما عنده ثم ان الانسان مع
هذا كله تبقى حاجاته غير تامة محتاج الى زيادة تكملة فانه لا يمكنه
ان يكلم من هو بعيد مكانا ولا من في مستقبل الزمان ولا يعرف

اخبار الماضين فلهذا كله اقتضت الحكمة الالهية ان يكون الانسان كاتبا لتبقى افكاره بعده ويحيط بها علما من ابعد مكان ويدون جميع الأعمال بصور الحروف المكتوبة لانها اثبت ولا يمكن انكارها فها هنا مراتب العقل والخيال واللسان والكتابة فاللسان يحضر صور الحروف وهي دالة على مافي العقل والخيال وهما دالان على مافي الخارج الا ان الصورة فى الكلام اضعف من صورة العقل والخيال لان الكلام دال وذانك مدلولان ثم الكتابة دالة على الحروف ولعمرى كم من الفرق بين حروف تكتب وصور الاشياء بنفسها فى المخيلة .

اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم واشار الى النطق بقوله (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان والى الكتابة بقوله) (ن والقلم وما يسطرون). وقوله (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم. وهنا دور عجيب تنظر الحواس الامور الخارجية فترصد في دفتر الخيال ويسمى المصورة ايضاً ثم تذهب الى العقل ثم ترجع الى الخيال ثم النطق فالكتابة ثم ترجع الى الحواس من طريقها ولكن صغيرة عن حالها الاول

فانها دخلت اول مرة بصورة والان بدال الصورة فيكون العلم اضعف من المشاهدة ولذلك كان اقل الناس علما من حرموا النظر فى الكون واقتصروا على الكتب يدورون فيها كما يدور الحمار فى رحاه (اولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم) فوجود العلوم فى الكتب فى مرتبة سابعة فافهم

﴿ ضرب مثل لحال النفس مع الجسم ﴾

مثل النفس مع الجسم كمثل وزير يدبر امور رعاياه ويقوم لشؤونهم وهو مع ذلك يتلقى اوامر الملك او كمثل حاكم مقاطعة من المقاطعات ينظر فى امور الناس ويسمع امر الوزير وهو اعلى منه فهو بين اعلى يأمره واسفل يأتمر بامره فاذا اظهر استعداده لرتبة من هو اعلى رقاه الوزير وباشر الامور العليا فهكذا الروح يدبر الجسم ويسعى فى تكميله بالاخلاق ويتكمل هو بالعلوم ليستعد للترقى الى ماهو اعلى فى عالم اجل من هذا

واذا تأملنا احوال النفس مع الجسم نرى انها مع قواها كرب المنزل سكن هو واسرته فيه فالنفس رب المنزل والقوى

اهله وخدمه وحشمه والجسم هو المنزل .

ومن جهة اخرى نجد ان هناك اعمالا داخلة فى الجسم ناتجة من قوى النفس فهناك القوى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة والمصورة والحواس الخمس والخيال وقوى الدماغ والاحساس والحركة ولا ريب ان هذه القوى لها اعمال عجيبه داخل الجسم وخارجه وما اشبهه الا بصانع وتلامذته او مهندس وعماله يعملون جميعا في دار صناعة واحدة

ثم ان هذه الاعمال لا يمكن حصرها وكأن كل قوة من هذه القوى وحدها لكثرة اعمالها وانتشار عمالها معمل مخصوص كثرت عماله كما اوضحناه فى ميزان الجواهر فالقوة الجاذبة نراها منبثة في جميع الاعضاء المحتاجة للجذب كالمعدة والحلقوم فترى المعدة تجتذب الغذاء الى اسفل لا سيما الحلو وهكذا المرىء يحصل فيه جذب للطعام كجذب الرحم لماء الرجل وقس عليها الماسكة فانها تمسك لكل عضو من اعضاء التغذية ما اودع فيه حتى يفرغ من عمله وهكذا اعضاء الجسد كلها تمسك عليها مايغذيها من الدم فالاول كالمعدة والاثنا عشرى والكبد فكل من هذه الثلاثة تبقى فيه المادة حتى يتم نضجها الى ان تدفعها الدافعة والثانى

كاليد والرجل والعين وغيرها فكل من هذه الاعضاء اذا جاء اليها بتقدير الحكيم العليم ما يليق لها من الدم للتغذية امسكه الله عليها حتى يتم بناؤها فلله الحكمة البالغة ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون فلكثرة الاعمال وانتشار العمال وتفرق اعضاء الحس والحركة وغيرها في سائر البدن يمكن اعتباره مدينة ذات معامل كثيرة الصناع منتشرة العمال لا يهدؤن ليلا ولا نهاراً في اعمالهم. ثم انا اذا لاحظنا ان النفس وقواها الحساسة والمحركة تأمر الجسم فيأتمر وتنهاه فينتهى فهو مطيع مسخر مقهور تحت هذا المسلط القاهر القادر (النفس) امكننا تشبيهها بملك واعوانه مسلط على مملكة الجسم واى ملك فى العالم اقدر على رعيته من النفس للجسم واي رعية اطوع لمالكها واخضع لسيدها من الجسم الى النفس وقواها ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم

ثم اذا راقبنا اعمالها نجدها كأنها حارث يحرث ارضا يخرج له ثمر يناسب الحارث والمحروث فالنفس كالحرث والجسم كالارض والاعمال كالثمر .

ولما كان نوع الانسان غير منحصر في عدد بل افراد منتشرون وهم في اعمالهم يتنافسون وفى اغراضهم يتنازعون

امكن تشبيه النفس بالفارس والجسم بالفرس والحياة بالميدان والناس يتسابقون وقصب السبق هي المعالى فاذا لاحظنا الحياة والموت وغصص الدهر واعمال الناس واختلافهم والفصل بينهم بالحق وهم لا يظلمون امكن تشبيه الجسم بمركب والنفس ملاحه والبحر فتن الدنيا والبضاعة المحمولة فى السفينة عمل النفس والساحل الموت ومدينة التجار وراءها وفيها الرب الجبار يعطي كلا من هذه الانفس ما يليق لها على حسب بضاعتها ان خيراً فخير وان شراً فشر . واذا لاحظنا ان نفس الجسد منظم فى غاية الحسن والابداع والجمال والبهاء والنفس تقرأ فى نقوش ابداعه ومحكم تركيبه شبهناها بصبي يتعلم فى مكتبه . ثم ترتقى عن ذلك كله الى ان النفس تنظر الى نفسها وقواها فتجد فيها صوراً ونقوشاً وعلوماً فكأنها دفاتر رصد فيها الصادر والوارد والعالم باجمعه فكأنها عالمة معلومة وعلومها مختصرات علوم الكون اجمعه ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فانظر كيف شبهت مع الجسم بمنزل ومعمل ومدينة ومزرعة وميدان ومكتب ودفاتر ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب

﴿ قوى الانسان كلها ترجع الى نفس واحدة ﴾

اعلم ان القوة الغاذية وممداتها وفروعها من الهاضمة والماسكة ونحوها وما يتفرع عنها من النمو بقسطاس مستقيم وتدبير محكم من طول وعرض وعمق لكل عضو ما يليق به من مقادره وانواع غذائه مقدمة على قوة الاحساس بالحواس الخمس ورئيسها الحس المشترك فالحس المشترك تخدمه الحواس الخمسة كما كانت ممدات القوة الغاذية خادمة لها وهذا الحس المشترك مقدمة للمخيلة (المصورة) وهذه مقدمة للنفس الانسانية

فاذن هى نفس واحدة لها خدم يشتركون في خدمتها بعضهم فوق بعض فاولها المخيلة فالحس المشترك فالغاذية ويقترن بكل قوة من قوى الادراك الثلاثة نزوع الي مشتهى او نفور عنه فيكون للادارة ستة انواع ثلاثة منفور عنها وثلاثة مشتاق اليها فالحواس الخمس كل منها موكل بعالم من العالم المشاهد فتأتى كل حاسة بخبر عالم من العوالم كما اوضحناه سابقاً فتشتاق النفس اليه وتنفر عنه كطعام محبوب او مكروه كالتمر والحنظل فتاكل كيف تتسلط القوة النزوعية على اعضاء الحركة فتحركها اما الى

طلب واما الى هرب وتستعين بالاعضاء الظاهرة فى السعى الى ما احبت وفى الهرب عما كرهت وان كان هنالك مانع اثناء السعى ازلناه بايدينا حتى نصل اليه فهذه كلها اعمال الاعضاء الظاهرة فاذا ذقنا هذا الطعام المشتهى حصل شعور النفس وهذا بعينه فعل النفس بعد فعل الاعضاء فما احسته الحواس ينال بفعل الجوارح وفعل النفس وهكذا المخيلة تتبعها ارادة اما الى طلب المتخيل او الهرب منه وذلك يكون باحد ثلاثة امور

اما باستخدام الحس المشترك واما باحضار الخيال تلك الصورة فلا عمل للجوارح من جهة المخيلة قط فاذا اشتاقت الى احضار صورة جميل تعرفه بعينه فتارة تستخدم الحس المشترك وهو يستخدم البصر لينظرها وتارة تحضرها هى بنفسها. وإما الارادة التابعة للعقل فبالفكر تستنتج الحسن والقبيح وتستخدم جميع القوى في درء ما كرهت وجلب ما احبت

وبالجملة فالعقل هو الحاكم على جميع القوى الرئيسة والقوى الارادية فهى نفس واحدة وكل هذه فروعها وتبع لها

ولا تظن انها تتمثل بجزء وتحس بالحواس الخمس بجزء وتتغذى بجزء بل هى شيء واحد وله احوال مختلفة كما ان الكاتب

يمسك القلم ويكتب ويعدل السطور ويضع النشافة على الورق ويطوى الكتاب فليس لكل عمل من هذه واحد مخصوص وانما العمل لواحد لكثرة قواه كثرت افعاله فهكذا العقل ينظر ويسمع ويشم ويذوق ويلمس ويتخيل ويتغذى ويريد ويعمل ويكر ويفر وهو واحد فى ذاته

﴿ برهان ان النفس وقواها واحدة ﴾

ولعلك تقول هذا تمثيل لا برهان عليه فانى لا اقنع الا بالبراهين واما ضرب الامثال فكيف يكفى من درس العلوم اقول ان الحكماء برهنوا على هذا براهين وربما اخال ان كثيراً لا يفقهون جلها ولكن لا بد من ذكر جلى البراهين واوضحها فمسالك يطمئن به قلبك ها انت تعلم ان طبيعة الاجسام لا تقبل التداخل فالجسم الواحد لا يقبل دخول غيره فيه قط كما هو معلوم من الطبيعة فالنا نرى كل قوة من قوى الدماغ تسع صوراً لا نهاية لها فاذا كانت اجساماً فكيف تسع ما لا يتناهى من صور السموات والارض وما بينهما ومن القضايا الكلية والجزئية فهذه طبيعة خالفت طبائع الاجسام فليست منها واذن فهى لا

تنقسم اذ المنقسم هو الجسم فالنفس امر بسيط

وايضا نرى ان القطعة من الشمع مثلا لا تقبل صورة الا بعد ذهاب اخرى وهل يمكن ان تكون قطعة الشمع مثلثة ومربعة في آن واحد كلا فما بالنا نرى القوى التي في الدماغ تقبل علما وتقبل آخر فاخر الى مالا نهاية له ومع ذلك لا تمحو الصورة المتأخرة الصورة المتقدمة فلو كانت جسما لمحي السابق بالعلم اللاحق بل العلوم كلما كثرت عند النفس تقوى بها على غيرها من العلوم اما الاجسام فلا تقبل الا شكلا واحداً ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار اليس ذلك لكون النفس امراً غير جسم فلا ينقسم اذ لو انقسم لكان جسما وقد برهنا انه ليس بجسم فكفاك هذا برهاناً على ان النفس امر واحد غير جسم وهذه القوى ليست غيرها وانما هي صفات لها كما قدمنا ايضاً ان المادة امر مجهول ظهرت صفاته التي عشقتها النفس وسعت لها بقواها

﴿ المادة والنفس ﴾

فالمادة كما قدمنا لم يمكن معرفة كنهها والنفس مثلها لكل منهما صفات مختصة به تتلاقى تعاشقاً فجمل المادة بظواهرها

مكملة للصورة الانسانية ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون

﴿ المادة والنفس والعقل والملائكة ﴾

اختلفت الافكار وتباينت الاراء فى الموجودات تبعا لاختلاف الفطر وفوق كل ذى علم عليم فقال قوم ليس فى الوجود الا الله والمادة فالمادة هى المصنوع والله عز وجل هو الصانع وانكروا النفوس والارواح وقالوا ليس هناك شيء سوى المادة وقالوا ان ما نراه من قدرة الانسان وعلمه وحكمته وما يظهر من غرائب الحيوان فهي قوة جسمية وجميع مانراه من افعال الجماد فى الطب والكهرباء فمنهم من قال فعل الله ومنهم من قال بالبخت ومنهم من نسبه الى الطبيعة فاذا سئل عنها عجز عن تفسيرها ثم جاء من بعدهم قوم آخرون وقالوا اننا نشاهد المادة امامنا ميتة مظلمة وجميع اعراضها لا تعطيها قوة بل هى قبلها الاحراك لها فالمادة وصفاتها ميتة منفعلة فكيف تكون فاعلة في نفسها هذا مما لا يكون

ثم اننا نشاهد بعض الاجسام حلها امر غريب عنها فحركها واعطاها الحس فسميناه نفساً وهذا لكافة الحيوان بل والنبات

فكل ما ينمو سمينا مافيه نفساً نباتية وكل ما يتحرك ويحس سمينا الامر الذى حل فيه نفساً حيوانية اذ هذه الافعال والقدرة والادراك ليست من صفات المادة وانما هي فاعلة والفاعل غير المنفعل فهذا طبعاً امر ثالث غير المادة والخالق

ثم انا نرى بعض الحيوان وهو الانسان تختلف افكارهم وتتفاضل قرائحهم بامور أخرى فقلنا ان هذا التفاضل جاء لها بامر غريب قاهر للنفوس ومسيطر عليها الا ترى ان النفوس مدارها على الشهوة والغضب في الحيوان والانسان ولكن هذا الامر الغريب يزجرها عنهما ويأمرها بالاعتدال فسمينا الامر الوارد على النفس عقلاً. فههنا مادة تسلطت عليها نفس وتسلط عليها عقل حل فيها حلول الصفة في الموصوف . فبهذا ثبتت المادة والنفس والعقل

ثم قالوا انا نرى المادة في السموات والارض مسخرة كلها جارية بنواميس كلها سائرة على محور النظام والعدل والكمال وقد علمنا انها من نفسها لا حراك لها فوجب ان يكون لها محرك يقرب منها وبينه وبينها مناسبة لانا علمنا ان هذا الحكيم الذى دبر الكون ربط الاسباب والمسببات فجعل كل شيء

يناط بما هو اقرب اليه فى الشبه ثم الكائنات متشابهة فاذن لا بد للعالم كله من نفس مدبرة له خاضعة تحت اشارة العقل الذي هو فوقها كما ان للانسان عقلا مسلطاً على نفسه القاهرة لجسمه اذ النفس لا تستقل بنفسها فى تدبير الاجسام بل هى تستمد من العقل فى كل آن فقاس هؤلاء نظام الكون كله على الانسان وقالوا ان هنالك نفساً مدبرة تحرك بها العوالم تتصور الجزئيات وتتلقاها عن العقل القاهر فوقها .

وهذا العقل يسميه الشرع اللوح المحفوظ فتتلقى منه النفوس عند الحكماء (وهم الملائكة عند الانبياء عليهم الصلاة والسلام) الاوامر ويتحرك هذا العالم على نظام عجيب هذا معنى مايذكره هؤلاء وقالوا ان اول ماخلق الله العقل وهو فيض من نوره تنزل من تلك السبحات العليا وفاض فيضانا بلا زمان ولا مكان اذ كان الله ولم يكن زمان ولا مكان لما تعلم انه قبل خلق العقل لم يكن الا الله فاين الزمان واين المكان فان المكان يستلزم المادة وهى لم تخلق والزمان لابد فيه من حركة الافلاك كما هو مقرر لا مطلق حركة ثم خلق بعد العقل الهيولا (المادة) بسيطة لاتدرك بالحواس كالاجسام الروحانية ثم اعطاها الصورة بأن

مدها طولا وعرضاً وعمقاً وصارت كرة عظيمة غازية الطف من
كل ما يرى ثم افاض الله عليها النفس من العقل فدارت المادة
دورات سريعة وعلى مقتضى النواميس التى وضعها مدبرها
والقاها في اللوح المحفوظ ومنه فاضت على النفس الكاية (الملك)
المسلط على المادة فصارت كراه كثيرة دائرات وكل كرة خلقت
فيها نفوس لا يعلمها الا الله واودعت فيها نفوس كاية تارة
وجزئية اخرى (وما يعلم جنود ربك الا هو وما هى الا ذكرى
للبشر ومن هذه النفوس الجزئية الانفس الحيوانية والنباتية
والانسانية التى فاض عليها من اللوح المحفوظ نور الهمها تقواها
ومن نفوسها فيض الهمها فجورها هذا زبدة ما قاله هؤلاء
الناظرون مع رعاية العلوم الحاضرة وانت تعلم ايها الاخ المطلع
على كتابى هذا اننى لا اقول هذا من باب انه هو الطريقة التى
خلق عليها العالم قطعاً لا وانما هي التى اخذها الناس بفراساتهم
من ظواهر الكون مع تأملهم فى الشرائع السماوية فيجعل كانه
فرض تحل به المسألة حلا وقتياً والا فمبدأ خلق العالم امر مجهول
بالكلية وانما هذا القول اقرب الاقوال الى الحقيقة بحسب ما بلغه
علمنا اذ من الناس من يقول العالم مركب من اجزاء لا تتجزاء

والا خر يزيد فى الطين بلة ويقول مركب من اجزاء تتجزأ ولا نخص عنصراً مخصوصاً من العناصر المعلومة وآخرون افرطوا فقالوا هذه العناصر كلها اصلية فأصل العالم مركب منها وزاد قوم ضلالا فقالوا بقدم الافلاك وزاد آخرون جهلا فقالوا بقدم المادة وهذا كله خبط عشواء لا دليل عليه بل اوخصه كله الاكتشافات الحديثة والعلوم الجديدة التى توضت تلك الترهات ومن هذا نفهم الخبر المشهور على الالسنة وهو قولة عليه الصلاة والسلام.

اول ما خلق الله العقل فقال له اقبل فاقبل ثم قال له ادبر فادبر ثم قال وعزتى وجلالى ماخلقت خلقاً هو اعز على منك بك آخذ وبك اعطى وبك اثبت وبك اعاقب

وما نتيجة المادة الا النفوس الحالة فيها الفائضة من العقل الذى جعله الله محيطاً بها . فتأمل كيف ترقت المادة بظهور اثر النفس فيها من نبات الى حيوان الى انسان وان الى ربك المنتهى فاذا تكمل الانسان بالعقل يرجع الى الملأ الاعلى فالمبدأ هناك وهو العقل فى اصل المبدأ صار هنا منتهى ولذلك لما كان صلى الله عليه وسلم هو نهاية ابداع النوع الانساني استعد لفيضان النور عليه من الملائكة وصار يترقى الى مالا يتناهي ومن هذا

نفهم كيف احتاج الكون الى ملائكة فانك علمت ان المادة لا حراك لها فلا بد من ملائكة فيها كلها والا فما الذى حرّك هذه الكواكب ولا بد من ملائكة ايضاً فوقهم ليعطوهم الاوامر بالنظام والا فما هذا الحساب البديع لا يتغير على مدى الزمان ولعلك تقول ان الله هو الذى ادارها فنقول لا ينكر جاهل فضلا عن عالم ذلك اليست الملائكة من افعال الله واذا كانت نفوسنا ونفوس البهائم هى المحركة لهذه الاجسام افلا يعد الله محركا لنا فهكذا تحريك الكون كله يحتاج الى ما احتاج اليه الجزء الصغير من نفس وعقل ويكون الله هو المحرك بالضرورة وهذا القول مطابق لما ورد في الشرائع الالهية من ذكر الملائكة وانهم منوط بهم امر العالم كله لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون ولذلك ترى نظامهم على غاية الاتقان. واعلم ان الملائكة خلق من خلق الله تعالى يحار العقل فيه فان سألت عنهم فاعرف عقلك ونفسك اولا وتأمل انك ابداع غريب يغمض عينيه فيرى ملكا عظيما وكل ما شاهدته فى الخارج موجود فيه فان فهمت هذا فارجع الى الملائكة ويا ليت شعرى اذا عجزنا عن معرفة نفوسنا فكيف نعرف ذلك العالم العظيم وهم الملائكة وكيف نعرف

مدبر الكون كله الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين

﴿ لطيفة ﴾

كل مصنوع للانسان محتاج الي مادة وصورة وحركة وآلة وزمان ومكان فيحتاج الكاتب الى قلم وحركة يد والى حبر وورق ثم جعلهما صورة واحدة وكل هذا في زمان ومكان فالمادة الحبر والورق والصورة هي الحاصلة من اجتماعهما والحركة معروفة وقت الكتابة والقلم والآلة والزمان والمكان معروفان فهذه ستة اشياء ثم المصنوعات الالهية كالنبات والحيوان والانسان تحتاج لاربعه المادة والصورة والزمان والمكان ولا حركة ولا الة كالجنين في الرحم فانك لا ترى فيه الة رسم ولا حركة من الراسم وانما يرسم جل جلاله نقشاً بديعاً تحار فيه العقلاء ولا ترى الة رسم ولا حركة تظهر ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون

ثم الكون المحسوس كله وهو الجسم العمومى المكون من افلاك دائرة سائرة تكون بمادة وصورة ولكن لا زمان ولا مكان ولا حركة ولا الة اذ الزمان لا بد فيه من حركة ذلك وهناك لا افلاك والمكان معلوم وليس هناك سوى هذا

الجسم وغيره عدم فكيف يكون له مكان ولعمرى لقد جهل قوم بمثل هذا الكلام وفهموا منه ان لا اول له وهو خطأ محض بل كان الله ولا زمان معه اذ الزمان بحركة الافلاك فاذا لم يكن ذلك فلا زمان فكيف اذا لم تكن مادة اصلا

ثم الملائكة المدبرة لهذا النظام كله لا مادة لها ولا صورة ولا حركة ولا الة ولا زمان ولا مكان فتأمل هذا الترتيب العجيب فالموجود اما لا يحتاج لموجد اصلا وهو الله تعالى واما ان يحتاج لموجد بلا آلة وهم الملائكة ارفع مادة وصورة وهو الجسم ادمعهما ومع الزمان والمكان فهي انواع المولدات او مع هذه الاربعة والحركة والآلة وهى الصناعات الانسانية

﴿ آراء الناس فى النفس ﴾

آراء العقلاء ونتائج ابحاثهم تابعة طبعاً لما يغلب على عقولهم وما تصل اليه معارفهم وهذا هو السر في عدم الاتفاق وكثرة الاختلاف فى كل مسئلة واعظمها اختلاف واكثرها تشعباً نفس هذا الانسان ولكل وجهة هو موليها وقد بلغت الاقوال فيها قريباً من المائه فمن قائل انها الهواء اذ بالقطاعه تنقطع الحياة

ومن قائل انها الدم اذ بوقوف حركته تقف الحياةوهكذا من الاقوال الدالة على نظر لجهة دون جهة واهم الاقوال ثلاثة فقال قوم انما النفس هو هذا الجسد اذ كلما عندنا من القوى النفسية ناتجة من هذا الجسم وعنه تفرعت الا ترى انه اذا تغير المزاج او مرض الجسم او انقطعت عنه مادة الغذاء اوجرح او انكسر عضو من اعضائه يذهل العقل وتضعف القوى فلا علوم ولا معارف على ان الشيخوخة تذهب بالفكر وترجع العاقل الكبير طفلا صغيراً

وقال قوم ضد الاولين ان النفس هي قوة مسلطة على الجسم ذات قوى تتصرف فيه تصرف الملك في الرعية الا تري ان الجسم ان هو الا جماد تحركه تلك القوة المدبرة فاذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله واعتبر حال الغضبان فانظر كيف تحمر عيناه ويتبلبل لسانه وتضطرب حركاته وهكذا السرور والعلم والجهل ولعمرك كم من الفرق بين عالم عظيم وجاهل فانظر كيف أثرت المعارف والاخلاق على الجسم وما هذه كلها الا من تلك القوة المدبرة وتأمل انها اذا خرجت من الجسم بالموت اصبح ولا حراك له بل يكون

جيفة لا قيمة لها ويخرجها اعز اصحابه وخلانه ولو كانت هي النفس لأبقوها في اماكنهم فقد علموا ان النفس هي التي خرجت من عندهم وتركت فضلاتها فاخرجوها. ونظر آخرون في قول سابقيهم فقالوا اننا نري ان كلا من الروح والجسم يؤثر على الآخر فالروح بما لها من السلطان على الجسم تؤثر فيه صلاحاً وطلاحاً وصحة ومرضاً وهكذا الجسم والذى نستنتجه من ذلك ان الروح وجدت فيه لتتربى كما يتربى الحب فى النبات والثمر في الشجر والفرخ في البيضة والجنين فى الرحم فلا تزال تنمو فيه الى اجل مسمى

وكما ان المقصود من النبات الحب ومن الشجر الثمر ومن البيضة الفرخ فكذلك المقصود من هذا الجسم هى تلك الروح وكما ان البيضة تضعف اذا كبر الفرخ وقوى . والنبات يصفر وينحنى اذا اشتد الحب فكذلك الجسم يأخذ فى الضعف اذا قويت الروح وارادت الخروج وكما أن كلا من الفرخ والحب يبقى بعد خلاصه من البيضة والزرع فكذلك الروح باقية بعد هلاك هذا الجسم وكما ان الفرخ والنبات والجنين فى بطن الام تكون على حسب نوع البيضة والنبات ومزاج الام فكذلك

الروح بعد الموت تكسب الصفات التى تناسب ما كانت تكابده مدة الحياة وكما ان الحب بعد خلاصه من التبن قد يكون غذاء للنوع الارقى وهو الانسان وبعضه يكون غذاء للنوع الادنى وهو الحيوان وبعضه مشترك بينهما وبالجملة يكون انواعاً كثيرة فهكذا الارواح تكون درجات متفاوتة على حسب انواع التربية التى ترباها الانسان في هذه النشأة فكل يترقى فيما غلب عليه فمنهم جلساء الملائكة ومنهم من هو ادنى من ذلك الى ان يبلغ درجة سمين وكما ان الحب اذا خلص من التبن والثمر من الشجر وهو لم يبلغ اشده يكون ضعيف الفائدة او عديمها فكذلك النفس اذا خرجت من الدنيا وهى لم يكمل تهذيبها تكون في عالم الآخرة ابعد عن اللذات ناقصة عرضة للآلام والذم والسخط الاترى ان لكل موجود فاعلا ومادة وصورة وغاية كما هو مشاهد وفاعل الانسان معلوم ومادته وصورته مفهومان ولكن ما غايته مع انه اجمع الحكماء على انه ليس فى الكون شيء بلا ثمرة فلم يبقى الانسان بلا ثمرة وحده وهذا القول الاخير هو الموافق لسنن الكون وقوانين الحكمة وسير هذا النظام والموافق للقرآن قال تعالى (انما الحياة الدنيا لعب

ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

فتأمل كيف اشار القرآن الى تنوع الانسان كتنوع النبات فالحق والحق اقول ان القرآن رمز فى غضون امثاله الى علوم الحكمة ووكلها الي العقول فها انت علمت ان القول الآخير من كلام الحكماء هو الا وفق لنواميس الكون والصق بالبراهين العقلية وان احسن مثال له هو النبات فانظر كيف ذكره فى القرآن مثالا ابرزته تلك التشبيهات التى رأيتها وغيرها وقال فى آية اخرى (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق مايشاء وهو العليم القدير) وقال فى آية اخرى (انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون

عليها اتاها امرنا ليلا او نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن
بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون

فهذا ضرب مثل للحياة على سطح الكرة الارضية وماقبله
تصريح بحال الشخص الواحد وماقبله ضرب مثل لحاليه فضرب
المثل في حال الشخص الواحد والامم الانسانية بالنبات لما علمت
من الحكم المندرجة ضمنه ولم يقتصر جل جلاله على ضرب هذا
المثل وعظا بل جعله فى موضع آخر برهاناً مستدلا بعالم النبات
وغيره على البعث رمزاً للبرهان الاخير الذى هو نتيجة ابحاث
الحكماء فقال. (نحن خلقناكم فلولا تصدقون افرايتم ما تمنون
أأنتم تخلقونه الايات وقوله آانتم انشأتم شجرتها ام نحن المنشئون
فاستدل اولا بالنطفة في الرحم وبالنبات وخروج الثمر منه وبالماء
ان لها غاية وهكذا النار ومايستفاد منها فكانه يقول هل خلق
الجنين في البطن الا للترقى الى عالم ارقى وهي الحياة ويكون
ترقيه على حسب المزاج الذى كان عليه في بطن امه اليس النبات
جعل لغاية وهو الثمر الم يكن نزول الماء لغاية اليست النار جعلت
لمنافع الناس والاعتبار مع انها فى الاحجار والاشجار وكل شيء
اتكون هذه كلها وهى الاجنة فى البطون والماء فى السحاب

والنبات والشجر والنار لمنافع تنتج عنها ويكون وجودكم انتم بلا ثمرة الا الشقاء والآلام ثم تعدمون من الوجود بلا ثمرة مع انكم انتم افضل الجميع بل هذه ماخلقت الالكم واذا كان الانقص المخلوق له غاية افلا تكونون انتم اولى بان تكون لكم (ولقد خلقنا الانسان في احسن تقويم) على ان الحكمة العامة والناموس الذى وصفناه فى الكون يقتضى الترقى ليصل العالم الى النقطة العليا وهو الانسان ويقف الترقي (فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه القرآن كريم فى كتاب مكنون لايمسه الا المطهرون تنزيل من رب العالمين)

اقسم هنا بعد تلك العبارات بالنجوم ومواقعها فى مداراتها على عظيم امر القرآن فذكر النجوم هنا لينبه الفكر الى انها ايضا لها فوائد وهى تلك المذكورات من المولدات اذ كل ما ذكر قبلها ناتج عن دورانها فى مواقعها وهذا كله في ضمن عجائب القرآن التى لاتعرف الا بدقة النظر والبحث في علوم الحكمة مع كثرة الاطلاع ثم ذكر بعدها ان لروح خفية لاتظهر عند خروجها وافاد انه اقرب الى الميت من الحاضرين والناس لايبصرون ثم ذكر انها ذات درجات عليا وسفلى ووسطى على

حسب مايكون الجنين في الرحم ويخرج الى الدنيا والحب والثمر فتأمل كيف كانت ادلة القرآن هي نهاية الحكمة فتارة تذكر تلك التمثيلات على انها مواعظ وتارة اخرى على انها براهين قاطعة إن فى ذلك لآيات لاولى النهى) ومما قاله في الوعظ (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً ومماقاله فى الاستدلال فى سورة يس (قل يحيها الذى انشأها اول مرة الى قوله فاذا انتم منه توقدون فتأمل كيف مثل بالثمر والنار اشارة الى ان الروح تبقى بعدالموت كبقاء النار بعد الشجر وانها خلاصته والقصد الاشارة الى البقاء بعد الموت ثم يلبسها جلابيب الابدان عند القيامة ويبعثها

﴿ عموم الوحدة فى الموجودات ﴾

اذا تأملت جميع نظامات هذا الكون رأيت الوحدة سارية فيها على غاية من الاحكام ولولاها لم يصح لها وجود ولم يكن لهذا النظام فائدة فلا تكاد ترى كوكبا فى نظام الكواكب الا وهو جار على وحدة مخصوصة من حيث السير على نهج الصراط

السوي (ان ربى على صراط مستقيم) وجميع الكواكب لها وحدة مخصوصة فى الاتجاه والضوء وان مداراتها اقطاع ناقصة فلها نظام يجمعها

وهكذا النبات اشترك كله فى وحدة تجمعه وهي النمو والتوالد التابعان للنفس النباتية فنفوس انواع النبات والشجر وان اختلفت فوجهتها واحدة وهى النمو والتوالد والسعى في المصالح على حسب مبلغ ماعطيت من القوى حتى انك ترى العنب يلف خيوطه على عرشه الذى ينصبه الناس له كانه يعلم ان ذلك هو الذى يقيه من التشتت وترى اوراق كل نبات تحذو نهجاً واحداً وهذا كله سير الوحدة وهكذا النفوس الحيوانية فكل نفس من هذه النفوس انما وضعت في هذه الاجسام ليتم اتحاد العناصر والقوى وتعيش زمانا ما ثم تنهدم فظهر من هذا ان كل شيء اعتنى به اشد اعتناء فان له نفساً تجمعه وتدبره لتضم شعثه ويبقي الى اجل مسمى واذا كانت هذه الحيوانات الصغيرة بل والنباتات لها نفوس فبالاولى يكون هذا النظام وكواكبه لها مدبرات تديرها كما تدبر اجسام الحيوانات وهى المسماة ملائكة فان قال الطبيعى هى الجاذبية فنقول له صدقت

ولكن الجاذبية عبارة عن ظواهر ذلك السر العجيب . فياليت شعرى هل دبرت الجاذبية الميتة ذلك الحساب وعرفت مايترتب عليه من الملوك والدول وانواع المولدات وكيف يحوط الجاهل حياة العالم وكيف تمسك الجاذبية الجاهلة مالا يتناهى من النجوم عدام فلا تتلافى يوماً ما ولعمرى ان مثل علماء الفلك في هذه الظواهر كمثل علماء الطب فكما ان الطبيب لا بحث له الا عن الروح الحيوانية التى منشؤها الدم ولا خبرة له فى الروح العليا التى تعقل وتعرف الهندسة والحساب والسياسة ونظام الامم فهكذا عالم الفلك لا يعرف الا ظواهر سير الاجرام الفلكية وقال آخر ان هنا جذبا بينها فدارت دورات لانهاية لها بالحركة الطبيعية ولم يدر ان الحركة كيف يخرج من جهلها علم وكيف كانت بشقائها تصلح العالم وياللعجب لهذه الحركة الغريبة التي دبرت امر الحيوان والنبات وجعلت الكل يرتبط بعضه ارتباطاً تاماً وبناء عليه قال الحكماء ان هذه الحركات في الافلاك لها عالم يحفظها كنفوسنا عبروا عنه بالعقول وعبر عنه علماء الشريعة بالملائكة واذا كانت كل جملة من هذا العالم لها قوة تدبرها فالعالم كله جملة واحدة لما نشاهد انه كله يتعاون كتعاون الجسد

وكل كوكب ينفع بقية الكواكب نفعاً خاصاً فقد تحقق ان الكواكب بالنسبة لمجموع العالم كانها اعضاء جسد واحد فها هو القمر يستمد من الشمس ويضيء الهواء ويمتزج نوره بانواع المولدات وكل كوكب فله في الارض تأثير خاص وجذب يؤثر على حركتها اذن فلا بد ان يكون لهذا العالم كله مدبر واحد ترتبط به جميع هذه المدبرات وتستمد منه وهو مدبر هذا الكون وحده

واعلم اننا ذكرنا فوائد في ميزان الجواهر تناسب هذا المقام ونقلنا هناك كلام العلامة فيليكس لامروين الفرنساوي في الجاذبية وقوله انه يعلم منها الفعل لا السبب فراجعه هناك فبالله الوحدة وفعلها فاشرف شيء في هذا العالم الوحدة بها تم النظام وكلما كان الشيء اتم وحدة واجمل صنعاً كان اتم تركيبا واعلى شأنا والى هنا نشرع في ذكر نظام الامم ولاسيما امة الاسلام مطابقين بينها وبين نظام الكون على حسب ما قدمناه وكيف يجب ان تكون وحدتها مطابقة لوحدة النظام الطبيعي فنقول .

﴿ الباب الثامن نظام الامم ﴾

(الوحدة فى الامم ترجع الى قوتى العلم والعمل)

لا يشك من طالع اساليب حكم الخليقة وما اوتيت من لدن المبدع الحكيم ان كل قوة منحتها فانما ترجع الى قوتى العلم والعمل وهاتان القوتان كانهما سلسلتان متناسبتان ملتصقتان سائرتان على نسق واحد اوعرقان يمتصان الغذاء لنبات واحد وعلى حسب قوتهما وضعفهما يكون ولنبدأ بقوة العلم وسنة الله عز وجل فى ترتيبها في مراتبها ثم نلحقها بقوة العمل وندعهما يتلاقيان في طرفهما عند نتيجتهما وهى الحياة ونطبقهما على امة الاسلام وكما ان كل نتيجة لها مقدمتان فهكذا الحياة نتيجة الوجود ولها مقدمتان العلم والقدرة

وان اردت البيان فهاك نواميس الوجود ترى ان اصغر الديدان اعطى قوة الحس لاغير فيمتص ما حوله ولم يعط غيرها ووهب من الحركة الضعيفة على مقدار تلك الحاسة الحقيرة فيسعى بالانقباض والانبساط لتلك الديدان المولدة فى بطون الحيوانات الكبيرة والخل واللبن والطين ونحو ذلك ثم يترقى عن

ذلك ديدان الزرع فقد اعطي مع الحس الذوق ليفرق بين ما يناسب ومالا يناسب فيأخذ ويذر ثم ماهو ارقى من ذلك وهي حيوانات الظلمة فى قاع البحار اعطيت مع اللمس والذوق حاسة الشم لمناسبة ذلك لمراعيها التى تتربى فيها ويترقى عن ذلك حيوان اعطي قوة السمع مما يتربى فى الظلمات لما ابتلى به من حيوانات تؤذيه وفوق الجميع ما اعطى قوة البصر فاستكمل الحواس الخمس ثم ترقى الحيون في البر والبحر في انواع الذكاء وابداء الغريب الى ان يربى اولاده كالحيوانات التى تبيض وفوقها التى تلد واعلى منها ماتفهم عن الانسان بالتعليم وأرقى منها ماتقلده والانسان ارقى من ذلك كله فيأخذ فى العلوم والتجارب ويصل بعضه بموهبة من مدبر الكون الى درجة النبوة بلا كسب من عنده ولا تجربة فهذه مراتب العلم من ادنى حيوان الى اشرف انسان ومع كل مرتبة من مراتب العلم ما يوازيها من العمل اوالاستعداد المناسب فترى كل حيوان له قدرة ما على السعى اما الى هرب واما الى طلب على مقتضى ما يامر به العلم اذ المعلوم امامهروب عنه أومرغوب فيه فلهذا كانت تلك الاعضاء والقوى صالحة للطلب تارة والهرب اخرى مختلفة باختلاف

الحاجة وعلى حسب العلم المودع فيها فمنها ماينقبض وينبسط ومنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجليه ومنهم من يمشي على اربع ومنهم من يمشي على اكثر من ذلك الى عشرة وعشرين وهكذا ومنها مايعلو عن ذلك فيطير في الجو بجناح يختلف مقداره باختلاف الطائر وقوته وخلقه (ان ربك هو الخلاق العليم) وقد اجتمع في الانسان قوتا العلم والعمل وكل منهما يقوى الاخر فها هى الدول امامنا اتخذت العلم رائدا لقوة العمل والعمل كذلك قوة للعلم معيناً له فهما قوتان لا يستغنى باحدهما عن الاخر ونتيجتهما الحياة وعلى حسبها تكون الدولة فها هى قوة العلم اصبحت تدل على المكتشفات والمخترعات وتعرف مواقع الدول ونظامها وصنائعها واحوالها فتأخذ قوة العمل في اعداد مايلزم للمضارعة تارة والمقارعة والمصارعة اخرى واعداد لوازم الحياة للحالة الحاضرة فمهما تنوعت قوى الحيوان من الرجل والجناح والسعى على البطن فانها ترجع الى القدرة لاغير ومهما اختلفت انواع الحس من لمس وذوق وشم وسمع وبصر وادراكات وغرائز ورحمة على الولد وامتثال أمر وميل للتقليد وارتقاء فى العقليات فانه يرجع الى العلم

ولعمرك ما موقع الامم المنحطة من الامم الراقية الا كموقع تلك الديدان فى اجواف الحيوانات الكبيرة من تلك الحيوانات تمسى وتصبح ولا حراك لها الا الانقباض والانبساط ولقد ضرب الله مثلا للانسان بهذه الحيوانات وسلسلتها في الترقى علما وقوة وكانه يقول انا رقيت هذه الحيوانات فى قوتها فما لهذه الامم اصبحت منشقة العصا ولو انهم سمعوا وابصروا لوقفوا على أحوال الامم الراقيـة التى ابتلعتهم في بطونها فهم يقولون فى الحياة قبل الممات لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى اصحاب السعير

وكل صنف اعلى مما تحته ولقد كرمتك أنت فاعطيتك عقلا يمكنك ان تصل الى ذروة المجد بل تطير فى عالم المدنية طيرانا اكثر من الباشق فى جو السماء . فهذه الحيوانات لم تعط قوة الترقى وأنت أعطيت تلك القوة فما لك تقلد الديدان وتبقى فى حضيض الجهل والهوان فسحقا لاصحاب السعير وما الاخرة الا ثمرة من ثمرات الدنيا وقال تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمي وأضـل سبيلا) والاعمي فى الدنيا من لا يرى رشده وأى رشد بعد معرفة حياة الامة بين ألامم

والامن على الارواح والانفس والترقى على حسب سنن الكون فقد علمت من هذا ان كل الصنائع الداعية لقوة الدفاع والهجوم بجميع آلاتها الحديثة وهكذا كل ما به التجارة والزراعة والصناعة هي قوة العمل وما به احياء العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة الاولى هى ما به قوة العلم وبينهما تلازم كتلازم الطعام والشراب والسمع والبصر والعقل

﴿ كيف تصير الامة كلها جسما واحدا ﴾

وكيف تقارن بجسم الانسان

ظهر لك من نواميس الكون انه كجسم واحد وهكذا كل نبات وحيوان وانسان وكل جماعة منها له وحدة مخصوصة كالاجناس العليا والسفلى والوسطى وهكذا الانواع ولم تقتصر الوحدة على سريانها فى المحسوسات بل سرت في المعقولات فما من علم الا وله وحدة تجمع مسائله كالحد والموضوع فيقال علم الحساب موضوعه الاعداد من الجمع والتفريق وهكذا بل كل طائفة من العلوم لها جامعة من وجه فاغلب العلوم الطبيعية يطلبها الطب والعلوم الرياضية يطلبها الفلك اذ لا يعرف الا

بالحساب والهندسة والجبر وهكذا علم العمران يحتاج للجميع والفلسفة تبحث عن مبادىء جميع العلوم فتتنبه العقول الى مدبر الكون فالزمت الامم القدماء والمحدثين بالنظر في جميع العلوم اذ هو فوق النظر في هذه الاجسام واذا كانت الوحدة سنة الكون فلنتخذ جسم الانسان ناموسا نقيس عليه وحدة الامة فنقول قدمنا فى فن التشريح ان جسم الانسان درجات بعضها فوق بعض من أدنى لاعلى لكل من الاعضاء مرتبة لا يتعداها ولا ريب عند الحكماء ان الامة كجسم الانسان أو العالم كله فكما ان نظام الكون كله مرتب مراتب درجات بعضها فوق بعض وجسم الانسان كذلك ولكل حكمة في الجسم والكون فكذلك الامة لكل فرد من أفرادها درجة فى بناء هيكلها قال تعالي (ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) ولنبين معنى هذه الآية فنقول انها تشتمل على معنيين أحدهما ان خلقنا كنفس واحدة والثانية ان بعثنا كذلك .

أما الاولى فاعلم اننا لا نفهمها الا اذا تأملنا لتشريح الجسم فيما ذكرنا وبنينا عليه نظام الامة فكما ان أعضاء البدن يخدم بعضها بعضاً فكذلك أفراد الامة يعين بعضهم بعضاً (وتعاونوا

على البر والتقوى) وكما ان الاعضاء لكل منها وظيفة لا يتعداها ولا يصلح الا لها فكذلك أفراد الامة لكل واحد منهم استعداد لا يصلح لأعلى ولا أدنى منه الا بقدرة وعلم جديدين فالدماغ مسكن الادراك والفكر والعقل والقوى النفسية والحواس ولا يصلح لما هو دون ذلك من تحريك الدم في العروق وجريانه وطبخ الطعام كالمعدة وغير ذلك والقلب لا يليق ان يكون بدل الامعاء ولا يستعد ان يقوم مقام الملك وهو الدماغ ثم الكبد وهو خادم القلب وكذا الرئة لا يقومان مقام القلب فيما اختص به ولا ينزلان عن طبخ الدم وادخال الهواء الى اقل من ذلك من مضغ الطعام وهضمه وهكذا خدام الكبد من الاوردة والامعاء والمعدة والحلقوم والاسنان والصفراء والكليتان والطحال كل هذه لا تصلح للقيام لطبخ الدم بدل الكبد ولا يمكنها النزول الى درجة الايدى والانثيين والة التناسل فتعمل عملها وهكذا اليدان والرجلان وآلتا التناسل هي اسفل اعضاء الجسم منزلة وادناها عملا فهى خادمة لا مخدومة وبالجملة فهذه الاعضاء ثلاثة اقسام منها رئيس ليس غير وهى الرأس ومنها مرءوس ليس له رآسة وهو الاطراف من اليدين والرجلين ومنها ما

هو رئيس ومرؤوس باعتبارين وهو مايلى ذلك كالقلب والكبد والكلية والمثانة فكل واحدة رئيسة لما بعدها مرؤسة لما قبلها

فهكذا يكون افراد الامة فالحاكم الاكبر منها بمنزلة الرأس من بقية البدن ولا يصلح الا للامور العامة ولا يتنزل للجزئيات كالدماغ او هو الموزع للحرارة على بقيته توزيعاً صالحا

والقلب بمنزلة الوزير يجب ان يكون فى العلوم والمعارف والاستعداد والجاه اقل من الملك واكثر ممن هو تحته فان كان اعلى مما هو فيه او ادنى فهناك الطامة والفساد

ثم من تحت الوزارة من نظار المصالح يكونون بمنزلة الكبد والرئة والاوردة والشرايين التى تعطى الدم وتأخذه

فلا يجوز ان يكونوا كالوزراء استعداداً ولا مثل الذين هم اسفل منهم طبعاً مثل حكام المقاطعات وهكذا حكام المقاطعات هم بمنزل الكليتين والطحال والمرارة والعروق وكالحجاب الحاجز والصدر والحلقوم فهؤلاء لا يليق ان يكونوا كنظار المصالح استعداداً ولا كمن هم تحتهم من امراء الجهات ادراكا وفكرا وجاهاً وهكذا حكام الجهات الصغرى ومشايخ البلدان الكبيرة والصغيرة فهم المعدة والامعاء والقواطع والاسنان درجات بعضها فوق

بعض لايجوز ان يكون احدهم مساويا لمن فوقه استعداداً ولا نازلا لدرجة من تحته فكراً وادراكا ويسري ذلك من الحاكم الى الكاتب الى الخادم والصانع والفلاح وهم الذين يخدمون ولا يخدمون في مقابلة الرئيس الاكبر للامة وهو الذي يخدم ولا يخدم ومتى كانت الامم على هذا النظام أصبحت تضارع النظام العام فى السموات والارض وفي جسم الانسان الذي خلق فى أحسن تقويم واذن تكون الامة كلها مطابقة لخلق نفس واحدة وتقوم على أحسن منوال وهذه هي المدينة الفاضلة

﴿ تأثير الاعتقاد فى الامم ﴾

من تأمل في الامم وجدها تشترك فى امور تعمها ولولاها ما تعاملوا ولا تجاوروا واهمها الاحساس بان لهم قوة يخضعون لها مسيطرة عليهم وما فى قلوبهم من رحمة على ابناء جنسهم والعقل الغريزى المنبث فى جميعهم وان تنوعت الديانات وتباينت العقول واختلفت القوى ولكن الاحساس والفكر الشامل الغريزى ليس يخلو منه قط الانسان وعليه تبادلوا المنافع والتجارات والصنائع والعلوم وكل يميل الى صناعة او حرفة

او بلد او امة او دين فاختلفت الفطر ولاجلها تنوعت الصنائع والاعمال واحتاج كل فريق للآخر (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك)

وكما اشتركت الامم فى الاحساس الفكرى والصورة الجسمية والحاجة العامة يجب ان تشترك كل امة فى امور تخصها لايشاركها فيها غيرها حتى تتم وحدتها وارفع امة هى التى يسرى فى جميع افرادها اعتقاد بصانع الكون وصفاته وانه مقدس واحد لاشريك له ليس له اول ولا آخر قديم باق ليس كمثله شيء تنزهت ذاته عن الاجسام والتجزئة والتقسيم شملت قدرته جميع الممكنات وعم علمه وكلامه الواجبات والجائزات والمستحيلات لايصدر شيء الا عن ارادته يعلم مافوق السموات وما فى طياتها ومافى الجو والثرى وما تحته وبالجملة ان كمالاته لانهاية لها وهو منزه عن جميع النقائص وان له ملائكة عظاماً وانبياء ورسلا قد اتبعوهم ودانوا الى اخرهم الذي ارسل اليهم كمن اتبعوا ابراهيم وموسى قبل المسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام وان يكون فيهم علماء وحكماء خلفوا هؤلاء الانبياء يقومون بالارشاد والاستنباط فيهم والاهلكوا وضلوا وذلك

ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام فيهم استعداد تام للدين والدنيا وسياسة الدارين فيقودون الخلق لمعاشهم ومعادهم ودنياهم وآخرتهم ونمو اجسادهم وقوة ارواحهم فانهم يتلقون الوحي عن مبدع الكون لما افاض عليهم من الاستعداد وقد قويت فيهم القوة المخيلة والعاقلة وهم اذكياء اعفاء شجعان ذاكرون لما علموه نبهاء امناء فطناء رحماء بالخلق قويو البنيه ليس في اجسامهم ماينفر طبعا صادقون يبلغون ماامروا به للخلق. قائمون بسياستهم فى الدين والدنيا

﴿الموضوع الرابع — ما به نظام الدنيا والدين﴾

اعلم أن الدنيا والدين لايصلحان الا بوجود اربعة أشياء الزراعة والتجارة والصناعة والسياسة والاخيرة مما قبلها بمنزلة الرأس من الجسد وكما لايصلح الجسد الا بالرأس فهكذا لاتنفع صنائع الامة وزراعاتها وتجاراتها الا اذا اقامت سياستها على الوجه الاتم بل السياسة فى الامة كالروح في الجسم فكما تكون الامة جسداً واحدا له اعضاء متعاونة فهكذا يجب ان يكون لهم روح مدبرة سارية فيهم وهى القوة السياسية وهى اما ان تخص بواطن

العامة والقائمون بها هم الوعاظ او الخاصة فقط وهم الحكماء والعارفون واما ان تحكم على ظواهر الاجسام لاغير وهى سياسة الملوك والحكام واما ان تعم الجميع ظاهراً وباطناً خاصة وعامة وهى سياسة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فاذا انتقلوا الى جوار ربهم جعل الله تلك السياسات موزعة فى طوائف من اممهم اذا اراد بقاءها فاذا ضعفوا عن حمل تلك الامانة ولم يقوموا مقام نبيهم باعتبار مجموعهم دل ذلك على اضمحلال تلك الامة الضالة واخذها فى الدمار والشقاء اما القائمة مقام نبيها فتختص كل طائفة من عقلائها وعلمائها بعمل فهؤلاء للوعظ وهؤلاء للحكم بالعدل وهؤلاء للتبحر فى العلوم ويتقاسم العامة اعمال الصناعات والزراعات ويتبع مجتهدوها ومستنبطوها آراء نبيهم مع ملاحظة ماهم عليه والوسط الذى هم فيه اذ علوم الانبياء تأتى للناس عامة لا سيما خاتمهم عليه الصلاة والسلام ويمكن انزالها على كل وقت وبالجملة فكل أمة تحتاج الى نبي تتبعه وحكماء يستنبطون فان الله عز وجل خلق العقول وانزل الديانات وكما ان لكل نفس قوى مختلفة والعقل رئيس عليها كما نشاهد من نفوسنا فهكذا لكل أمة عقلاء ولها نبي يجمع آراءهم

واعلم ان الناس مدنيون بالطبع وذلك ان كل فرد لا يمكنه ان يقوم بجميع لوازمه فلا بد اذن من توزيع الاعمال عليهم بحسب الطبع والفطرة فيحتاج كل للآخر ولا بد بعد ذلك من التبادل فيأخذ النجار ماعند الخباز والخباز ماعند النجار فيتبادلان ثم لا بد من قسطاس يحكم بينهما بالعدل فوجب أن يكون بعض المعادن قاضياً حكماً حاكما على القيم لا حظ لاحد المتتابعين فيه يكون معياراً للتبادل ودليلا على النقص والزيادة وقد اصطلحت أغلب الأمم على الذهب والفضة ثم لا بد مع ذلك من طمع أحد المتبادلين في الآخر فلابد اذن من حاكم ناطق إذا عجز الحاكم الصامت من النقدين ثم بعد ذلك لا بد له من ناموس يحكم به والالأصبحت آراؤه وأوهامه واغراضه لها السلطان على الامة وذلك القانون يقوم به العقلاء ولكن هؤلاء يختلفون بل الانسان الواحد يناقض نفسه في وقتين مختلفين وإذن لا بد من شرع أتى به النبي ليقوم لعقول الأمة مقام عقل الشخص لقوي نفسه وما العقول إلا كالغذاء وما الشرائع الا كالدواء فأي أمة اتبعت عقولها وتركت أنبياءها مرضت مدنيتها وان غلظت وعظمت كما نرى من قوم يكثرون من الاغذية ولا يتعاطون الادوية

فأولئك تغلظ أجسامهم ويدب فيهم الداء وتكون أمراضهم دفعية فتأتيهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولاهم ينظرون وهذا حال أمم أوروبا قد ترقوا فى كثير من شؤونهم العمومية ونبذوا الديانات فلم يراعوها الا بين الافراد بعضهم مع بعض فاصبحت معاملات الافراد يغلب عليها الصدق والامانة أما معاملات الأمم فانها تابعة للحظوظ ثم انهم أباحوا للاحاد باشياء لم يراعوا فيها نص الشرائع السماوية كالربا والخمر فترى مدنيتهم زاهية زاهرة كالجسم المظم السمين ولكن فيها أقوام كثيرون يعثون فى الارض فساداً ويريدون ان يقوضوها على عروشها جزاء بما كسبت من ترك الدواء واستعماله كالاشتراكيين والنيهلست وهناك كثير من الاقوام أصبحوا في أشد الفقر المدقع وعظيم الحاجة لسبب عدم التوازن بين الافراد اذ العقل الانسانى لا يمكنه الاحاطة بجميع المصالح والمضار أما الناموس الالهى فينهى عن الربا مثلا لعلمه أنه يجعل الناس فى الأمة قسمين عبيداً وسادة لاغير وهذا هو الخلل العظيم وهاهو حاصل فى أوروبا الآن ونرى ان الشرقيين على عكس أولئك تماماً فتركوا استعمال العقل في شؤونهم العمومية . وقلدوا في أمورهم الخصوصية وراعوا بعض الدين

فانسلخوا من المدنية وانحطت قواهم إذ لم يرعوا موهبتى الله المفاضتين عليهم وهما قوة العقل والدين وماهم فى شؤونهم إلا كمثل من استعمل الدواء وترك الغذاء فتراه يشرب صباح مساء الادوية ويترك الاغذية وهذا بلا ريب أحط من الاول مدنية واقل منه شرفا فلا دنيا ولا دين على انه لا يتحقق دين بلا دنيا فتلخص ان أهل المدنية الفاضلة هم المتتبعون لنبي المستنبطون المؤمنون بالله وبشريعته بعقولهم وان اختلفوا فيما بينهم في الفروع كما تختلف اعضاء الجسد في اشكالها من طول وعرض وتدوير وصلابة ولين وعروق ولحم وانهم ان وقفوا على العقل وحده ضلوا أو الدين وتركوا العقل بالكلية خسروا الدين والدنيا جميعاً ويكون اتباعهم للدين بمجرد الاسم إذ لا دين الا مع تعقله ومتى عقل الدين كان ادل على حفظ نظام الدنيا والاخرة معا وقد علمت حال امم الشرق والغرب هذا حال الامم فى هذه الحياة الدنيا

﴿ الموضوع الخامس ﴾

مآل أهل المدنية الفاضلة بعد الموت

اعلم ان هذه الدنيا عنوان الآخرة ولا يجوز ان يعبر الى الآخرة الا على قنطرة الدنيا وأية أمة ظنت ان الآخرة تأتي بلا دنيا فهي جاهلة لم تدر شيئاً . ألم تر كيف فرضت فرائض المواريث واحكمت شرائط البيع والشراء والهبة والقرض وحرم الربا والزنا والسرقة ودونت احكام النفقة والمهر والدخول والطلاق والعقوبات من القطع والقتل والقصاص والجلد والرجم والتغريب والتعازير مما يجتهد فيه القضاة أليس ذلك كله لحفظ نظام الدنيا. ولعمري اذا لم يكن عند الناس مال فأين المعاملات والبيع والشراء وأين المواريث والحقوق وأين تفرض النفقات ومن أين تكون السرقة والربا فهذه كلها جعلت قيوداً وشرائط لتحفظ بها هذه الحياة الدنيا ويمر عليها بالعقول والافكار الى الآخرة بالاعمال الصالحة ومن ظن غير ذلك فلم يفقه في الدين شيئاً ولم يعرف لم خلق . ثم ان أهل الكمال من الامم كلها تراهم يميلون الى فكر واحد ووجهة واحدة وهو الصراط المستقيم

فيتعاونون على البر والتقوى عاملين بقوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)

وقد استنتج العلماء رحمهم الله كالشافعي في الرسالة واصحاب الاصول عامة ان الصناعات واجبة وجوبا كفائيا ونحن نقول لما كان كل فرد له استعداد لعمل خاص فليكن يجب عليه ان يقوم بذلك العمل مع من له استعداد فيه كما هو ناموس الكون ان لكل شيء من الموجودات منفعة ليست في غيره وهذا هو الذى ادين الله به مهما اختلف الفقهاء فيجب على المستعد لعمل ما أن يقوم به حتى يبرع فيه ويجب على غيره من الامة ان يشجعه عليه من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وسنعقد لهذا بابا خاصاً عند التكلم على مدنية الاسلام ونذكر انه يجب على ملوك الاسلام وامرائه تنشيط كل مستعد لعمل ما الى عمله لتقوم المدنية بالقسط في هذه الدنيا ويأخذ الناس بعضهم بيد بعض للدار الاخرة

وما الاخرة الا ثمرة من ثمرات الدنيا ونتيجة من نتائجها (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الاخرة حسنة وقنا عذاب النار) ولا يكون ذلك الا بأن يكسب كل امرء اعتقاده الصحيح الذى ذكرناه آنفاً بالله وملائكته وكتبه ورسله ونبيه الخاص ونظام أمته ثم يكسب اخلاقا حسنة ويلتذ بها في حياته الدنيا وكلما طال امده في الدنيا حسنت في عينه صناعة من علم وعمل وارشاد وعدل بين الناس فيقوى علمه وعمله و كل من افراد الامة يفرح بنظيره من سابقيه ومعاصريه فترى العالم يفرح بمن على شاكلته من اي بلد كانوا وعلى أى مذهب من مذاهب الفروع كانوا مع توجيه النفوس الى مبدع الكون فى أوقات معينة والمحافظة على الاجتماعات فى الصلوات والجمع والاعياد والحج ومواساة الفقراء بالاموال وهكذا مما اوصت عليه الشرائع وهذا حقيقة لا تتم الدنيا الا به فاذا ذهب الناس الى ربهم كانوا فارحين بنفوسهم ونفوس اشكالهم في جنة عدن فوق فرحهم في الدنيا بمراتب والى ذاك تشير شريعتنا المطهره ولذلك ترى المصلى يقرأ الفاتحة ويذكر الله بالرحمة العامة في خلقه لعموم الناس ويحمده على تربية جميع العالمين تربية مصحوبة بالرحمة

تارة والشدة التابعة للملك تارة اخري ثم يقول ها نحن جميعا نستعين بك اذ الامة عبارة عن اشخاص كلهم كفرد واحد وكل فرد فيها كعضو من الاعضاء فنحن نعبدك جميعاً اذ لا يقوم الواحد منا بالعبادة وحده لكثرة لوازم الوصول اليك والفرد الواحد لا يقوم بها كلها كما ان العضو الواحد من الجسد لا يعيش وحده ونحن مع هذه الكثرة البالغة لا يمكننا أيضاً (ويوم حنين اذا عجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت) وانما الذي يعيننا على ذلك انت وحدك فاياك نستعين فاهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم

هذا ملخص صورة الفاتحة من حيث المعنى اجمالاً فهي ترجع الى اجتماع القوم المؤمنين في زمن واحد ثم اذا نظرنا للتشهد وجدنا انه يزيد على ذلك فيحيي الله تعالى ويثني عليه كالنصف الاول من الفاتحة فيقول التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله وهذا نظير اول الفاتحة الى الرحمن الرحيم ثم يقول السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فبعد ان يذكر الله تعالى يشرع فى ذكر نبيه

ثم نفسه وجميع عباد الله الصالحين ممن مضى ومن هم فى زمانه ويأتى بعده فى اعلى السموات او اسفل الارضين ايربط قلبه بجميع المصلحين فى الارض ويتذكرهم فيقتدى باعمالهم فالمقصود من العبادات هذا التذكر والتفكر والرابطة بالجميع من كافة الطبقات ولهذا رمز الحكماء فى كتاب كليله ودمنه بالحمام الذى تعاهد على التخلص من الشبكة التى وقعن فيها ثم بعد ذلك يوحد الله بالشهادتين ويصلى على النبي وابراهيم وآله لانه هو الذي جاء بالتوحيد بعد دروسه فنظر فى ملكوت السموات والارض وكشف له عن جميع ذلك ونزه الاله وملخص هذا ان الصلاة جعلت تذكرة لشيئين ذكر الله تعالى واستحضاره ثم ذكر من اصلح في الارض من الانبياء ومن على شاكلتهم للاقتداء بهم ومن ظن انها مجرد عبارات تقال اوان القرآن لمجرد التعبد فاؤلئك قوم ليس لهم حظ من الدين والشريعة والعقل . ورد في رسالة الامام الشافعى رضي الله عنه مامعناه ان سائلا قال لم اخترت في التشهد التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين الى آخره

فقال رحمه الله هذه رواية ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال السائل اين انت من رواية عمر وهو يخطب على المنبر يقول قولوا التحيات لله الزاكيات الخ فقال رضي الله تعالى عنه ان قول عمر صار اجماعا اذلم ينكر عليه احد فاقرارهم عليه يعد اجماعا ولكنى فضلت رواية بن عباس لاسنادها للنبي مباشرة فجعلتها اولى وان كنت اعتمد رواية عمر فقال له السائل ان هنالك روايات اخرى في التشهد غير ما روى عن ابن عباس وعن عمر فماذا ترى فقال له رضي الله عنه منى صحت الرواية فاعمل بها لا فرق بين رواية ورواية ولا حديث وحديث مهما تعددت الطرق وتباينت الروايات فقال له السائل كيف يجوز ذلك ودين الله واحد وكيف تعدد الروايات ويصلى الناس بصلوات مختلفة اليس مانزل الله على النبي شيئا واحدا فقال الشافعى رضى الله عنه اعلم ان القصد فى التشهد انما هو ثناء وهو يؤدى بأى صيغة وليس القصد التعبد بتلاوته فلا غرو اذا ادّي بأى صيغة او كيفية واذا كان القرآن نزل على سبعة احرف واريد منه معناه فما بالك بثناء يراد منه التعبد وهل تذكر ماروى ان هشام بن حكيم قرأ سورة الفرقان فسمعه عمر فاخذ بتلابيبه واحضره

عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انه قرأ القرآن بغير ما انزل فامره النبي باطلاقه وقال اقرآ فقرأت أنا وهشام فقال صلى الله عليه وسلم بهذا وبهذا انزلت نزل القرآن على سبعة احرف فاقرأوا ما تيسرت

فتأمل كيف كان علماؤنا رضى الله عنهم لا يراعون الا المعانى فهذه الصلاة لم يقصد منها الا نزوع القلوب للخالق والاتحاد مع الخلق في مصالح الدنيا ونظام الدين بتهذيب الاخلاق والاعمال الصالحة وكمال النفوس الانسانية والعقول البشرية واى امة لم تفقه من الصلاة الا الفاظها ومن العبادات الى قشورها فقد ضلت ضلالاً بعيداً عن المدنية اذ تبقى معرفتها بربها نباتاً ضئيلاً لم يسق وائتناسها باخوانها ومساعدتها بقدر الضرورة وفيما عدا ذلك يكثر تحاسدهم وتضاربهم وتعديهم واختلافهم فتتمزق دولهم كل ممزق ويضمحلون كما اضمحل الاولون

﴿ الموضوع السادس — الامة تضارع العالم كله فى نظامه ﴾

ولما كانت الامة تضارع العالم كله في نظامه نرى المصلى يقف تارة على استقامة واخرى يركع كما هى خلقة نوع الحيوان

ثم يسجد كالنبات وهذا مقتضى القسمة العقلية اعتدال وتنكيس
وتوسط وهكذا الست جهات فان المصلين حول الكعبة وفي
أطراف المعمورة يصلون اليها فيستقبلون الجهات الاربع ويرفعون
رؤوسهم الى السماء ويسجدون واضعين رؤوسهم الى الارض
فكانهم فى صلواتهم يشيرون الى نظام العالم كله وان الامة
الواحدة يجب ان تكون كهذا النظام كله الذى هو كنفس
واحدة فالامة كالجسم الواحد وكالعالم كله من حيث النظام
ووضع كل شيء في رتبته ولم يكتف في الاشارة بالاتحاد بتلك
الاقوال والافعال الاشارية بل جعلت الصلاة جماعة اشارة الى
وجوب تضام القلوب في المدنيـة وذلك خمس مرات فى
اليوم والليلة لاهل المحلة الوحدة ثم فى خطبة يوم الجمعه لاهل
البلدة . وتأمل كيف لاحظ الشافعى رضي الله عنه الا تعدد
الجمعة فى المصر الواحد لانها فى الحقيقه سرها الاجتماع وقيام
رئيس المدينة خطيباً يذكرهم باحوالهم ونظامهم في دنياهم
واخرتهم بمقتضي الاحوال الحاضرة لا مجرد احوال محفوظة
من الدواوين ثم اجتماع المصر ومن حوله فى العيدين والاستسقاء
والخسوف والكسوف ثم اجتماع اهل الاسلام قاطبة في مكة

لمكرمة من استطاع منهم سبيلا مرة في العمر لتبادل الامور العامة (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض وان الله بكل شيء عليم) فجعل الله الكعبة محلا يقوم به الناس ويتذاكرون دينهم وسياساتهم العامة واعمال ملوكهم. هذا هو من اجل مقصود الشرع السماوى الذى جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام

فأذا تم ذلك لهم دخلوا بعد الموت فى الدرجات العلى ونالو حظًا بقدر ماتعاونوا وتماملوا وتحابوا (لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تحابوا) فانظر كيف رتب الايمان على الحب وذلك ان العقول لا يمكنها المعارف الحقيقية والقيام بالمدنية الحقة إلا إذا تحاب افرادها وتعاونوا فأذا لم يتعاونوا لم يطمئنوا في حياتهم فينقص ايمانهم طبعاً ومتى نقص الأيمان لم يدخلوا الجنة الا بعد جهد جهيد فالحب تبع لـنظام الناس فى ماديآتهم وصنائعهم والايمان مرتب عليه ويتبعه راحة الآخرة وهذاما قررناه سابقاً . فانظر كيف تطابقت الشرائع السماوية والاحوال الطبيعية والامور العقلية (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

ولذلك قال تعالى (أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله) وقال ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا الى قوله فبهداهم اقتده وقال والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم فانت ترى ان مدار أمر الآخرة على المرافقة والاتحاد فبها تنال الدرجات ولا يكون ذلك الا بالعمل فى الدنيا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عند وفاته (اللهم الرفيق الاعلى) وكان كثيراً ما يقول الحق باخوانى الصالحين وقال تعالى حكاية عن يوسف (توفنى مسلما والحقنى بالصالحين) وقال سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (وادخلنى برحمتك في عبادك الصالحين وهكذا مما هو شائع مستفيض مما يدل على ماقلنا فيما تقدم أن المدار على وجود الحب والرابطة بين الناس فبها تنال الدرجات ولعلك تقول لكل نبي أمة ومالنا ولصالحى الامم المتقدمة بل مالنا وللذين مضوا من قبلنا فى أمتنا إذ لا تعاون بيننا وبينهم قلنا اعلم ان الاجتماع هناك مع الاولين والآخرين ويحصل الفرح بالاشباه والنظائر من أى قوم كانوا وعلى مقدار كثرتهم تكون اللذة بهم فالعادل فى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تزيد

لذته بالعادل في أمة عيسى وموسى وابراهيم ونوح وان حجب عنه في الدار الدنيا .

ولما كانت لذة الانسان تكثر بكثرة اشباهه وامثاله من أهل الكمال وكلما تمادى الزمان زادت اللذة وعظمت جداً ورد طلب النبي صلى الله عليه وسلم التناكح والتناسل فقال تناكحوا تناسلوا فانى مباه بكم الامم يوم القيامة وكلما كانت أمة النبي أعظم كانت درجته عند الله اكبر ولذته تبع لدرجته. وإذا قارنا بين أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأمة ادريس التى انقرضت وهم المصريون الذين اخترعوا العجائب واظهروا الغرائب لم يمكننا ان نحكم الان وانما يمكن الحكم بعد انقراض الدنيا وبذلك يقارن بين أعمال الاسلام فى عمارة الارض واعمال المصريين الاقدمين ولكن ورد في القرآن فى ادريس ورفعناه مكاناً عليا و ورد فيه أنه رفع الى السماء الرابعة وورد في السنة ان النبي صلى الله عليه وسلم ارتقى الى السماء السابعة فلا بد ان تكون أمته أرقى من أمة المصريين السابقين لهذه الاشارة وبالجملة فأحوال الناس بعد الموت ويوم القيامة تبع لاحوالهم فى الدنيا (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) أولئك لهم نصيب مما كسبوا

والله سريع الحساب) وأما ماورد من ذم الدنيا وانها لهو ولعب وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد فالمراد منه صرف وجهتها الى المنفعة العمومية لاتركها بالكلية والا لحقها الدين قطعاً و معلوم أن الطبيعة البشرية الحرص على الشهوات فتحصيل الدنيا أمر جبلي في النفوس البشرية فنزلت هذه الآيات تزهيداً للناس فيها وتذكيراً بالاخرة ليصرفو الوجهة القلبية الى المنافع العمومية والدار الآخرة ولم يؤمروا بتركها والا كان تعطيلا للمنافع وهل ترك صلى الله عليه وسلم الحروب أيام الرسالة فقد غزا غزوات وبعث سرايات تعد بالعشرات وكان يحتاط في أمر الدين والدنيا جميعاً (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين)

﴿ الموضوع السابع — مزج الاسلام مصالح الدين بالدنيا ﴾

من اللطائف ان شريعتنا الاسلامية مزجت امور الدين بالدنيا مزجا عجيباً الاترى ان صفوف الصلاة هي بعينها صفوف الحروب فترى في كل امة من الامم نظاماً ودستوراً يقوم به كبار ضباط ويتبعهم فيه رجال العسكرية كالامام في الصلاة

فالمصلون هم المحاربون وكما وجب عليهم الصلاة صفوفاً وجبت عليهم المدافعة والمحاربة صفوفاً منتظمين فتكون صفوف الصلاة كالتمهيد للاصطفاف فى الجهاد ولم يكن القصد من الامم ان تقلد الامام فى حركاته وسكناته وقت الصلاة فقط وانما تقلد في حركاته الخارجية في الحروب وهذا كان فعل صاحب الوحى عليه الصلاة والسلام وخلفائه ومن على شاكلتهم ولولا هذا ما امكن الثلاثة الذين تعاهدوا على قتل سيدنا على ومعاوية وعمرو ان يصلوا لهم فى يوم واحد فقتل على فى المسجد ونجا عمرو لاتفاق مرضه فى ذلك اليوم وانابه خارجة عنه وصادفت الضربة ظهر معاوية بالشام فى الصلاة فعطل نسله فكان الخوارج عالمين بان هؤلاء يصلون بالناس وهكذا كانوا هم الذين يخطبون وهذه سيرة صاحب الوحى وخلفائه ومن على شاكلتهم فهم الخطباء علما منهم ان القصد من الصلاة والخطبة والحج وغيرها سياسة الدين والدنيا جميعا وان بينهما تلازما في هذا الشرع وياعجبا اننا ماسمعنا ان شرعا كهذا جاء باتحاد الدين والدنيا وسيرهما فى خطة واحدة اعجزت كل ذكي عن ايجاد حد فاصل بينهما وهذا هو الحق . وكيف يميز بين المـاء والطين في جسم النبات أم

كيف تستغني الروح عن الجسد والمعنى عن الكلم فها هنا امتزاج عجيب فانظر كيف خلف من بعدهم خلف فلم يعرفوا ماالمقصود من ذلك فتركت الخطب في ايدى الجاهلين والصلوات عند الضعاف فاصبحت لاترى الا اشباحا خالية من روح الفضيلة وما القصد من هذه العبادات

ومماتنشق له المرائر انك ترى المسلمين اثناء تأليف كتابي هذا بينهم الشقاق والنفارفها هي واداي التي هي مملكة وراءالصحراء الكبرى فيها نحو ستة ملايين من الانفس فيهم مائتا الف محارب وكلهم عند الحرب يقومون على قدم وساق وكذا جميع البلاد ولكن علمنا ان دولة فرانسا تريد الاغارة عليها بطريق القاء الشقاق والنفور بين كبار القبائل وهكذا دولة مراكش نسمع ان فيها قلاقل كثيرة ومثلها في ذلك دولة افغانستان فانها مع ماحصل لها من التقدم فى زمن الملك عبد الرحمن وابنه حبيب الله خان فان اهلها لايزالون ذوى شقاق وهكذا مصر واهلها وجميع اقطار الاسلام على شاكلة واحدة في الخلاف والشقاق والنفور وما ذلك كله الا لضعف التربية وترك ما اريدت به تلك العبادات والاعمال

(نتيجة) قد ظهر لك ارتباط الدنيا بالدين والامة بعضها ببعض كانها العالم كله أو النفس الواحدة وانا مرتبطون ببعضنا دنياً وآخرة كالنفس الواحدة وبهذا اتضح معنى قوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ان الله سميع بصير) أما كون الخلق كنفس واحدة في الدنيا فقد اتضح مما ذكرناه في أهل المدينة الفاضلة وانهم كالجسد الواحد واما كون بعثنا كنفس واحدة فقد علم من الكلام في هذا الموضوع

﴿ الموضوع الثامن ﴾

﴿ الترقي سنة العالم شرحها القرآن قبل داوين باثنى عشر قرنا ﴾

زيادة شرح وايضاح

ولنزد الكلام على هذه الآية ايضاحا معقولا وبيانا صادراً عن استطلاع هذه الكائنات فنقول

الامة تشبه النفس الواحدة من جهات كثيرة زيادة على ماتقدم . فكما أن الانسان الواحد يأخذ فى صغره لنفسه ما ينفعه فى كبره فكذلك الدولة تبنى أوائلها ما ينتفع به أواخرها

نبنى كما كانت اوائلنا تبنى ونفعل فوق ما فعلوا

وكما ان الشخص الواحد يترقي شيئاً فشيئاً ثم يستوى شابا ثم شيخاً فهكذا الدولة تنمو فتشب وتهرم فتموت وكأن الدول كلها نفس واحدة تراهم يتركون الآثار ويؤلفون الكتب ويأتى الاخرون بعد اندراس من قبلهم يترجمون كتبهم ويبحثون على آثارهم فيا ليت شعرى ما لهذه الامم فالاولون حريصون جداً على تعليم الاخرين والاخرون أشد حرصاً على التنقيب على آثار الاولين تلك سنة الكون ونواميس الخليقة وها هنا سؤال يهش له المغرمون بالملح واللطائف وذلك أننا نرى ان الدول تندرس آثارها وتمحي علومها من لوح الوجود فهلا ابقي مدير هذا لكون العلوم على وتيرة واحدة فتأخذ الامة ما اختارته التى قبلها وتبنى عليه فيكون الترقى دائما بلا رجوع وما لنا نرى الناس الان يجوبون الاقطار شرقا وغربا للبحث عن آثار الاولين ولا ينالون مما عرفه المصريون مثلا الا قليلاً من كثير ولا يفهمون الرموز المكتوبة الا بعد جهد جهيد كالكتابة الهيروغليفية وهى كتابة قدماء المصريين ففى النظر الظاهر ان هذا يخالف الحكمة نقول:

اعلم أنه عزّ وجلّ ما أرسل الانبياء ولا علم العلماء ولا خلق الخلق الا للترقى والكمال ولو ابقى علم دولة وأخذته من

بعدها سهلا لطيفاً لوقفت حركة الكون وانحطت مرة واحدة وذلك ان الانسان لا يترقي في عمل الا بباعث وشوق وتنبيه وارادة واختيار ينال به السعادة فلا سعادة فى الدنيا الا بواسطة الشوق ومعنى الشوق ان يعرف الانسان شيئاً غاب عنه بعضه وحضر بعضه فيدل ما شوهد على ماغاب فيدفع النفس الى الغائب ماكان حاضراً مشاهداً فمن رأى عين الجميل او يده او وجهه احب انه ينظر ما وراء ذلك وهكذا اذا رآه ثم غاب عنه فانه يبقى في المخيلة ولكن مشاهدته تكون ناقصة فيشتاق الى اتمام الرؤية بحضوره ومشاهدته . فهكذا الامة لا يحركها الى طلب المعالى والشرف الا ان تكون فى ضعة وشاقها ما رأت من المعالى والكمال عندغيرها فتبحث لتعرف شيئاً من معارفهم ثم تبنى على انقاضه ما يوافق مشربها وما يناسب حالتها التى هى عليها وماهذه الاعاجيب في الدول وتوارثها الا كمثل الاستعارة في علم البيان والكناية فانه لا يجمل الكلام بالتصريح بالمعانى دفعة واحدة والاتيان به على وجه الحقيقة فانه لا يجد في النفوس ارتياحا ولا هشاشة فاما الكناية والتورية فان اللفظ يؤتى به لمعنى ومنه يتوصل الى معنى آخر فكانه افهم للمقصود

برمز خفي وطريق يدعو الى البحث والتنقيب والتشويق وهذا هو السر في المجازات والكنايات والاستعارات المصرحة والمكنية والتشبيهات والاستعارات التمثيلية والمجازات المركبة والتعاريض والتلويحات وغيرها فكل لغة امة مضت اتبعتها علومها وبقيت لها آثار تدل على بعض ما تعلم وتسلك الامم المتأخرة سبيلا غير الذي سلكته تلك فتوافقها بعض الموافقة وتباينها في أمور جديدة وربما زادت عليها في أمر ونقصت عنها في آخر وكم من علوم في قديم الزمان لم يبق منها الان على سطح الكرة الارضية خبر ورب علوم حدثت بعد ان لم تكن وكل هذا ليظهر قوله تعالى (كل يوم هو في شأن) فاما اذا بقيت العلوم بنفسها تماما كان النظام كله واحداً والفكر واحداً واتكل الاخرون على الاولين في نظاماتهم واعمالهم وهذا هو الهاوية والسقوط والوقوف وجلَّ مدبر هذا الكون عن الوقوف على نظام واحد انما هي شؤون تابعة لشوق في النفوس شاقها باعث خارجي الى مضاهاة من قبلها أو من ساكنها (ان ربكم لرءوف رحيم) ولقد علمت ان بين الامم والكلام مناسبة عجيبة وان احوال الامم أشبه شيء بعلم البلاغة فها هنا بلاغة عملية وفي

القول بلاغة كلامية وهذا هو المشابهة بين العناصر و الحروف والقصد تشويق النفوس الى الارتقاء

فمن هذا علمت أن الامم كلها كنفس واحدة اتصل أولها باخرها وبحث متأخروها عن أحوال متقدميها وانها كلها تشبه الانسان الواحد يأخذ من صغره لكبره ومن دنياه لاخرته ومن حياته لموته ومن صحته لمرضه ومن غناه لفقره كما ورد في الحديث

ولعمرى أن النظرة لهذه التدبيرات يشوق نفوسنا الى الى التطلع الى محاسن الكائنات التى أمامنا فما أجمل العلم وما ألذ الحكمة فاينما تولوا فثم حكم بديعة ان نظرنا الارتباط الامم وفنائها ادهشنا حكمها وان عطفنا على النظر للشخص الواحد هالنا حكمه وعجائبه ثم ننظر فنرى الامة تأخذ فى الترقى من أطراف المعمورة الى من هم في المناطق المعتدلة والغربية منها كاهل اوروبا وكثير من الشرقيين فكانها أخذت في الترقى من أطراف المعمورة الى الواسط

والامم درجات بعضها فوق بعض فمنها ذات المدنية الفاضلة وقد تقدم شرحها باحلى بيان اعتقاداً وعملا ولنذكر لك الان الامم النازلة عن الطبقة العليا مدنية واعتقادا فنقول .

﴿ الموضوع التاسع ﴾

(اقسام اهل المدنية الجاهلية واعمالهم)

اعلم أن ترتيب درجات الامم كترتيب درجات الحيوان سواء ولقد ذكرنا ترتيب الحيوان في كتابنا هذا وأنه درجات بعضها فوق بعض ولنأت بها الان إجمالا لتبتهج بمعرفة انتساقهما في سلسلة واحدة حتى كان العالم كله نظام واحد وتفهم مايرى في خلق الرحمن من تفاوت ونشرح الامم واحدة بعد الاخرى الى ان نصل الى المدنية الفاضلة فنقول .

انت تعلم ان أدنى الكائنات رتبة العناصر البسيطة فالنبات الذي أخر سلسلة منه وهو النخل متصل بأول سلسلة الحيوان وادناه ماله حاسة واحدة وهو اللمس كالديدان والعلق مما يخلق في الخل وانواع السوائل والنباتات والثلج وبطون الحيوانات الكبيرة فكل هذه حيوانات لو أخبرت بوجود حواس أخرى لانكرت وجودها فلو قيل للصدف في البحار انت عندك حاسة اللمس ولكن هناك حيوانات عندها حاسة وهي الذوق كالديدان التي تسبح على الاعشاب والاشجار لانكرت وجودها وقالت كيف يمكن ان أعلم بحاسة غير هذه وهكذا الحيوانات التي

عندها حاسة الذوق اذا قيل لها ان هناك ما هو أرق منك
لحيوانات في المحال المظلمة تشم ما بعد منها وبعضها قد وجد
لها عدو في محالها فاعطيت حاسة السمع ولم يخلق لها حاسة
البصر لعدم لزومها لانكرت ذلك وقالت علم ما بعد عنى محال
ولو قيل لجميع ما تقدم ان هنا حيوانا له حاسة تسمى البصر
يرى البعيد عنه على ملايين من الفراسخ لانكرت تلك الحيوان
ووجوده اذ لا تعلم طبقة من الطبقات الا ما علمها الله وتنكر
ماوراء ذلك وهكذا يترقى الحيوان من الحواس الخمس الى ان
بعضه قد يحمى اولاده كالغربان ويزيد عليه غيره فينفع الانسان
بعمله ويقبل منه التأديب بدرجات بعضها فوق بعض كالبهائم
واذكاها الخيل ثم يترقى عن ذلك الى ان يقلد الانسان بدرجات
بعضها فوق بعض حتي يصل الى درجة القرد والببغاء والفيل
فكل هذه تقلد الانسان في أعماله او تقبل عنه قبولا سريعاً ويلي
هذه الانسان. وكما ان كل درجة من درجات الحيوان السابقة
اندرجت درجاتها السابقة فيها ولم تدرك ما بعدها فالحيوان
الذي له السمع قد اعطى الحواس التي قبله وهكذا ماله البصر قد
اعطى السمع وما قبله وهكذا المقلد كالقرد قد اعطى كل مواهب

الحيوان قبله فهكذا الانسان اعطى مواهب الحيوان وكل
درجة من درجاته فى المدنية اعطيت حظ ما قبلها وزادت عليه
وكما ان الخمسة فيها جميع ما قبلها من الواحد والاثنين وهكذا
والسبعة فيها الستة والخمسة والثمانية فيها السبعة وما اندرج فيها
فهكذا كل حيوان فى درجة أخذ موهبة ما تحته وزاد عليها
والانسان أخذ درجات ما قبله من الحيوان وكل درجة من
درجات المدن في كل شكل ارقي فانها اعطيت حظ ماقبلها
وجهلت ما بعدها كدرجات الطفل والشاب الكهل والشيخ

فلو أعطى الطفل البساتين الغناء والتصدر في المجالس لم
يحفل بذلك وهكذا الشاب اذا اعطي بدل الشهوات الذهب
والعلوم والمعارف لم يحفل بها فهكذا درجات الامة كل درجة
اخذت حظ ما قبلها وجهلت حظوظ ما بعدها وكانها تنطق
بلسان حالها (لا علم لنا الا ما علمتنا)

واذا فهمت هذا فاعلم ان أول درجات المدن الجاهلة قوم
رأوا ان المدار فى الحياة الدنيا على مابه بقاء الاشخاص وهؤلاء
تسمى مدنيتهم (الضرورية) لانهم اقتصروا على الضرورى من
الحياة الدنيا فتراهم من الغداة الى العشى يجدون ليأكلوا فاذا سئلوا

لم تتعبون فيقولون لنأكل فيقال ولم تأكلون فيقولون لنعيش فيقال ولم تعيشون فيعجزون وينقطع جوابهم وهؤلاء المشار اليهم بقوله تعالى ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى ومايهلكنا الا الدهر وترى فى كل أمة اقواما يشبهون هؤلاء فى الفكر.

وقوم آخرون رأوا ان المدار على ما يلذ الانفس من اللذائذ الحسية والشهوانية ومدنيتهم (تسمى الحسية أو الخسة) واليه الاشارة (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون).

وآخرون قالوا ان المدار على اليسار والغنى فاما اللذات فانها تكلفنا مالا طاقة لنا به وتسمى (اليسار) واليه الاشارة بقوله تعالى (وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد).

وآخرون ارتقوا عمن تقدم فقالوا ليس المدار على المال ولا اللذات والشهوات ولكن المدار على الكرامة فيعظم أحدنا عند اخوانه وعند غيرهم . وتسمى (مدينة الكرامة) واليه الاشارة بقوله تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فساداً)

وجاء آخرون فقالوا ان المدار في الحياة على جمع هذه الخصال كلها ومدينتهم تسمى (الجماعية) فتنال اللذات والغنى والكرامة

ونعيش متمتعين الى ان نموت وهؤلاء ومن تقدمهم لم يعرفوا عن الاله ولا الرسل شيئاً .

وما اشبه هذه المدن الخمس بسلسلة الحيوانات في ترتيب الحواس فنها ذات الحاسة وذات الحاستين وذات الثلاثة وهكذا الى الخمس التي جمعت فوائد الجميع وعلمت علمهم

﴿ الموضوع العاشر — آراء اهل المدن الجاهلة ﴾

قد علمت اقسام اهل المدن الجاهلة وكل قسم يكون طوائف واقساما مختلفة متشعبة منتشرة متكاثرة وانهن في درجاتهن اشبه بدرجات الحيوان فالضرورية كالديدان التي خلقت في المائعات واجواف الحيوانات الكبيرة فهي فرق شتى ومدنية الخسة ذات الشهوات كالحيوانات التي اعطيت قوة الذوق واللذة وهي تتشعب شعبا كثيرة وهكذا مدنية اليسار كذوات الشم ومدنية الكرامة كذات السمع اذ به تعرف اخبار العدو فتحترس منه والمدينة الجماعية كذات الحواس الخمس من النمل والحشرات فهي لم تترق بعد الى درجة الحيوانات العليا التي يعلمها الانسان او تقلده . فتأمل كيف تشابهت الدرجات وتناسقت

المراتب بعضها فوق بعض بنسب محفوظة ودرجات متناسقة ملتئمة ثم ان هذه اللذائذ والكرامات والمعايش طلبوها في الحياة بحسب ما غاب على عقولهم فقال قوم .

اننا نرى ان هذا الوجود لا نظام فيه ولا ترتيب فالحيوانات يقاتل بعضها بعضا ويغالب بعضها بعضا . يأكل الكبير الصغير والقوى الضعيف فكل طائفة تأكل غيرها وتغالبها بل نرى بعض الحيوان يقتل الآخر لمجرد المشاركة في الجوهر وان لم يكن له حظ في قتله فهذا دليل لنا على ان طبيعة كل موجود حب الانفراد بالوجود والبقاء وان يمحو ما عداه واذن قالوا وجب ان نتبع هذه الخطة فنقاتل اعداءنا من نوع الانسان ونغالبهم ونسبيهم لحظ نفوسنا لا لصلاحهم ولا لترقيتهم فهؤلاء جعلوا المدار في الحياة ونيلهم اللذائذ الشهوانية على الغلبة والحروب والقهر مقلدين في ذلك طبيعة الحيوان بحسب ما ظهر لهم وقالوا انا كلما قهرنا امة واخذنا قبيلة استعناها على قهر غيرها لنحصل لذاتنا في هذه الحياة الدنيا اذ لا نرى سوى هذا . فهذه طريقة المغالبة . ثم انهم يستعملون مع الغلبة رابطة الجنسية فيستعينون بابناء جنسهم واولاد ابيهم الاكبر على مغالبة من سواهم وتارة

يعتبرون الوطن الذى يسكنونه واشتراكهم في الهواء والغذاء والجو والطقس (وتسمي الوطنية) وتارة يرجعون في الجامعة الى رابطة اللغة المعبرة عن ضمائرهم الموجبة للائتناس والمستلزمة قرب الاتحاد فى الاخلاق والشيم والعوائد وهى وحدة اللغة وتارة بالمصاهرة كما تصنع الملوك الذين يتحابون في هذه الازمنة فيتزوجون بنات بعضهم وهذه تسمى (وحدة المصاهرة) وتارة بالمعاهدة والمحالفة مع غيرهم وهى (وحدة التناصر) وتارة يتناصرون بكونهم كانوا تبع ملك جمعهم على عدوهم فتلك الجامعة يستعملونها بعد ذلك فيما يحبون فالوحدات التى تستعملها المدن الجاهلة سبعة وهى الاستعباد والنسب والمصاهرة والوطن واللغة والمحالفة والتناصر واتباع جامع لهم على الوحدة

ثم هناك امور خاصة بطوائف واناس ليست عامة الامم وذلك كالاشتراك فى الذلة والقهر والصناعة كالنجارين والحدادين وعملة الفحم فكل هؤلاء لهم جمعيات لها عمل عظيم وهكذا الاشتراك فى لذة او جناية كالزناة والسارقين وكالاجتماع فى محلات التلاقي فى سفر وكالوجود فى امكنة لا امان فيها. فاسباب الائتلاف بين اهل المدن الجاهلة اثنا عشر منها سبعة عامة وخمسة

خاصة . فها انت علمت اقسامهم الخمسة وآراءهم واجتماعهم

﴿ الموضوع الحادى عشر فى انماء الثروة ﴾

فاذا حصلوا الغنى والثروة والمال اخذوا ينمونه بطرق شتى فمنهم من ينميه بطريق المغالبة لا غير ومنهم من ينميه بطريق المبايعة وانواع المبادلات وبعضهم يجعل المغالبة على الذكور والتجارة على النساء وآخرون يجعلون ضعفاءهم من الفريقين للمبادلات واقوياءهم للمغالبة وقوم قالوا المبادلة مع بعضنا والمغالبة لغيرنا وآخرون قالوا نغالب الضعفاء ونبادل الاقوياء وهكذا بجميع الصور الممكنة وجدت فيهم فى غابر الازمان .

﴿ الموضوع الثانى عشر فى الخشوع ﴾

وقالوا ان الخشوع شيء لا معنى له فانا نرى ان اناساً جاءوا مدعين ان عندهم قوة الهية مع انه لا فرق بيننا وبينهم وهؤلاء لما عجزوا عن المغالبة واخذ اللذات بالقوة رجعوا الى الحيلة وكما ان اصطياد الحيوان اما ان يكون بالغلبة والقهر او الحيلة بالالات فهكذا هؤلاء الخاشعون يظهرون ان عندهم قوة قدسية وامراً عجيباً فيظن الناس فيهم الخير ويعطونهم الاموال لجهلهم وتغطية

أولئك على عقولهم وهم مغرورون في ذلك مخدعون جاهلون.

ثم ان هؤلاء الخاشعين ان زهدوا فى هذه اللذات التى فى ايديهم فهم مغرورون جاهلون والى متى يتركون اللذات وهم لاحظ لهم الا فى هذه الحياة (ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيي وما يهلكنا الا الدهر) ثم تراهم يقولون انهم مغرورون بمدح المادحين لهم واطرائهم عليهم وماعلموا ان قوما يمدحونهم للطمع فيما فى ايديهم فيزهدون فى الاموال ويعطونها لمن حولهم فكلما ازدادوا مدحاً لهم ازدادوا زهداً واعطاء وتفضيا عن اللذات والشهوات وان آخرين يمدحونهم خوفاً منهم وآخرين يغرونهم استهزاء اوسخرية وآخرين يمدحونهم مغرورين كغرورهم ظانين ان هناك لذائذ احسن من هذه فتركوا الادنى للاعلى

وبناء عليه فلا معنى للخشوع الا الاحتيال والدهاء والمكر والخداع والنفاق . وكل العالم يسعى للذائذ المتقدمة ويحتالون اما بالغلبة بالقوة او الغلبة بالحيلة فغلبة القوة بجميع الطرق والوحدات السابقة والحيلة هى بالخشوع واعتقاد قوة قاهرة ودار بعد هذه يكون فيها النعيم

﴿ الموضوع الثالث عشر ﴾

(اعتقادهم فى العدل)

واما العدل فانه امر فرى لا معنى له اذ الحيوان كله والانسان لايسعي احد الا لحياته وحفظ نفسه واما ماعداه فانه يسعى لاستخدامه لمصالح نفسه وبقائه في الحياة الدنيا. الا ترى النبات كيف تسعى عروقه لاجتذاب المواد الغذائية من الارض وكل حيوان من الجوارح والوحوش والسباع تقتنص الحيوان الضعيف لحظ انفسها وشهواتها فاين العدل . وهكذا الانسان كل من قدر على غيره من بنى جنسه اهلكه واذله واخذ مافي يده وربما قتله واعدمه لمجرد مشاركته له فى الحياة حسداً واستئثارا بالحياة والبقاء . واما العدل فانما هو امر اضطرارى جاء لضرورة التوازن فى الحياة بين العشائر والقبائل والبطون فكل قبيلتين تساوت قوتهما اضطرتا الى المجاملة فى المعاملة والتبادل بالقسطاس المستقيم وتعاهدتا على المعاملة بالحسنى فاذا ضعفت احداهما نقضت العهود والمواثيق ووجب قهرهم واذلالهم واخذ ما فى يدهم جبراً وهذا بعينه ما تفعله دول اوروبا الآن مع الشرقيين كدولتى تركيا والصين بخلاف معاملة بعضهم لبعض فهى خلاف

ذلك فاذا دامت امتان على تلك الحال مـدة جاء من بعدهم فظنوا هذا امراً طبيعيا فتعاملوا كما كان الذين من قبلهم وهذا لاجرم جهل بالسبب الاصلى في ذلك وطبيعة العمران . فربما قويت امة فالواجب عليها ان تأخذهم بالغلبة اذ الانسان لا يلزمه ان يعامل اهله ولا اهل بلده بالحسنى الالاضطراره لهم ولولا الاضطرار لوجب الانفراد بالبقاء فما بالك بمن هم ابعد عنه جنساً ووطناً ولغة وجامعة وتناصراً وتعاهداً فهم الاولى بالغلبة والاخذ بالقهر والقوة والخداع والختل ثم القتل والاهلاك او الابادة من الوجود فملخص ارائهم فى العدل انه قهر او لا غرور آخراً

﴿ الموضوع الرابع عشر ﴾

(المدن ذات الروح او الجسد والروح)

(ثم الضالة والفاسقة)

هذه هى احسن آراء فلاسفة المدن الجاهـلة الذين هم اشبه بالهوام فى الارض والحشرات الصغيرة التى لم ترتق الى فهم الانسان ومعرفة طباعه ولم تعلم كيف تتعلم منه ولم تدر ما

مقداره فلم تصل لدرجة الحيوانات التى تبيض فانها تفهم وتعلم الانسان واوامره لها فضلا عن الحيوانات التى تقلده كالقرد

وبالجملة فالحيوان ثلاثة اقسام قسم له الحواس الخمس او بعضها ولم يفقه عن الانسان شيئاً قط وهذه هي الهوام والحشرات ونظيرها فى الانسان المدن التى ذكرنا اقسامها وآراءها واعمالها

القسم الثانى الحيوانات التى تفهم عن الانسان وتقبل بعض تعليمه وتخضع لاشاراته وهى ذوات البيض وكثير من الحيوانات التى تلد كالجواميس والحمير وغيرها

القسم الثالث حيوانات تقلد الانسان في اعماله ونظيرها فى الانسان المدينة الفاضلة فانها قلدت الخالق فى ملكه وفى صنعه فى جسم الانسان وهى المترشحة للترقى الى عالم ارقى من عالمنا هذا

واذا تم الكلام على القسمين الاول والاخير فلنذكر القسم الثانى فنقول : قد ترقى عن الطبقة السابقة وهم اصحاب اللذائذ المذكورة قوم فنظروا في الكون وقالوا .

ان العدل بين الناس والمسالمة هما الامر الطبيعى فاما المغالبة والمضاربة فهما خارجان عن سنن الطبيعة الا ترى ان الامة اذا

اعتدت على الاخرى التزمت الاخرى بالمدافعة قهراً ولو تركوا وشأنهم لما حاربوا ولا قاوموا فالقتال والضرب في نوع الانسان امر غير طبيعي والمسالمة هي الطبيعية قالوا ان الواجب بين نوع الانسان هي المسالمة اما الحيوانات الاخرى فتؤخذ قسرا عنها لانتفاع الانسان وهكذا كل نوع من انواع الحيوان لا يأكل ابناء جنسه ويقاتل ماعداه والحيوان يأكل النبات الذي هو نوع اخر وهذه هي طبيعة الكون هذا سيرهم في الحياة الدنيا فمسالمتهم طبيعية ومقاتلتهم انما هي لامر خارجي ، اما اعتقادهم في الله واليوم الاخر فهم على فرق شتى وامم مختلفة واراء متفاوتة

وترجع احوالهم الي ستة وتحت كل واحد شعوب وقبائل ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين

الفرقة الاولى قالوا ان الانسان خلق في الدنيا وهي دار باطلة ووهم زائل وما الحياة الحقيقية الا الحياة التي بعد هذه فانه يستحيل عقلا ان تكون نهاية هذا العالم ما نراه من هذه الدار التي كثرت شرورها وامتلأت بالمفاسد كل لذاتها آلام ومصائب وجل مدبر هذا الكون ان تكون هذه الدار هي

الحقيقية بل هى دار يجب الخروج منهـا بالموت وهؤلاء هم المنتحرون بانفسهم ومنهم كثير باوروبا ، والفرقة الثانية قالوا ان هذه الحياة حقيقية ودار حق ولكنها تشوشت بما عاق النفوس عن الكمال وما بنوا آدم فيها الا كسفن تمخر البحار فأتتها الرياح من كل فج عميق واحاطت بها الامواج من كل جانب واتت لها كواسر البحر من الاسماك الكبار والتماسيح فاصبحت تتهددها عاديات الاسماك وامواج البحر وقواصف الرياح فلم يتم ماقصد بها ولم ينل منها الوطر فهكذا الانسان إنتابته حوادث الدهر وقواطع الشهوات واهوال الحياة ومفزعات الخطر المحدق والغموم والهموم حتي جاء امر الله وغركم بالله الغرور فهذه الحياة لا ثمرة فيها ويجب التخلص منها

الفرقة الثالثة قالوا ان الانسان هو الروح وبها حياته وما الجسم الا عارض عاقها عن الاعمال لما شاهدوا ان المتجردين بالرياضيات يصلون الى نعيم لا يحس به سواهم كما هو مذكور عن مدينتين ببلاد الهند غزاهما الاسكندر كما ذكر الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل وهو امر مستفيض شائع فوجب التخلص من هذا الجسم فترجع الروح الى عالمها وتخلص من آلامها

الفرقة الرابعة قالوا ان الانسان فى هذه الدنيا حق وهو مركب من الجسم والروح معا ولا يصح اهلاكه اذ لا تكمل الا بالجسم وانما العائق له عن الكمال الشهوات المحرقات وآلامها الموبقة وغوائلها العائقه عن العلوم والمعارف والحكمة فوجب اذاً قطع الشهوة والغضب اما الموت الحقيق فمخالف لحكمة وجود الجسم اذ به كمال النفس وترقيتها الى العالم الاعلى وليس يعوقها عن الكمال الا شهوتا الفرج والبطن فاذن يجب قطع دابرها بالصبر عنهما والاستعاضة عنهما باللذات الروحانية كما هو شائع مستفيض عن قدماء اليونان وعلماء الهند من البوذيين والبراهمة وخلفاء فيثاغورث وعلى هذه السنة كثير من المتصوفين الذين ساروا على طريقة هؤلاء ويظنون انها طرق الاسلام

الفرقة الخامسة يرون ان الحياة حق وان الانسان مركب من امرين متضادين وهما الروح والجسم كما قال الذين من قبلهم ولا بد من ازالة هذا التضاد باذهاب الرعونات من الجسم والنفس مع بقاء الشهوتين في البدن وهؤلاء ومن قبلهم يقولون ان فى العالم الهين اله الخير واله الشر فللاول الروح وللثانى الجسم فوجب مغالبة الثاني لئلا يغلب الاول وذلك يكون باضعاف

شهواته اما بالاماتة كما في القول الاول او باذهاب النواتج عنها
كما في القول الثاني واصحاب القولين اتفقوا على هذه الجملة « مت
بالاراده تحي بالطبيعه » يعنون امت الشهوة والغضب يحي
عقلك ومعارفك واسندوا هذا التضاد لفاعلين كما ذكرناه انفا
وبعضهم ارجعه الى تضاد المصنوع نفسه وطبيعته لا الفاعلين
وهذا هو الشائع على السنة المتصوفة اليوم مع قطع النظر عما
ترتب عليه وهو وجود فاعلين

الفرقة السادسة انه لا حقيقه في الكون البتة وكل ما
شاهدناه يجوز غيره فانسان اليوم قد يمكن ان يظهر بشكل اخر
فلا يمكن تحديد الانواع والاجناس وهناك ينتفي كل مايسمونه
محالا فلا يمكن انكار شيء اذ يجوز ان هذا المنكر سيكون في
وقت ما فهذه ستة اقوال اصول كلها مقدمات لنظام الامة الذى
قدمناه في اراء اهل المدينة الفاضلة وانه يجب ان يكونوا كنفس
واحدة ذات اعضاء متفاوتة وبهذا يدخلون دار السلام كما قدمناه

ويلحق بالمدن المنحرفة باقسامها الستة امتان المدينة الفاسقه
والمدينة الضالة فاما الفاسقة فهم الذين قال الله فيهم «ولا تكونوا
كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم

وكثير منهم فاسقون » وهؤلاء هم الذين طال عليهم امد النبوة ولم يظهر فيهم عقلاء وحكماء ففسق القوم فيها فحق عليها العقاب فدمرناها تدميرا فأول علماؤهم وحرف وعاظهم واخلوا وحرموا بالتفريع والجدال وكلما عرفوا شيئا ظنوا أنه اصل يبنون عليه وتركوا أصل الدين فعتوا عن امر ربهم

واما الضالة فهي التي ارسل لها رجل اوهم انه يوحى اليه كالمهدى السودانى فقد غير وبدل واحل وحرم بادعاء ان الخضر يعلمه فهذه هى الضالة وهى وماقبلها ملحقتان بالمنحرفة فتلخص من هذا كله ان الامم ثلاث طبقات كطبقات الحيوانات بعضها فوق بعض

طبقة جاهلة وهى خمسة اقسام ولهم اراء وافهام تناسب معلوماتهم وهم فى مقابلة الحيوانات ذوات الحاسة الواحدة والحاستين وهكذا الى الخمس الحواس من طبقة الهوام وبعض الحشرات اللاتى ليس لهن معرفة الا بالمعايش فاما تدبير البيض واطعام الافراخ والحمل وارضاع الاولاد فليس لهن فيها من سبيل وهؤلاء هم المغضوب عليهم

وطبقة منحرفة وهي وملحقاتها ٨ اقسام نظير الحيوانات

التي تبيض وتحضن افراخها وتلد وترضع وتفهم عن الانسان بعض ما يلقى اليها من الاوامر بالاصوات الساذجة وهؤلاء هم الضالون لانهم عرفوا شيئا من امر الخالق والاخرة والانسان ولكنهم تحيروا واضطربوا اضطرابا شديدا

الطبقة الثالثة هم المنعم عليهم وهم اهل المدنية الفاضلة وهم كالطبقة العليا من الحيوانات التى تقلد الانسان فى اعماله فمنها ما حسن صوته ومنها ما حسن لونه كالطاووس ومنها ما ينطق مقلدا له كالببغاء ومنها ما يفهم عنه بذكائه كالفيل ومنها ماله ادب حسن وذوق لطيف كالخيل اذ كثيرا ما تنجي صاحبها من عدوه بالعدو والفرار وتقيه من الاخطار ولا تهز ذنبها اذا اصابها رشاش بولها لئلا يصيبه فينجسه وربما تحزن عليه اذا مات فتموت كما وقع كثيرا او تمرض لمرضه كل هذا مجرب مشاهد ومنها ما يقلده فى حركاته وسكناته وهو القرد فكل هذه الحيوانات طبقة عليا وقد اعطيت حظ جميع ما تحتها وارتقت عليها بتقليد ما هو اعلى وهو الانسان فهكذا اهل المدنية الفاضلة نالوا الحظوظ التى وقفت عليها الامم التى انحطت عنهم ولكنهم لاحظوا التوسط والاعتدال وارتقوا بها الى تقليد نظام مدبر الكون فى

اعمالهم واقوالهم فقلدوه في نظام مـدنيتهم وجعلوها على هيئة الجسم الانسانى أو هيئة العالم الالهى كما قلدت تلك الحيوانات الراقية الانسان في حركاته وسكناته وصوته وجماله وان كانت نسبة تلك الحيوانات الى الانسان اقـرب من نسبة الانسان المرتقي الى مدبر الكون

اذا فهمت هذه المراتب الثلاث فهمت اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضـالين

﴿ الباب التاسع ﴾

(امة الاسلام ونظامها وما يجب على اهلها ان يتخدوه)

في هـذه الايام

ذكرنا نظام الامم الضالة والفاسقة والجاهله والمدن الفاضله بوجه عام مع ارائهم واخلاقهم ونظامهم وقارنا بينها وبين هذا الكون العظيم فلنشرع الآن في الـكلام على الامة الاسلامية بوجه خاص في هذه الازمان الاخيره اذ هي التى تهمنا فقد وجب على من اوتى علما ان ينشره بين هذه الامة التى اصبحت ولا نصير لها من العالم اجمع فان لم يقم عقلاؤها وينشروا أفكارهم

بين الملاء فهم المسئولون وحدهم يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتي الله بقلب سليم من الكتمان وكل ما يشين بالانسانية ولنطبق احوالها على نواميس الشريعة الاسلامية ونظام الكون ونلخص الكلام تلخيصا ونبدأ

بالعادة والاختيار والعمل والتوكل

ونتبعه بتوزيع الاعمال على الافراد وما حكم الشريعة فيها وذكر فروض الكفاية

ثم نذكر انواع العلوم والصنائع التى يجب على الامة تعلمها في هذه الازمان

ثم نذكر طرق التعليم وما يجب على العلماء ان يسلكوه فيه في هذه الازمان

ثم نذكر حكمة النسخ في الايات والاحاديث وما مناسبته لهذه الاحوال التى نحن عليها وما حكمتها بالنسبة لنا الان وما يجب على المسلمين أن يفعلوه في تعليمهم وسياساتهم واحوالهم

ثم نذكر وجوب استعمال العقول وترك الفضول مع انتهاج خطة الشرع

ثم ما الواجب على جميل الاسلام وامرائه من التعاون والمحبة

ثم نذكر السياسة في أوروبا واستطلاع علومها

ثم قصص القرأن والروايات وتاريخها وما ثمراتها فى الامة وما الواجب علينا وكيف كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيها وما الغرض منها وما الذى طرأ عليها في الاسلام حتى شوه وجهها

ثم نذكر علو همة أفراد الامة وتشويقهم وما خطة القرأن فى ذلك وما تنتهج الامم لعلو شأنها مما اغفله المسلمون

ثم نتبعه بذكر كيفية التوصل بالقرأن الى هذه الطريقة وفهمه وما يجب على طوائف الامة من كل صنف من معرفة ايات مخصوصة

ثم نتبعه بما اقتصر عليه المسلمون الان من علوم الفقه وهكذا وان هذا من اهم اسباب الانحاط

ثم نذكر حكمة التكليف بالايمان بما غاب عنا مما ليس بجرم وتوحيد العلوم وان الوحدة بها نظام كل شيء ووجوب مطابقة وحدة المسلمين لهذا النظام

الخاتمة في ذكر السياحات وفوائدها شرقا وغربا واستطلاع ما في البلدان الشرقية والغربية وتقديم هذا الكتاب لعقلاء الاسلام قاطبة وهكذا من فوائد اخرى

﴿ السعادة والاختيار والعمل والتوكل ﴾

للانسان ثلاث قوى شهوة وغضب وعقل ورسلها الى العالم الخارجى الحواس الخمس وخزائنها قوة الدماغ الخمس وله مع كل قوة من هذه الثلاث ميل الى مايلائم ونفور عما لا يلائم فالميل الى الملائم والنفور عنه فى الغضب والشهوة نسميه اراده وفى العقل نسميه اختيارا وهو الذى عليه مدار السعادة الانسانية اذ به يمكن التسلط على الشهوتين الاخريين باضعاف ارادتهما ومحو خروجهما عن سنن الاعتدال بلا إفراط ولا تفريط ويكون بهذا الاختيار السعادة ويكون به الشقاء فاية أمة كان اختيار عقلائها أميل الى الكمال وأحرص على السعادة كانت هى سعيدة وبضدها تتميز الاشياء

والسعادة يدور امرها على كمال النفوس الانسانية اشخاصا واما فسعادة الشخص تكون بكمال العقل وصحة البدن والجاه وتوفر الاموال اذ الموجودات التي نشاهدها لا تخرج عن هذه اذ الكائنات اما ارواحنا أو أجسامنا أو خارجة عنا والخارج اما انسان وإما غيره ونعبر عنه بالاموال وترتيبها في الشرف على حسب قربها وبعدها من العقل فالأموال ادناها وأرقى منها

الجاه ويليه الصحة التي بها يتزن العقل والعقل وعلومه هو نهاية السعادة فكل ما عداه مقدمة له ولا يكمل الا بمعرفة جميع انواع العلوم العقلية والنقلية التي يجمعها ثلاثة اقسام وهى اما ان تحتاج الى المادة فى الخارج والذهن وهى العلوم الطبيعية واما ان تحتاج اليها في الخارج دون الذهن وهى الرياضية واما ان لاتحتاج لها فيهما وهى الالهيات وثلاثة عملية وهى علم الاخلاق وعلم سياسة المنزل وعلم سياسة المدينة وهذه الثلاثة تكفلت بها الشريعة المطهرة وارشدت الى الثلاثة قبلها صريحا تارة ورمزا اخرى فهذه هى طرق السعادة ولا تمكن الا بالاختيار الناشىء عن الشوق المسند الى العقل واى أمة كان اختيار افرادها يغلب عليه السعادة كانت سعيدة دائما امة تقاعس افرادها عن اكتساب السعادة انحطت الى دركات الهون

واعلم ان روح السعادة اذا سرت في الامة اثرت على افرادها تأثيرا حسنا واذا تقلصت تلك الروح خمدت نيران اشواق افرادهم ومعاشرة الانسان لقوم هى اس سعادته واس شقائه ومبدأ جنته وناره فالوسط يؤثر تأثيراً بيناولما كانت الروح الطف من النار بل أكثر سريانا من الكهرباء كان تأثير المعاشرة

على الاخلاق اشد من تأثير النار فيما جاورها أو الكهرباء في المعادن وهذا هو السر في مشروعية الهجرة من بلد الكفر والجهل وهذا مبدأ ارتحال العلماء من بلد لبلد واسفارهم الى الديار القاصية لعلمهم ان الاخرة ليست شيئا سوى ثمرة هذه الحياة ومتى كانت الحياة الدنيا مع من لا يعرفون طريق السعادة قلدهم الانسان بالمعاشرة وكانت سعادته الاخرويه على حسب الدينوية اذ اكثر الناس يفهمون ان المقدمة للسعادة سعادة فالمال والاهل والاصحاب والزوجة والاولاد والوظائف والرتب وعلو الجاه هي نهاية السعادة عند الكثيرين ولكنها عند الخاصة من العلماء مقدمات للسعادة لا نفسها فكأنهم يجعلونها سلما الى رقي عقولهم الباقية بعد موتهم اذ هم يفهمون من قوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد ومن غيرها من ايات ذم الدنيا والاحاديث وكلام العلماء والزهاد ان هذه يقصد بها انها ليست مقصدا قط للعلماء ومن جعلها مقصده فهو من الانعام بل هو اضل وانما تكون وسيلة وعلى ذلك يحمل كل مدح للدنيا وجميع افعال رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الناموس من هذا القبيل فكانت

اخروية بالقصد وان كانت دينوية بالعمل مثل اتخاذ الازواج والمآكل والمشارب وغير ذلك

وبالجملة تكون تلك الاموال منصرفة الى المنفعة العامة دون الخاصة وهذا هو مقصود الشرائع السماوية باكملها حتى تستعد الامة باغنيائها وعلمائها ويتعاونوا على البر والتقوى

(الموضوع الخامس عشر العمل والتوكل)

علمت من هذا ان الشرع لم يأت قط بترك الاعمال وانما جاء بالحث عليها اذ هى رقى المدنية والتوكل عمادها فليس التوكل مايفهم قوم من العامة من انها ترك الاشياء للمصادفة تجرى على غير نظام ولا سنن معهود وترك الاشياء ناقصة بلا ترو ولا اكمال عمل كلا ولنشرح التوكل باوجز ما يمكن مع استيفاء البيان ولنقدم مقدمة فنقول

قضى الشرع وحكم العقل ان مدبر الكون لا يكلف نفسا الا وسعها ولذلك ترى جميع هذه الكائنات تجرى على هذه القاعدة فكل من اوتى فهما وتمييزا وعقلا وأعضاء فبقدر ما اعطى يكلف العمل وهاك البيان

ترى الطفل فى بطن امه لا ارادة له ولا اختيار ولا قوة يبطش بها فتأمل كيف لم يكلف في بقاء حياته ان يأكل بفمه ولا يتناول شيئا بيده ولا يدبر لنفسه تدبيرا ولا يستنشق الهواء حتى يحيي فى بطن امه وانما اتاه عرق فيه دم يجرى متصل بالسرة يتفرع الى جميع اجزاء جسمه من دم الحيض ولذلك ينقطع ايام الحمل فاذا خرج من بطن امه فتأمل كيف كلف بالهام من مدبر الكون ان يفتح فمه ويمسك بيديه ثدى امه ويستنشق الهواء بانفه وفمه وسهل له ارتضاع اللبن في ثدى المرأة ولم يكلفه ذلك ولا ان يسعى اذ لا طاقة له فاذا فطم اخذ يسعي على رجليه وكلف مضغ الطعام بالاسنان والقواطع التى تحدث له ويكلف بالالهام العمل بمقدار ما اعطى ويتناول الطعام بيده ولا يزال تتزايد قواه العقلية والبدنية ويزيد تكليفه بالاعمال كالصنائع وتعلمها والدروس وفهمها الى ان يصير رجلا يلزم بتدبير منزل او امة باسرها هذه هي سنة الكون ونواميسه « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » فتأمل كيف طابق الكلام هذا النظام اذا فهمت هذا فلنبين معنى التوكل فنقول

المتوكل فيه اما امر مقطوع به واما امر مظنون واما

موهوم فالامور المقطوع بها والقريبة منها كاستنشاق الهواء
وادخاله الرئتين لاصلاح الدم وتناول الطعام باليد وادخاله الفم
واستعمال الملابس لوقاية الحر والبرد والمساكن فكل يقطع العقلاء
بنتائجها عند الاستعمال وبضررها عند الترك والمظنون نفعها
جميع الاعمال التى لها نتائج عند غالب الناس وقليلا قد لاتثمر
وذلك جميع الامور التى تقوم بها الممالك من الزراعة والتجارة
والصناعة والامارة وينتج عنها صيانة الممالك بالسياسات وبناء
القلاع واصلاح الجيوش وعمل الاسلحة وكل مابه نظام الامم
والممالك واصلاح الاشخاص وشؤونهم فى داخل الممالك وخارجها
بالطرق المألوفة المعهودة عند الناس فهاذان القسمان وهما المقطوع
به والمظنون يكون التوكل فيهما راجعا لصرف القلب الى مدبر
الكون في انتاج الثمرات وبقاء تلك الادوات وان تكون الاعضاء
صحيحة اذ هو الذى يقدر على ابقاء تلك الاعضاء وانتاج تلك
الثمرات فلا يعلم ما ينتج من تلك الاعمال الا هو ولا يحفظ
الاعضاء الا هو فيكون المقصود من التوكل اذن انما هو القوة
على العمل مع استيفاء شرائطه العقلية وادواته العملية واخلاصه
ظاهرا وباطنا فتكون الاعمال جارية على النواميس المعهودة

والعقول ملتجئة الى مدبر الكون هذا هو المقصود من التوكل وكم ورد فى القرآن من مدحه لانه اقوى نصير على العمل قال تعالى فى قوم موسى « وقال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » فتأمل كيف جعلوا التوكل معينا على العمل وتقوية العزيمة لا كما يزعمه كثير من الجهلة انه ترك الامور الى المصادفة

فكلف الانسان بالعمل العقلى تدبيرا والجسمانى مباشرة على مقدار ما اوتى كما هو مقتضى نواميس الكون كما علمت فى مثال الجنين والطفل والشاب وهذا هو المقصود المطابق لما ورد مع الدخول للامور من ابوابها أما القسم الثالث فهو الطرق التى لا توصل الى المقصود فى غالب الاوقات وانما يكون توصيلها على حسب الاتفاق والمصادفة لانها من غير الطرق المعهودة المألوفة وذلك كل ما ليس سببا للنفع مثل الرقى والتطير والتشاؤم وأخذ الامور من الفأل والاستشفاء بالعزائم وامور الدجالين وكتابة التمائم وجعل اخر الطب الكي والقصد ان كل امر لم يكن سببا طبيعيا للامور فانه خارج عن التوكل ومن سار فيه فقد

فقد النفع الدينوي وخرج عن اسم التوكل فلم ينل دنيا ولا دينا

وليس لهذا المعنى اجمع ولا اخصر من قوله صلى الله عليه وسلم « سبعون الفا من امتي يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فجعل الرقية والطيرة والكي من الخروج عن التوكل ومعلوم انها أمور نفعها قليل ليست من الامور الاعتيادية اما الطب فهو الفن الذى يثمر فى كثير من الاوقات النفع فهو من باب التوكل كجميع الصنائع والعلوم وأما الكى فقد كان العرب يكوون المريض اذا يئسوا من شفائه ولا جرم انه ينفع في أمراض قليلة وهى التي يوافقها انضاج محل الالم وفي الاكثر يضر كما هو الشأن في كل دواء يستعمل بدون علم فقد يوافق قليلا والاكثر عدم الموافقة اذ وضع دواء واحد لجميع الامراض جهل محض وكل شيء عنده بمقدار

المتكل على شيء من هذه الاشياء ممقوت فى الدنيا منحوس الحظ لخروجه عن التوكل ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم ما معناه (من اتكل على شيء من هذه وكله الله اليه)

ترى العلماء يحرمون تولية القضاء على من طلبه بلسانه

او قلبه وادخلوا هذا مع هؤلاء الدجالين من علماء السحر والطلاسم ويلحق بهم محضروا الارواح وكاتبوا التمائم اذ هؤلاء جعل الله اعمالهم موقوفة على ما اتكلوا عليه فكأنهم قيدوا انفسهم فى ذل العبودية لتلك الاشياء

المتوكل من يأتي البيوت من ابوابها ومن هذا تفهم قول كثير (خذ من عبد الله وتوكل علي الله) ثم تأمل كيف ظهر مما قررناه ان التوكل في الاسلامية ضد مايفهمه الناس فيه فمعنى التوكل اذن هو اعتماد القلب على الله في سلامة الحواس والآلات وتمام الاعمال مع استيفاء ما يقتضيه العقل والطرق المعتادة المألوفة قال تعالى «وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين فانظر كيف قدم المشاورة مع اصحابه ثم العزم على الامر ثم التوكل

من هنا نفهم ان الاتكال على الاخبار بالغيب من القوم المجهولى الاحوال أو الاحلام ليس من التوكل فى شيء والا فان رسول الله صلى الله علية وسلم اعلم الناس واقربهم الى علم الغيب فكيف أمر بالمشاورة مع اصحابه ثم العزم بعد ذلك

نعم ان الاخبار بالغيب يقع كرامة لبعض اصفيائه وهذا

لا ينكره العقلاء وهكذا الرؤيا الصادقة كما هو معهود معلوم مستفيض ولكن الرؤيا تحتمل التأويل ومثلها كلام الصلحاء على ان الرؤيا الصادقة تتبعها الكاذبة فتختلط بها وهذا الكشف الصادق يختلط به الكاذب وهكذا الصادق من الناس مختلط بالكاذب واكثر الموسومين بذلك برءاء من الدين واما الذين امنوا وعملوا الصالحات فقليل ماهم

المعول عليه فى جميع الامور انما هى الاراء الصادقة والعقول وترك الانخداع للزخارف والاوهام

كثير من امراء الاسلام ينخدعون باقوال قوم جاؤا دسيسة من بلاد اخرى وافتروا اثما وكذبا على الله فيكون هؤلاء سبب سقوط الامة كما حصل فى الجزائر ايام الشيخ عبد القادر اذ ارسل الفرنساويون رجلا سرا فقرأ علوم الاسلام وادعى الصلاح واتبعه اكابرهم وانتهى الامر الى انه أخبرهم أخيرا بان الفرنسويين سيدخلون فى هذا العام هذه البلد وكان أمر الله قدرا مقدورا فانحلت عرى قواهم وهبطت هممهم فدخل الفرنسيس وسلم لهم العسكر ولبس ذلك الشيخ الفرنساوى حقيقة المسلم ظاهرا برنيطة ورجع الى بلاده وليست المسألة

خاصة بهذا بل وقائعها كثيرا جدا أدت الى زوال دول وقتل ملوك وما نشأ هذا كله الا من فهم الشريعة على خلاف وجهها وعلى هذا فلتحمل جميع ايات التوكل

من اكبر اسباب اهمال الاعمال ما كثر وشاع من قراءة القرأن لمجرد مجيء الرزق وتكرار السورة مرة او مرارا على ما يفعله اهل العزائم لقصد جلب الرزق ولعمرى ان هذا من اشد الضربات على امتّنا وذلك ان القرأن مبدأ العلوم ومنشأ الحكم وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون منه الاحكام بمجرد قراءته ثم دونت المذاهب الاربعة فى القرن الثاني من الهجرة واشتغل اغلب الناس بالفروع المتفرعة من تلك المذاهب فقام طائفة من الصالحين اخذتهم الحمية على القرأن ووضعوا احاديث في فضائل السور ليصرفوا الناس عن الخلاف فى المذاهب الى القرأن وحفظه فذكروا له فضائل ذكره الشيخ السيوطى فى كتاب الاتقان في علوم القرأن وحكي ان رجلا وجد احاديث كثيرة رواها احد الرواة عن عكرمة عن ابن عباس فساله قائلا ان اصحاب عكرمة لم ينقل احد منهم شيئا عنه في فضائل السور مما تذكره انت فقال وضعته لينصرف الناس

عن فقه ابي حنيفة الى القرآن وهكذا حكي عن احد الصوفية
في ذلك الزمان مثل ذلك فهؤلاء قصدوا خيرا فجاء شرا فان
الناس انصرفوا الى القرآن لمجرد التلاوة بلا فهم اذا كثر الاحاديث
جاءت للترغيب فى ثواب عاجل او آجل على مجرد التلاوة ولم
يرجع فيها للمعنى واتفق الحفاظ على ان اغلب تلك الاحاديث
موضوعة او ضعيفة ولذلك اصبح القرآن يقصد للفظه دون
معناه مما جعل الاسلام لفظا بدون معنى الا عند الخاصة وقليل
ما هم واصبح كثير من القراء يتكاون على مجرد التلاوة وهذا
مخالف للمعقول ولما فى شريعتنا من وجوب السير على موجب
النواميس الكونية في الاعمال والجرى على مقتضى الطريق
المستقيم في كل شيء وعلى هذا فهذه كلها اعمال تخالف شرعنا
وهذا القرآن يجب ان يصرف الناس اليه بالتعقل والفهم ومعرفة
ما فيه من الحكم والعلوم

هؤلاء الكاذبون الوضاعون قد افسدوا في الدين ولم
يصلحوا فهم وان كان وضعهم لقصد شريف ليسوا بادرى من
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وضع الناموس والعلوم فيحق
ان يقال لهم (نعم السير على بئس العير) واؤلئك هم وقود النار

كما قال صلى الله عليه وسلم من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار

(توزيع الاعمال على الافراد وما حكم الشرع في فروض الكفايات)

قدمنا ان الامة كالجسم الواحد وكما ان فى الجسم رأسا فيها المخ ومركز الاعصاب السارية في الجسم وفيها ايضا الكبد لطبخ الدم والقلب لتوزيعه والطحال والكليتان والامعاء والمعدة فكل هذه كخزائن فيها جواهر تخزنها اولا الى وقت معلوم ثم ترسلها فى البدن تأخذ مجراها القانونى فهكذا للامة ملوك وامراء وعقلاء وهؤلاء منهم الرأس ومنهم الكبد ومنهم القلب فوجب عليهم جميعا ان يوزعوا الاعمال على الامة لكل ما يليق له وذلك ان الله عز وجل ما خلق الخلق وتركهم سدى فلما جعلهم محتاجين لبعضهم جعل لكل طائفة استعدادا لامور خاصة بهم وشاهدنا على ذلك ما نرى من ميل كل انسان لحرفة مخصوصة او علم على حدته او غير ذلك مما هو مشاهد معروف

ثم اعلم ان فرض العلم قسمان عينى وكفائى فالعينى من الفقه ما اشتهر بين المسلمين معرفته من العامة والخاصة مما نص عليه القرأن والكفائى منه مالا ينص عليه فيه ولم يذكر الا

فى الفروع او بعض الاحاديث وهذا هو الواجب على سبيل
الكفاية لا على العامة ولا على جميع الخاصة بل بعضهم الذين
تقوم بهم الكفاية وهناك علوم واعمال لايجب تعلمها الا على
بعض الامة كعلم الطب والزراعة والطبيعة والفلك والسياسة
وكالجهاد ورد السلام وصلاة الجنازة وبهذا تعلم مايقوله كثير
من علماء الفروع ان علم الفقه فرض عين على الناس الى حد
اجتهاد الفتوى او اجتهاد المذهب او نحو ذلك مما تنزه عنه
شريعتنا المطهرة فانصرفت اليه افكار العلماء وتركوا ماعداه مع
ان فروض الكفايات كثيرة وهى كل ماتحتاج اليه الامة ومنه
جميع الصنائع لاسيما الاسلحة الجديدة والمدافع القتاله وعلوم
الطب والزراعة وعلوم الحروب والتجارة والبيطرة والسياحة
شرقا وغربا والرد على مؤلفى الكتب من اعداء الدين وضروب
الصناعات المتنوعة والالات البخارية وجميع ما يلزم لهذه
الحياة مضارعة لمن جاورنا من الامم فالاقتصار على فن واحد
خروج عن سنن هذا الدين القويم فاذا تركت الامة هذه
الفرائض كلها اثمت جميعها وعوقبوا في الدنيا بالخزى وفى الآخرة
بعذاب النار كما ذكره الشافعى رحمه الله في الرسالة

باب العلم

(قال الشافعي) قال لى قائل ما العلم وما يجب على الناس فى العلم فقلت له العلم علمان علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله قال ومثل ماذا قلت مثل ان الصلوات خمس وان الله فرض على الناس صوم شهر رمضان وحج البيت ان استطاعوا اليه سبيلا وزكاة فى امـوالهم وانه حرم عليهم الربا والزنا والقتل والسرقة والخمر وما كان فى معنى هذا مما كلف العباد ان يعقلوه ويعلموه ويعطوه من انفسهم واموالهم وان يكفوا عنه بما حرم عليهم منه (قال الشافعى) وهذا الصنف من العلم كله موجود نصا فى كتاب الله جل ثناؤه وموجود عاما عند اهل الاسلام ينقله عوامهم عمن مضى من عوامهم يحكونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم وهذا العلم العام الذى لا يمكن فيه الغلط فى الخبر ولا التأويل ولا يجوز فيه التنازع (قال فما الوجه الثانى) قال فقلت له ماينوب العباد من فروع الفرائض وما يخص به من الاحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا فى اكثره نص سنة وان كانت في شيء منه سنة فانما هى من اخبار الخاصة لا

من اخبار العامة وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياسا
قال افتعدون هذا ان يكون واجبا وجوب العلم الذى قبله او
موضوعا عن الناس علمه حتى يكون من علمه متنفلا ومن ترك
علمه غير آثم بتركه او من وجه ثالث فوجدناه خبرا أو قياسا
(قال الشافعى) فقلت له بل هو من وجه ثالث قال صفه لى
واذكر الحجة فيه وما يلزم منه ومن يلزم وعمن يسقط فقلت
هذه درجة من العلم ليس يبلغها العامة ولم يكلفها كل الخاصة
ومن احتمل بلوغها من الخاصة فلا يسعهم كلهم كافة أن يعطلوها
واذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يحرج غيره ممن
تركها ان شاء الله والفضل فيها لمن قام بها على من عطلها

(قال الشافعى) وقال فاوجد لى فى هذا خبرا وسببا في
معناه ليكون هذا قياسا عليه فقلت له فرض الله عز وجل الجهاد
في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ثم اكد النفير منه
فقال جل ثناؤه ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم
بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون الاية وقال
جل ثناؤه فاقتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة الاية وقال جل
ثناؤه فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم

واقعدوا لهم كل مرصد وقال جل ثناؤه قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر الاية (قال الشافعى) اخبرنا عبدالعزيز ابن محمد الدراوردى عن محمد بن عمرو بن علقمة عن ابى سلمة ابن عبد الرحمن عن ابى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ازل اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوا لا اله الا الله عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله وقال الله جل ثناؤه ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة الى قدير وقال جل ثناؤه انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله الآية قال الشافعي فاحتملت الآيات ان يكون الجهاد كله والنفير خاصة منه على كل مطيق له لا يسع أحدا منهم التخلف عنه كما كانت الصلاة والحج والزكاة فلم يخرج أحد منهم وجب عليه فرض منها ان يؤدى غيره الفرض عن نفسه لان عمل احد فى هذا لا يكتب لغيره واحتملت ان يكون معنى فرضها غير معنى فرض الصلوات وذلك ان يكون قصد بالفرض منها قصد الكفاية فيكون من قام بالكفاية في جهاد من جوهد من المشركين مدركا تأدية الفرض دنا فله الفضل

ومخرجا من تخلف من الاثم ولم يسو الله بينهما فقال تعالى
لا يستوى القاعدون من المؤمنين الآية

(قال الشافعي) فقال أما الظاهر في الآيات فالفرض على العامة فأين الدلالة بانه إذا قام بعض العامة بالكفاية اخرج المتخلفين من الاثم (قال الشافعي) فقلت له فى هذه الآية قال واين هو منها قلت قال الله جل ثناؤه وكلا وعد الله الحسنى فوعد المتخلفين الحسنى على الجهاد على الأيمان وأبان فضيلة المجاهدين على القاعدين ولو كانوا آثمين بالتخلف إذا غزا غيرهم كانت العقوبة بالاثم ان لم يعف الله عنهم أولى بهم من الحسنى قال فهل تجد فى هذا غير هذا قلت نعم قال الله جل ثناؤه وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزا معه من اصحابه جماعة وخلف أخرى حتى خلف على بن ابي طالب رضي الله عنه فى غزوة تبوك فاخبره الله جل ثناؤه ان المسلمين لم يكونوا لينفروا كافة قال فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة فاخبر ان النفير على بعضهم دون بعض وان التفقه انما على بعضهم دون

بعض وكذلك ماعدا الفرض في عظم الفرائض التى لا يسع جهلها والله اعلم

(قال الشافعي) وهكذا كل ماكان الفرض فيه مقصودا به قصد الكفاية فيما ينوب فاذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من تخلف عنه من المأثم ولو ضيعوه معاً خفت ان لا يخرج واحد منهم مطيق فيه من المأثم بل لا اشك ان شاء الله لقوله الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما قال فما معناه قلت الدلالة عليه ان تخلفهم عن النفير كافة لا يسعهم ونفير بعضهم اذا كانت في نفيره كفاية يخرج من تخلف من المأثم ان شاء الله لانه اذا نفر بعضهم وقع عليهم اسم النفير قال ومثل ماذا سوى الجهاد قلت الصلاة على الجنائز ودفنها لا يحل تركها ولا يجب على كل من يحضرها كلهم حضورها ويخرج من تخلف عنها من المأثم من قام بكفايتها وهكذا رد السلام قال الله جل ثناؤه واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها او ردوها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم القائم على القاعد واذا سلم من القوم واحد اجزأ عنهم وانما اريد بهذا لرد فرد القليل جامع لاسم الرد والكفاية فيه مانع لئلا يكون الرد معطلا ولم يزل المسلمون على ما وصفت منذ بعث

الله جل ثناؤه نبيه صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا الى اليوم يتفقه ويشهد الجنائز بعضهم ويجاهد ويرد السلام بعضهم ويتخلف عن ذلك غيرهم فيعرفون الفضل لمن قام بالفقه والجهاد وحضور الجنائز ورد السلام ولا يؤثمون من قعد عن ذلك اذا كان لهذا قوم قائمون بكفايته اه كلام الشافعي رحمه الله

وفرض الكفاية مهم يقصد حصوله من غير نظر بالذات الى فاعله اى يقصد حصوله في الجملة فلا ينظر لفاعله الا بالتبع للفعل ضرورة انه لا يحصل بدون فاعل وهو يشمل الديني والدنيوى كالحرف والصنائع وكل ما ذكرناه مما يلزم للمدنية الحاضرة وها انت علمت ان الشافعى رضى الله تعالى عنه قال ان الاثم على القادرين جميعا عند الترك وانت تعلم ان القدرة مختلفة اذ ليس احد العقلاء . الذين لا جاه لهم كعاقل عظم جاهه كالملوك والامراء فالامة الان كلها مطالبة بجميع الاعمال اللازمة للمدنية الحاضرة ومباراة الاروباويين والملوك اولى بالوجوب واكثر المسئولية عليهم هم والعلماء الذين لا يعظون الناس بذلك ولا يفهمونهم واجباتهم ولا يظهرون لهم ان هذه فروض كفايات فالحق والحق اقول ان العلماء لو علموا هذه الحقيقة ونادوا بها فى

الجماهير لهرع الناس الى تلك الصنائع وعدوها من جملة مايثاب عليه في الاخرة ولاصبح الشرق يضارع الغرب ويفوقه

وها انا ادعوا بكتاب الله وسنة نبيه وكلامه ملوك الاسلام وامراءه وعلماءه الى تنبيه اغنياء الامة وعقلائها الى جميع الصنائع وأن يعطى كل ماهو له اهل من تلك الصنائع حتى لانحتاج الى ثوب ولا ابرة ولا فأس ولا قدوم ولا مـدفع ولاغيرها من الخارج وما دمنا نحتاج الى اصغر شيء كالكبريت الذى يوقد به فنحن في اثم وحرج عظيم ومحاسبون يوم القيامة معذبون في الدنيا بالجهل والتأخر وفي الاخرة بالعذاب المهين

والذي اراه فى ذلك ان يشغل ملوك الاسلام وعلماؤه الطوائف كلا بحرفة تنفع الامة فيوزعون على كل واحد من مشايخ الطرق ما يقدر على تحصيله فلقوم الطب والجراحـة ولاخرين الترغيب فى الصلاة ولاخرين الترغيب فى الزكاة ولاخرين الترغيب في الحج وغيرهم للحث على صلة الارحام ولغيرهم وجوب الاتحاد فى المسلمين وهكذا ويبثون العلماء لارشادهم فيحضونهم على الصنائع المختلفة والالات البخارية فهذا كله صار الان من فروض الكفايات الواجبة لمباراة الامم

المجاورة ومسابقتها ولاينفع امة الاسلام الاثمة اكثر من بث
النصائح والارشاد من اهل العلم ولا يوقظ اهل العلم الا الحكماء
المرشدون والعلماء الكبار لذلك فيجب على كل حكيم ان ينصح
العلماء ويدلهم على تلك الطريقة المثلى ليشتهر القول بين طبقات
المسلمين ولا يتكلفون الفقه وحده وضياع الزمن فيه فانك قد
رأيت من كلام الشافعى رحمه الله تعالى ان الواجب فيه قليل
جدا وهى الامور العامة ولاتخفى على احد اماما عدا ذلك ففرض
كفاية وفروض الكفاية كثيره جدا اذ هى دينية ودنيوية ومن
الدينية الوعظ والارشاد لفنون العبادات والذى اراه فى نصيحة
الامة بالقرآن ان يحفظ كل ما نيط به الوعظ فى باب مخصوص
ايات يعظ بها فيه كآيات الجهاد فيه مع فهم معناها وكايات
الصلاة والحج وبر الوالدين والاخلاق والحلم وهكذا من يرشد
لتعليم العلوم النافعة كالطبيعيات يحفظ ما يشير لتلك العلوم منها
وسنجعل لهذا بابا نذكر فيه ما يلزم في ذلك

ولما كان مالايتم الواجب الا به فهو واجب وجب على
ملوك الاسلام والامراء ان يتوصلوا لهذا الغرض بعمل المعارض
الصناعية فى بلادهم ودفع مكافأة والقاب شرف لمن يبرع فى

فن من تلك الفنون دينية أو دنيوية ليقوم الناس بتلك الواجبات
ويعم التعليم فى انحاء بلادهم وتنتشر انتشاراً تاما والاسلامية
الآن في حاجة شديدة الى التنشيط فكل من قام بعمل مثل
هذا قام مقام نبيه صلى الله عليه وسلم فى التأدية على قدر اجتهاده
ألا فليغتنم هذه الفرصة العلماء والاغنياء والامراء (والذين
جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله مع المحسنين)

﴿ العلوم التى يجب تحصيلها والصنائع ﴾

ذكرنا آنفاً ماقاله الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه
وعلماء الاصول من وجوب جميع الصنائع والعلوم على الناس
من باب فرض الكفاية فاى أمة قصر رجالها وسكت علماؤها
على بعض الفروض دون بعض فلتبشر بانها تعذب مرتين
مرة في الدنيا بالتأخر ومرة فى الآخرة بالعذاب المهين ولعذاب
الآخرة أشد وأبقى فان عذاب الدنيا قاصر على الجسم الفانى .
وعذاب الآخرة على تلك النفس الانسانية التى لها الدوام
واعلم ان الامم في الدنيا لها وجهتان وجهة الافراد ووجهة الامم
فوجهة الافراد الترقى الى عالم آخر ووجهة الامم ترقى بمجموعها

ليحوز ابناؤهم والمنتسبون اليهم شرفا وراحة بين الامم وهاتان
الوجهتان عليهما مدار الحياة واليهما يعمل العاملون وفيهما
تنافس المتنافسون وتغلب الوجهة الاولى على المتدينين والثانية
على السياسيين وبينهما ارتباط شديد ولا يمكن فصل احدهما
عن الآخر فجميع عقلاء الامم انما يسعون فى الحياة لامور
دائمة اما دوام الاشخاص وذلك بالرقي لعالم ارقى واما دوام
الامم ببقاء الاجيال المتعاقبة حائزة الكمال فى المدنية والحضارة
والاول هو بقاء الشخص والثانى بقاء النوع ولعمرى ان كلا
منهما يخدم الآخر وقد جمع الامرين قوله صلى الله عليه وسلم اعمل
لآخرتك كانك تموت غداً واعمل لدنياك كانك تعيش أبداً
واقرب منه قوله تعالى فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا
وما له في الآخرة من خلاق وهؤلاء هم الطبقة السفلى من
نوع الانسان التي عبرنا عنها بالامم الجاهلة ومنهم من يقول
ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وهؤلاء هم أهل
المدنية الفاضلة التى قدمنا شرحها واما الذين يقولون ربنا آتنا
في الآخرة حسنة لا فى الدنيا فليس لهم ذكر فى الآية وهم
الامم المنحرفة الذين قدمنا ذكرهم وقارناهم ومن معهم بمراتب

الحيوان وذكرنا انهم هم الذين يقولون مت بالارادة تحى بالطبيعة فهؤلاء منحرفون لانهم أرادوا القصد بلا وسيلة ولذلك جاء شرعنا بالدين والدنيا معاً لانهما ممتزجتان والمقصد لا يستغنى عن الوسيلة والا هلك الاصل والفرع .

وانما لم يذكر هؤلاء المنحرفون فى الآية لان القصد من التنزيل ان يكون ضد الطبع ليتعادلا فذم من اقتصر على الدنيا ليكون ضد الطبع ومدح من اعتدل فيهما لانه الكمال (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) واما اولئك فلم يذكروا لان القصد سوق الافكار الى الآخرة وذلك ينافيه فما أعجب حكم هذا الترتيب ثم تأمل كيف ذكر حسنة الدنيا ثم اتبعه بحسنة الآخرة ليعرفنا ان الاولى سلم للآخرة ولنشبه بتلك الحكم الزاهرة ونقدم حسنة الدنيا فنقول حسنة الدنيا عبارة عن كل ما يلزم لها من مآكل ومشارب وتزاوج مما به بقاء الحياة فيها والراحة الممكنة مع حسن النظام

ولهذه الحسنة علوم هى بمنزلة الغذاء وأخرى بمنزلة الدواء فالاولى تشمل الصنائع والزراعات والتجارات

فكل صنعة لجلب القوت كالزراعة والخبز وما تحتاج اليه من صناعات البخار التى بها السقي والحصاد والدرس والتخليص والطحن والعجن والنخل والخبز فلكل من هذه آلات وعدد يجب الاعتناء بها وعملها وقيام المسلمين بها اذ لا تمكن الحياة الدنيا في هذه الازمان الا بها وهكذا الالات والعدد التى بها الملابس كالات الحلج والنسج والخياطة وغيرها من آلات البناء ولا بد لهذه كلها من قلاع وحصون وسلاح فاذن لابد من علوم الصناعات التى بها عمل الاسلحة النارية المستحدثة

هذه هي العلوم التى تعد لحسنة الدنيا كالغذاء أما العلوم التى هى كالدواء فهى العلوم التى بها يكون عدم التنازع في الاموال كالبيع والشراء وقسمة المواريث والهبات والصدقات والمناكحات وعدم التنازع في النساء بذكر احوالهن الشخصية مع الرجال من الطلاق والرجعة والعدة والخلعة وغير ذلك وبها يكون دفع المفسدات لها كالعقوبات الزاجرة كقتال الكفار واهل البغى والحث عليه والحدود والغرامات والتعزيرات والكفارات فكل هذه تزجر عن انتهاك حرمة اصحاب

الاموال فهذه كلها فى علم الفقه الذى هو في الحقيقة كالدواء وتلك الصنائع الدنيوية كالغذاء وأى أمة استعملت الدواء وتركت الغذاء مات احساسها فكما يموت من يعيش على ا كل الصبر او يحي حياة لا يموت فيها ولا يحيي فهكذا الامة التى تقتصر على علم الحدود والاحكام ولا تعرف سواها ولعمرى اذا ضعفت المكاسب وقلت حيل الدفع فاين المعاملات والاحكام والحدود وانما جاء الشرع بهذه العلوم لان الناس بطبيعتهم ميالون الى تعمير الارض فجاءت الشرائع لتهديهم الى ما به تعاونهم وتعاضدهم فاما اذا وكلت اليهم وجاء دور جديد للاحوال المعاشية فانه يأمرهم باقتحام الاخطار لاستدرار الرزق من هاطل الغيث ونابت الزرع

وكما ان علم الطب يراد لاصلاح الجسم الموجود فهكذا علم الفقه جاء لاصلاح امة تعيش ولها ما يكفيها فى الحياة فعلم الطب لاصلاح أجسام الاشخاص وحدود الفقه واحكامه لاصلاح جسم الامة وتعلم العبادات خصوصية اخرى فى تشويق النفس الى مدبر الكون ويعقل أن يطيب جسم ميت فاذا ماتت الامة بعدم ما يغذيها وضعفت معداتها فى الحياة من الاغذية التى

بها حياتها والاسلحة التى بها تدافع فمن يصبح بعلم الطب ومن تجرى عليه نواميس الشرع بل يموت كل منهما بموت الامة التى هو فيها ومن هنا تفهم قول الشيخ الغزالى (ان العلوم العقلية بمنزلة الغذاء والشرعية بمنزلة الدواء)

هذا هو الذى به تعمر المدن في الدنيا وتبقى الاجسام محفوظة الى وقت معلوم ومحصلها أمران مابه حفظ الاجسام من الداخل بالتحليل والتركيب وما يأتى لها من خارج من عوارض الجو ومنازعات نوع الانسان وقد قدمنا مافيه الكفاية في ذلك كله. أما مابه صلاح العقول فهي علوم الاخلاق والعبادات وجميع مابه كمال النفس الانسانية من العفة والشجاعة والحكمة والعدالة وهذه الاربعة هى امهات الفضائل التى بها يكون الانسان كاملا فبالعفة والشجاعة يتخلى عن الرذائل وبالحكمة والعدل يتحلى بالفضائل وتحت الحكمة معرفة جميع العلوم وهى لاتكون الا لحكماء الامة وكبرائها الذين رضوا بالراحة الفكرية عن الشهوات المحرقة ولهم السلطان على علماء الامة ينصحونهم ويرشدونهم ويعين على هذه معرفة مآل الانسان ودار الآخرة وصفات الاله وأفعاله فترتبط النفس بمبدع الكون ومن هذا

عرفنا ما به عمارة الارض وبقاء الاجسام وما به تنوير العقول وترقيتها .

وكل من علوم القسمين لا تأتى وحدها بل لا بد من وعاظ يهدون الناس الى تلك العلوم ويشوقونهم الى حفظها والحرص عليها بالترغيب والترهيب وهؤلاء يحتاجون الى فن القصص والروايات الادبية التى اسها قصص القرآن الشريف بذكر أحوال الانبياء والجبابرة والصالحين والكافرين والامم البائدة الهالكة التى تركت عمارة الارض المصادفة فاهلكهم الله بذنوبهم وسنعقد لهذا وأمثاله باباً خاصاً فى هذا الكتاب ان شاء الله تعالى وهؤلاء الوعاظ يجب أن يتحروا مواضع النقص في الامة فكلما رأوا ثلمة أسرعوا اليها فنصحوا ورغبوا فيها ففى مثل هذه الايام يذكرون ان المحبة واجبة بين جميع المسلمين ويعرفونهم أحوال الامم المجاورة وكيف حصل تفرقنا ويوردون الاحاديث والآيات ويذكرونهم بالصنائع والحرف ويعرفونهم ان لهم على ذلك أجرين أجراً فى الدنيا واجرا في الآخرة وهكذا ولا بد أيضاً من علماء الكلام وعليهم أن يكون علمهم على حسب ما اعترى الدين من التشويش فاما علم

الكلام الذى عندنا الا ن فالصواب تحويره وتهذيبه الذى في الامة الآن فليس له لزوم بالمرة بل الاشتغال به حرام على المسلمين فان الدين جاءه اعداء كالسيل العرم انحط عليهم من بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك فاخذ القسيسون يؤلفون المطاعن على الاسلام وهكذا القاصرون في العلوم الجديده يظنونها مخالفة له فوجب ان يكون علماء الكلام هم الباحثون على نفي الشبه الحادثة وتطبيق العلم على الدين بقدر الشبهة بلا زيادة ولا نقص اذا علم الكلام ليس الا سلاحا يقاتل به المشوش للاذهان كما ان الحصون والقلاع والاسلحة يدافع بها المغيرون على الاجسام والبلاد وكما ان السلاح ليس لنا به حاجة اذا لم يكن عدو فكذلك علم الكلام ليس لنا به حاجة اذا لم يكن مبتدع وكما ان السلاح يجب ان يكون فى كل زمن بحسبه ويتنوع على حسب تنوع اسلحة العدو فهكذا علم الكلام يتنوع على حسب التشويش الحادث على الدين فالوعظ والسلاح وعلم الكلام كلها ادوية لامراض اجسام الامة فكما ان لكل مرض علاجا فهكذا تعالج الامة بالوعظ وتصنع الاسلحة والحصون وتؤلف علم الكلام على حسب الحوادث الطارية عليها وكما ان

من يداوى جميع المرضى بدواء واحد يعد جاهلا كالذى يكون مريض ويستعمل الرقيا مع جميع الناس فكذلك من يعظ الامة الاسلامية كلها بوعظ واحد ويظن انه ينطبق على جميع الازمان والامكنه او يقاتل كل عدو بسلاح واحد فهو غر جاهل او يدرس علم الكلام القديم الذى جعل دفاعا لمبتدعة العصر الاول لهذا العصر فكذلك يعد قليل العقل ويكون كالذين يكتوون وقد وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلين فى غير المتوكلين اذ ليس القصد مسئلة الكى وحدها بل كل امر يؤخذ بلا فكر ولا روية ولا نظام بل يقال كما وجدنا عليه اباءنا فهو خارج عن التوكل وبعبارة اوضح كل مالم يوصل الى المقصود عقلا وعرفا فهو خارج عن التوكل وما اشبه وعاظنا وعلماء كلامنا وصانعي اسلحتنا بشعراءنا فكما نرى اولئك يدرسون ويصنعون ويعظون كما كان الاولون فهكذا نرى الشعراء الا قليلا منهم يرجعون للتشبيه البدوى القديم ولا يذكرون مايرون من جمال المدنية والحضارة ومحاسن الطبيعة وجمال مايشاهدون فى مناهج الكون فاذا سرى التقليد والانحطاط فى امة سرى في كافة شعرائها وخطبائها وعلمائها (اجمال وتذكره)

واجمال القول ان العلوم اما ان تكون اغذية او ادوية وهما قسمان عقلية وجسمية وكل منهما تخليه وتحلية فهى ثمانيــة اقسام .

١ فالاغذية الجسمية هي علوم الزراعة بما يتبعها من جميع العلوم الطبيعيات وهى فروع كثيرة كالكيمياء وعلوم الحيوان والنبات والبيطرة والبيزره وغيرها وكل فرع ربما تفرع الى فروع بتقدم العلوم وتمدين الامم

٢ وعلوم الاغذية الجسمية التى للتخلية هى علوم سبك المعادن والاسلحة الجديدة والعدد من المكروب والسفن الحربية فهذه كلها لقتال العدو للمحافظة على الاجسام من الخارج واما التى قبلها فهى للمحافظه عليها من الداخل ومرادنا بالداخل مالم يكن من اغتيال نوع الانسان فيدخل فيه المساكن والملابس واتقاء الحر والبرد وغير ذلك

٣ واما علوم الاغذية العقلية التي للتحلية فهي علوم الحكمة النظرية وهو لعمرك يبنى على اساس علوم الاغذية الجسمية فترى علماء الحكمة العالية والفلسفة الالهية يبنون براهينهم على مارآه علماء الطبيعة والفلك ويخرجون من المحسوس الى

المعقول ويدخلها علوم السنة والقرآن بل هما مبدأ لجميع الاقسام اما صريحا واما اشارة واما علوم اللغات والبلاغة ونحوها فهي مقدمات ليست الا للتوصل بها فالمتعمق فيها جهول ولقد صرفنا شطرا كبيرا من حياتنا فيهما تقليدا ثم اتضح لنا الحق بعد حين وعرفنا ان الامم حولنا يعرف الواحد منهم لغة ولغتين واربع لغات في ازمان قليلة ونحن نمضي حياتنا كلها فى اللغة العربية وهم اعلم منا بها فياحسرة على امة لم تجد من يرشدها ويقيمها من رقدتها ويوقظها من غفلتها وكتابنا هذا اذا تأملته وجدت فيه زبدا من علوم الحكمة والفلسفة العالية التى هى المقصود من حياتنا

٤ وعلوم الاغذية التى للتخليه العقليه فهى علوم الاخلاق الدالة على الطهاره من الشجاعة والعفة والعبادات

٥ وعلوم الادوية الجسمية التى للتخليه هى علم الطب ومن العجيب ان هذا الفن يحتاج الى فنون اخرى من الطبيعة بل يحتاج الى علوم الطبيعة باكملها كما ان الفلك يحتاج الى علوم الرياضة اجمعها وكأن الامراض وتقدير الازمان يحثاننا على قراءة جميع علوم الارض والسماء لنعيش فى رفاهية وراحة ونرى

الطب يدعو الى كل علم يحتاج اليه علماء الزراعة ولو اجمالا فكانه يشير الى انكم تتداوون بهذه العقاقير وهى تداوى اجسامكم ولا بقاء لها الا بهذه العلوم كما كانت معرفة الطب تتبع علوم الطبيعيات المحتاج اليها الانسان فهكذا ترى علماء الالهيات يحتاجون لجميع العلوم ولو اجمالا لان مدبر الكون يحب ترقينا فى جميع العلوم لنعيش فى راحة ونموت مع علم وكمال وهذا هو السر في نزول الانبياء بالتوحيد ثم يتركونهم وشأنهم لتوقظهم هذه الفاكرة الى معرفة هذا العالم بعقولهم وأخذ ما ينفعهم وترك ما يضرهم فى اجسامهم وعقولهم حتى تقوى مداركهم فالاله هو نهاية ما ترمي اليه المدنية والحضارة وان جهلها اغلب الناس فالانبياء يحثون والامم يتراكضون فى ميادين الحياة سعيا وراء الارتقاء وتراهم يتجادلون ويتحاربون باسم الدين وهذا هو مقصود الرب تبارك وتعالى بجعل نفسه موضوع الجدال والنزاع ليدوم الترقى بدوام الحروب ولقد كاد القلم يخرج بنا عن جادة ما نحن فيه فلنرجع ونقول

ومن العلوم التى للتخلية الجسمية علوم الحرب التى يدرسونها فى المدارس الحربية (ان الله يحب الذين يقاتلون

فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)

٦ والعلوم التى هى أدوية جسمية للتحلية علوم المواقيت والفلك والهيئة فهى زينة للامة وكمال وجمال ماعدا الضرورى منها كالاوقات المعروفة فهى من الضروريات لا الكماليات

٧ والعلوم العقلية التى هى أدوية للتخلية فهى علوم الكلام التي تكون في كل زمان بحسبه

٨ والعلوم العقلية الدوائية للتحلية فهى المواعظ التى يدخلها جميع قصص القرآن ومواعظه وامثاله

وهذه هى اقسام العلوم الواجب تعلمها على المسلمين فرض كفاية واول وزر يكون على الملوك والامراء والعلماء والذى اعلمه ان أغلب العلماء لم يتيقظوا لهذا ولم يعرفوه ولو عرفوه لعرفه الامراء ومتى عرفه الامراء تقدمت الامة وما الامراء الا أفراد من الامة لا ذنب عليهم وحدهم وانما هم منها ولهذا ورد (كما تكونوا يولى عليكم) فاى أمة اراد الله تعالى انقاذها من الضلال تنبه حكماؤها اولاً ثم نبهوا علماءها وهم يرقون افكار أمرائها وعامتها فلينظر حكماء الاسلام وعلماؤه الى ماقلناه وليتيقظوا من رقدتهم وليقوموا من نومهم ليكون لهم أجور

النبيين وتحيي امتهم التي يحيي ذكرهم بحياتها ولا يظن العلماء ان علوم العربية والتفسير والحديث والفقه التي يموتون فيها ويحيون تنفعهم الا بالعمل وتحريض الامة على جميع تلك العلوم التي اشرنا اليها والا ماتت الامة وعلماؤها فان السنة والقرآن قد حرضا على جميع هذه العلوم كما اوضحناه في غضون كتابنا هذا ألا فليحي العلم فلتحي الامة فليحي الدين فليحي الوطن فيجب على العلماء والحكماء والامراء ان يحثوا الناس على جميع العلوم والا ذهب ريحهم وخسروا الدنيا والآخرة

فليت شعري لم ترك الامراء الخطب يوم الجمعة ولم تركوها للجهال الفقهاء الذين لا يعقلون ألم يأن لكم ايها الامراء أن تقتدوا بالخلفاء الراشدين ألم يأن لكم ان تقتدوا بالخلفاء الامويين والعباسيين ألم يأن لكم ان تقتدوا بخطباء أوربا الذين يقومون على منابر الخطابة وتهتز لهم المنابر فتكسي ورقا خضرا . ساء ما وصلنا اليه ألم تعلموا ايها الامراء ان خطبة الجمعة والعيد لكم وحدكم لتقودوا أممكم الى مصالحهم في الدنيا من الصناعات والتجارات والزراعات وكذا الآخرة أهكذا دين الاسلام تيقظ الناس ونحن نيام

ألا فلتحى الامة فليحى الوطن العزيز فليحي الدين فليحى العلم فلتقم الامة فلتتقدم الصناعة أنتم ايها الحكماء ويا ايها العلماء تقودون الناس فى الدنيا وستقودونهم فى الآخرة فان كنتم الآن منحطين فالانحطاط مالكم فى الآخرة وان كنتم راقين فهو مالكم في الآخرة ومن كان فى هذه اعمى فهو فى الآخرة اعمي واضل سبيلا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

﴿ تتمة هذا الباب ﴾

قد علمت ان العلوم قسمان اغذية وادوية ولا بد منهما في بقاء الامة اذ الاغذية بغير ادوية يتبعها ضرر وافراط وتفريط فلا تجد ما يوقفها عند الحد فيكون هناك الضرر العظيم والادوية بلا اغذية مهلكة وباجتماعهما الصلاح وبعدمهما الهلاك

ولكن الاقتصار على الاغذية أقرب الى الحياة وعلى الادوية اقرب الى الموت . وعلى ذلك ترى فرنسا وما شاكلها ممن اعرضوا عن الدين احياء حياة فيها مرض والشرقيين التاركين لعلوم العقل اقرب الى الموت فبهذا عرفت منشأ عمارة الامم

وخرابها وارتفاعها وانخفاضها وهى اربعة اقسام لاغذاء ولادواء وهؤلاء هلكي غذاء لادواء وهؤلاء مرضي كبعض الاوروباويين دواء لاغذاء وهؤلاء اقرب الى الموت كبعض الشرقيين غذاء ودواء وهؤلاء احياء وهى المدنية الفاضلة التي اليها يصل النوع الانسانى وقد بلغنا ان بلاد سويسره بلغت هذا الحد

﴿ طرق التعليم وما يجب على المسلمين ان يصنعوه ﴾ (فى هذه الايام)

امة الاسلام ماحط بها في مهواة الدمار الا طرق التعليم منذ قرون متطاولة وكم ارشدهم المرشدون وافادهم الحكماء ولا سميع ولا مجيب لقد كان أهل الغرب (شمال افريقيا) في الازمان الغابرة أيام ابن خلدون لا يدرسون الا القرآن وعلم الرسم الخاص به واختلاف الروايات لا يزيدون عليه شيئاً فلا علم ولا عمل ولا صناعة ولا دين ولا دنيا فاذا أتم الطالب القرآن وقف وقوفا تاما عن العلم وان انقطع عن اتمامه انقطع عن كل خير في الدنيا والآخرة وزاد اهل افريقيا (تونس) شيئاً من الحديث ومدارسة بعض قوانين العلوم ولكنهم هم ومن حولهم

لم يكونوا لينالوا خطاً من ملكة الانشاء اذ القرآن بالغ حد الاعجاز فلا يقدر البشر على تقليده وقوانين العلوم التي تقرأ في افريقية وغيرها عباراتها نازلة عن البلاغة

ولما رأى علماء الاندلس ضعف العلم في تلك الاصقاع المغربية زادوا على تعليم القرآن الشعر والادب والترسل وعلوم العربية والخط والكتابة فكان ذلك يفيدهم بعض الافادة في الانشاء

وكان تعليم أهل المشرق قريباً من تعليم اهل الاندلس وتردد ابن خلدون رحمه الله تعالى في أي العلوم عنايتهم به اكثر وقال ان علماء الاندلس عنايتهم بالشعر وقواعد العربية أكثر من عنايتهم بالحديث والتفسير وقد انقطع اذ ذاك سند تعليم العلوم بتلك البلاد وقد دخل النصارى شرقي الاندلس فهاجر أهلها الى أفريقية وقال . وكان لاهل المشرق عناية تامة بالخط وهذه هي طرق التعليم في الازمان الغابرة. وأنت ترى ان طريقة التعليم في كتاتيب بلادنا تشبه احط درجات التعليم . وهي تعليم اهل المغرب في عهد ابن خلدون قاصرة على تعليم القرآن ولقد تأفف منها بل ومن جميع طرق التعليم في ذلك الحين القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته (كما قاله

العلامة ابن خلدون) وأرشد الى طريقة غريبة فى وجه التعليم وعاد فى ذلك وابدأ وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الاندلس قال لان الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين . ثم ينتقل الى درس القرآن فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يأخذ الصبي بكتاب الله أول مرة يقرؤه ولا يفهم وينصب في أمر غيره اهم عليه منه . ثم قال ينظر فى اصول الدين ثم اصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك ان يخلط فى التعليم علمان الا ان يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار اليه القاضى ابو بكر رحمه الله تعالى وقال العلامة بن خلدون وهو لعمرى مذهب حسن الا ان العوائد لا تساعد عليه وهي املك بالاحوال هذا ملخص ما قاله العلامة ابن خلدون رحمه الله وما نقله عن ابى بكر رحمه الله تعالى عند الكلام على تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه وانا اقول الا فاحضرا أيها العالمان اليوم وانظرا ما نظرت واسمعا ما سمعت تجدا

الحال اسوأ مما رأيتما وتجدا الطريقة الدنيا وهى طريقة اهل المغرب عندنا واندرست طريقة الاندلس بذهاب دولتهم وهكذا الطريقة الافريقية والمشرقية الا فاحضر يا ابن العربى وسر معي فى الكتاتيب واقرأ (كذلك قال الذين لا يعلمون من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) ولقد اتفق لى اثناء تأليف هذا الكتاب انى رحلت كما رحلت فى بعض ارجاء القطر المصرى لمشاهده الكتاتيب فى القرى ولقد كان هذا من عجيب الاتفاق اذ لم اكن عند ابتداء تأليف هذا الكتاب مفكرا فيه ولكن ابى الله الا أن يظهر العجائب ويتم ما اراد من الكلام على نظام هذه الامة مع نظام الكون فلو رأيت ثم رأيت اكواخا (١) يعلوها التراب وتأتيها الشمس والرياح من كل جانب كأنها جحر ضب خرب ليس فيها درس الا الفاظ القرآن والعقل فى معزل عن الدنيا والآخرة وصار المسلمون قاطبة لاهم لهم الا الالفاظ ظانين ان البركة فى مجردها وأما السمع فالاغلب عنه معزولون ألا فلتحضرا أيها العالمان ولتريا ما أحدث الدهر بعدكما

«١» كان هذا قبل طبع الكتاب ولقد ترقت كتاتيبنا رقيا حسناً فنحمد الله حمداً كثيرا بهمة اخواننا فى نظارة المعارف

تريا تحقيق آية اليهود اذ قال فيهم (ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون) أى يقرؤن ولايفهمون وقوله فيهم مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً بئس مثل قوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين) ولقد بلغنا ان تعليم المسلمين فى غالب الاقطار على هذه الشريطة من شرق وغرب لا الاندلس اذ لم يبق لها وجود بل صارت بلاداً بدل دينها كفرا واحلوا قومهم دار البوار وأماعلومنا ومعارفنا فلا نشرع فيها الا بعد حفظ القرآن اذ يمضي شطر من حياتنا ويمضي زمن غرس بذر الاخلاق فيشب الطفل على الجبن والخوف والهلع وسلب الارادة بتهديد المعلم وضربه فاذا قيض الله له من يعلمه لم يجد ذلك العلم الا يسيرا مع التكلف في زمان الفتوة والكهولة وقلما تصلح الاخلاق بعد زمان الصبا

ويا ليت تعلمنا العلوم بعد ذلك على طريقة حسنة كافلة بالنجاح وانما زاد الامر وكثرت الشراح والحواشي والتفاسير واختلطت المذاهب وتشعبت الفروع فى النحو والصرف . وصار علم البلاغة اسما لامسمى له الا السعد وشرحه وحواشيه

التى هى عبارة عن كلام معمى كله تفلسف في الآلات بغير
وصول للمقصود من فهم القصائد والرسائل وكلام العرب والقرآن
والحديث بل اذا نظرتما لم تريا الا قواعد مجردة كقواعد المنطق
فلا تطبيق له على المعقولات ولا للمعانى والبلاغة على الكلام
وان حصل التطبيق فانما يكون بمجرد الاشكال والجواب ويقرأ
علم الفقه والكلام والاصول والتفسير والحديث والاعتناء
بالثلاثة الاول اكثر وبالاخيرين أقل بل تارة يقرأ للتبرك وتارة
تطبيقاً على العلوم العربية لاسيما النحو ولقد صدق ظنكما وان
العادة حاكمة على الناس وطريقة التعليم رديئة جداً صعبة لا توصل
الى المقصود فاذا حضر احد من الريف الزم بحفظ اعراب
البسملة ووجوهها التسعة مع انه لا يدرى ماهو الاعراب وما
هي الصفة وما هو الموصوف وبالجملة فالعناية على وجه العموم
منصرفة للآلات وهي قواعد اللغة لا اللغة نفسها اذهى ذهبت
ريحها ولقد وقع الاسلام كله الآن فى هاوية الجهل ولكن
جاء الغربيون وهم اهل اوروبا بسيلهم الجارف على الشرق وبخيلهم
ورجلهم وشاركوا الشرقيين فى الاموال والاملاك ووعدوهم
وما يعدونهم الا غروراً وبثوا طرق تعليمهم في بلاد المسلمين

فنبه بعض علماء الازهر لهذه الطريقة الحديثة واشار بعضهم بتسهيل التعليم وادخال علم الحساب والهندسة وتخطيط البلدان وهاجم العلماء الآخرون تارة يثبتون وتارة ينفون وقد اخذت روح العلم تدب فيما بيننا

وهكذا فتحت فى مصر مدارس يتعلم فيها العلوم التى بها نظام الحكومة واسست الجمعيات ومدارس لتعليم الفقراء واظنها أحسن طريقة نعلمها فيعلمون شيئاً من القرآن مع معناه والخط والحساب والاملاء والآداب الاسلامية والعبادات ومحاسن الاخلاق وصنعة يعيشون بها وقواعد العربية والانشاء والترسل وقد فاقت فى ذلك كله المدرسة التى انشأها خديو مصر عباس باشا الثانى فى هذه الايام وجميع المدارس شرقية وغربية يعلمون علوما متعددة فى أوقات منتظمه ونجاحها ظاهر فخلط العلوم لايضر بطريقة التعليم وهذه هى طريقة ظاهرة النجاح ولو ان المسلمين فى جميع الاقطار قاموا باعمال مثل هذه في التعليم لارتقى الاسلام في أقل من نصف قرن ولكن مادام الحال على هذا المنوال بقى الانحطاط إذ المتعلمون ماتخرجوا فى صغرهم الا على أيدى هؤلاء الجهال الذين يقرأون مالا

يعقلون فيشيب الانسان المتعلم ولم يتفكر يوما فى حالة الأمم الاسلامية ولا حرية له ولا ذنب عليه وانما الذنب على طريقة التعليم في الصغر التى ضربت عليه بالذلة والمسكنة

فها نحن الآن ندعو الى نسخ هذه الطريقة وان تؤلف كتب غير هذه التى بايدينا فى جميع الفنون وتعلم جميع العلوم كما ذكره الغزالى في الاحياء ويرشد الناس الى الصناعات حتى نصل الى المدنية الصحيحة ولقد ينجع كلامنا الان اكثر من زمان ابن خلدون فاننا أحيط بنا من كل جانب وذقنا جزاء مافرطنا فى الكتاب وقيل ذوقوا ماكنتم تكسبون ولنترك ماوجدنا عليه آباءنا ولا نكون كالذين قيل لهم (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدن ولقد صار قراء القرآن فى هذا الزمان تضرب بهم الامثال فى سوء الاخلاق والفقر اذهم مجردون عن كل دين ودنيا في الغالب الامن قيض الله له من يدخله الجامع الازهر فقد يرقي الى طبقة العلماء ولكن يبقى محكوما بعادة التدريس المضره ولقد دار الحديث بيني وبين أحد مشايخي الجامع الازهر اثناء تأليف هذا الكتاب فقال

بلغنى انكم تلومون العلماء على ترك العلوم الطبيعية والتاريخية
والفلكيه وغيرها فقلت له نعم فقال اليست الطبيعة كفراً ألا
تتذكر انهم نصوا على ذلك وأنت حضرت فى الازهر عندنا
هذا الكلام فقلت نعم ولكن علمت ان هذا ليس له وجود إلا
فى الورق وتحققت بعد ذلك من كلام أكابر علمائنا رحمهم الله
تعالى كالغزالى وغيره انها أعظم طريق للتوحيد بل صرح القرآن
بان معرفة الكون من طبيعة وفلك وغيرهما هى الطريقة المثلى
للوصول للخالق بل العالم هو الذى يعرف تلك العلوم مع الحذو
بها حذو الدين وسردت له أدلة من هذا القبيل وقلت له لقد
الفت في هذا الموضوع نفسه كتباً وأوردت له منها اشياء مما
في الذاكرة فرأيت بوارق السرور تلمع فى جبينه واستبشر
فسرنى ذلك وعلمت ان الامة تحتاج الى من يرشدون العلماء
الى مابه صلاح الخلق ولقد وجدت نفسي مغرمة بهذا العمل
مع علمى بقصور باعى ولكن أودى مافى عنقى من الأمانة لادافع
بها عن نفسي يوم لاينفع مال ولابنون الا من أتى الله بقلب
سليم ثم قال انهم يذمون طريقة التعليم فهل توافق على ذلك
قلت نعم فقال وكيف ذلك اليس التعليم عندنا يعلم فهم العبارات

الصعبة فقلت له لم نخلق لذلك فهو ضياع للحياة فى فهم اصطلاح بعض الأدميين وهم هؤلاء المعربون مع البعد عن المقصود الاصلى ولاذكرك ياسيدى بعبارة منك فى الدرس ألم تقل لنا (من اتبع الحواشي ماحواشى) فقال نعم فقلت وهل تركت الحاشية فقال لا فقلت له وما المانع من اتباع الحق فسكت فقلت له أجيب انا ان العادة جرت ان الطلبة لا يتعلمون الا على شيخ يأتى لهم بالغرائب فاذا تركتم الحاشية ووجدوا غيركم يقرؤها ذهبوا اليه فقال نعم فتذكرت قول ابن خلدون ان العادة استحكمت ولقد آن للمسلمين العدول عن هذه الطريقة المشؤومة وكل من سعي فى ازالتها فله اجر بنى اذ يكون مجددا لهذه الامة التى تنكست اعلام مجدها ودك سور مدنيتها ولننقل من كلام ابن خلدون ما استحسناه في الكلام على التاليف وكثرتها واختصاراتها ووجه الصواب فى تعليم العلوم قال رحمه الله تعالى فصل فى ان كثرة التأليف فى العلوم عائقة عن التحصيل

اعلم ان مما اضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم

له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو اكثرها ومراعاة طرقها ولا يفنى عمره بما كتب فى صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون مرتبة التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكى بكتاب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمى وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه على أنه يحتاج الى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهى كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضى في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الامر بدون ذلك وكان التعليم سهلا ومأخذه قريباً ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التى لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل ايضا علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن

الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم
وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه الا في القليل
النادر مثل ما وصل الينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل
من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام
ظهر من كلامه فيها انه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة
الا لسيبويه وابن جنى واهل طبقتهما لعظم ملكته وما احاط
به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل
ذلك على أن الفضل ليس منحصرا في المتقدمين سيما مع ما
قدمناه من كثرة الشواغل بتعدد المذاهب والطرق والتآليف
ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود
والا فالظاهر ان المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له
بتحصيل علم العربية مثلا الذي هو آلة من الالات ووسيلة فكيف
يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء

﴿ فصل ﴾

(فى ان كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم)

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء فى العلوم يؤلفون بها ويدونون منها برنامجا مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وادلتها باختصار فى الالفاظ وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسراً على الفهم وربما عمدوا الي الكتب الامهات المطولة فى الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب فى الفقه وأصوله وابن مالك في العربية والخونجى فى المنطق وامثالهم وهو فساد فى التعليم وفيه اخلال بالتحصيل وذلك لابد فيه تخليطا على المبتدى بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتى ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم يتتبع الفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعانى عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لان الالفاظ المختصرات تجدها لاجل ذلك صعبة عويضه فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعلم في تلك المختصرات اذا تم على سداده

ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة مايقع في تلك من التكرار والاحالة المفيدين لحصول الملكة التامة واذا كثر التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له والله سبحانه وتعالى اعلم

﴿ فصل ﴾

(فى وجه الصواب فى تعلم العلوم وطريق افادته)

اعلم ان تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيداً إذا كان بالتدريج شيئاً فشيئاً وقليلا قليلا يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ويقرب له فى شرحها على سبيل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول مايرد عليه حتى ينتهى الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة فى ذلك العلم الا أنها جزئية وضعيفة وغايته انها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين من

تلك الرتبة الى اعلى منها ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن
الاجمال ويذكر له ماهنالك من الخلاف ووجوهه الى ان ينتهى
الى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شب فلا يترك
عويصا ولا مهما ولا متغلقا الا وضحه وفتح له مقفله فيخلص
من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو
كما رأيت انما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض
فى اقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا
كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طرق
التعليم وافادته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة
من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مرانا
على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه وعى ذلك وتحصيله ويخلطون
عليه ويلقون له من غايات الفنون في مباديها وقبل أن يستعد
لفهمها فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا ويكون
المتعلم أول الامر عاجزاً عن الفهم بالجملة الا فى الاقل وعلى
سبيل التقريب والاجمال وبالامثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد
فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها
عليه والانتقال فيها من التقريب الى استيعاب الذى فوقه حتى

تتم الملكة فى الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن واذا ألقيت عليه الغايات فى البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم فى نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى فى هجرانه وانما أتى ذلك عن سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذى أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلي نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان اومنتهيا ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من اوله الى آخره ويحصل أغراضه ويستوفى منه على ملكة بها ينفذ فى غيره لان المتعلم اذا حصل ملكة ما فى علم من العلوم استعد بها لقبول مابقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستوفي على غايات العلم واذا خلط عليه الامر عجز عن الفهم وادركه الكلال وانطمس فكره ويئس عن التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدى من يشاء وكذلك ينبغي لك ان لا تطول على المتعلم الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لانه ذريعة الى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول ملكة بتفريقها واذا كانت أوائل العلم وأواخره

حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطا واقرب صيغة لان الملكات انما تحصل بتتابع العقل وتكراره واذا تنوسى العقل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم مالم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة فى التعليم ان لا يخلط على المتعلم علمان معا فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الآخر فيستغلقان معا ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة واذا تفرغ الفكر لتعليم ماهو بسبيله مقتصراً عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب اه

ولقد مشى على هذه الطريقة فى الاختصار والتعليم مدرسوا المدارس الاميرية فى بلادنا المصرية فألفوا كتب العربية تباعا كتابا بعد الآخر واتبعوا قول ابن خلدون رحمه الله تعالى فالاول كتاب بسيط جدا والثانى عبارة عن الكتاب الاول مزيدا فيه عبارات أخري وهكذا الثالث عن الثانى مع زيادة عبارات والرابع فى فن البلاغة ونجحت نجاحا باهرا فها هى مصر الآن فيها مدارس الجمعيات الخيرية حسنة النظام وتعليمها

علوم العربية وتأليف كتبها أتي بالمقصود ألا فليعم التعليم فى الكتاتيب على ذلك النمط الاول وليسر التعليم فى العلوم كلها على النسق الثانى واول الغيث قطر ثم يسكب ولعمرك ليست هذه العلوم مقصودة لذاتها فعلوم العربية والقراءآت بل والتفسير والحديث انما يراد بها الاستطلاع على العلوم التى بها الحياة الحقيقية فى الدنيا والآخرة من العلوم التى هى غذاء والتى هى دواء جسما وعقلا كما أوضحناه سابقا ولقد جعل الغزالى رحمه الله تعالى علوم العربية كلها قشور او جعل التفسير اسفل القشرة مما يلى اللب بل جعل المفسر كالقارىء غاية الامر انه أرقى منه اذ هو أقرب الى العلوم اما حافظ الروايات وقارىء علوم البلاغة فانما هو فى القشر البحت وكذلك عالم اللغة فالمدار انما هو على نفس العلوم

ويجدر بنا ان نذكر هنا مقالاتنا التى عنوناها سابقا (المقالات الاصمعية)

﴿ المقالات الاصمعية ﴾

(المقالة الاولى)

الترقى فى الازهر

الارتقاء سنة طبيعية في الكائنات من ادناها الى اعلاها حتى يشمل الامكنة والازمنة والجمادات والناميات والنواميس نفسها . نرى الامم فى ارتقائها وتمدينها تكون آخرتها خيراً من أولاها وشبابها خيرا من طفوليتها فاذا ذهبت وخلفتها أخرى ارتقت عنها في ظواهر الاحوال

عرج على شمال المسكونة وجنوبها فى قطبيها فهل تجد هناك الا أدني الحيوان اذ لا تصلح للسكنى فان ارتقيت الى أواسط المعمورة حيث لا تفرط البرودة رأيت الحيوان والنبات والانسان على تمام النمو فهاهنا ارتقاء في المكان وان نظرت الى العناصر وجدت بعضها أرقي من بعض وتدخل فى تركيب النبات وبعضه أرقى من بعض وهكذا عالم الحى الذى ينتهى بالانسان وبالجملة فسنة الترقى هى سنة الله « ولن تجد لسنة الله تبديلا »

وكلما خمدت أمة وسكنت حرارة شبابها وتدلت فى الحضيض ارسل الله لها من يوقظها من غفلتها فان هبت للعمل

ارتقت والا فلتنذرها بالزوال من الوجود

هاهي الامم ارتقت حولنا في جميع مواد الحياة من التجارة والزراعة والصناعة وهاهم اغلب المسلمين في بقاع الارض ليس لهم نصيب من الترقي الا كسراب بقيعة فياليت شعري ما الذي اصاب جسم هذه الامة وأي مكروب من مكروبات الاجتماع فتك بجسمها وما الذي دهى الاسلام ؟ لعمري ان الاسباب لكثيرة ومن أهمها وأعمها الجهل بالحد الفاصل بين علوم الدين والدنيا حتى وقفنا الآن في حيرة لا يدري عقلاؤنا ما قسم الدنيا وما قسم الدين فكان هذا هو العائق الاعظم عن تحصيل مراد الحياة والترقي فيها حتى انك ترى الجامع الازهر اكبر كلية اسلامية يعتقد كثير من كبار الامة وعقلائها ان اهله لو عرفوا غير العلوم الاحد عشر لاضمحل الدين وتقلص ظله وها هنا يحسن السؤال أهؤلاء العقلاء معذورون واذا اتبعوا خطوات كثير من اؤلئك الزعماء في ذلك فهل ينجيهم عند الله نقول ان هذا الداء عضال تمكن من جسم الامة فلن يخرج الا بقوة علمية وتأثير صحيح فوجب على من نظر بعين ارتسم على شبكتها علم تخطيط البلدان وما سطره أكابر علماء الاسلام ان يشرحه

لعقلاء الامة ويظهر ما فى بطون الدفاتر مما سطره الأقدمون
ليطلع عليه عقلاؤنا وكبراؤنا ليحكموا بين عقل قديم راجح وجهل
حادث فاضح ولينظروا في أمتهم وشؤونها وسنبين لعقلائنا ما
نعلمه من آراء أكابر علماء الاسلام ولا نقصر فيما يجب علينا
فان هذا الزمان هو الذى يجب فيه نشر العلم ولتكن ابحاثنا هكذا

كليات الاسلام وابن خلدون

الغزالى والعلوم فى الازهر

الازهر وابن رشد

الكليات والترقى

الواقفون والعلماء

ونحو ذلك من المباحث ولنبين ما يجب علينا تلقاء أمتنا
حتى نكون قد ارضينا ضميرنا وديننا ولكي يحاسب كل انسان
نفسه وينظر بعقله بين اقوال السادة الكبراء من علماء الاسلام
فيما يجب على رجال الدين من العلوم ولا يخضع لبسيط حرم
لذيذ العلم ووقف عند طرف قصير من الدين واتبع خطوات
الخبط فى طرق التعليم وليتبين ذلك كله فى مقالاتنا وهذا ان
شاء الله تشرح به صدور الكبراء وأهل الذكاء ومحبو الاصلاح

﴿ المقالة الثانية ﴾

(كليات الاسلام وطريقة التعليم فى الازهر)

ياقوم أرى الامم تنظر في شؤن الحياة حقيرها وجليلها كبيرها وصغيرها وقد ذهلت عما يصيب الازهر الشريف فما أدرى أفي جسم الامة شلل أصاب اعضاءها فلا تحس أم وقر في آذانها فلا تسمع أم تخبط خبط عشواء فى ليل بهيم وجود الحياة عدم وصحتها مرض والداء عضال شقينا به أزمانا طويلة وأعصراً وحقبا وكأنها دنت ساعة الرحيل وعذاب الهرم الشائن وتوديع أيام الدنيا وقيام ساعة الوعيد والانذار بالويل والنشور

يرون كليات العالم تقدمت وطرق التعليم ارتقت وسبلها تزينت بالانوار وابتهجت والطرق فى كليتنا العظمى في هرمها خالفت المعقول والمنقول والاوائل والاواخر وترى الناس سكارى وما هم بسكاري حيارى وما هم بحيارى ولكن عذاب التقليد والجهل شديد . يا قوم ايجمل في دين المروءة ان يتربع الطالب في الازهر عشرين سنة مثلا فى كتب طالت فقصرت وضخمت فاعتلت فيقرأ المتن والشرح والحاشية والتقرير ثم شرحا آخر وحاشيته وتقريرا وهلم جرا. وربما كان على الكتاب عشرون

كتابا وعلى القاعدة عشرون قولا وهناك تكون الدهشة والحيرة في حفظ المشاغبات والمناقضات والسباب والشتائم والقذف بلغة انحطت درجتها وضاعت بلاغتها وذهبت ثمرتها ففى النحو يحفظ قول « ابن جنى وابن عصفور والكسائى وسيبويه والفراء وغيرهم من الائمة » والسجاعى والرضى ويس والصبان وغيرهم من المؤلفين وهكذا في كل فن حتى اذا وصل الى تفسير القرآن فانما يقرؤه للبركة لا للفهم واليقين مكتفيا بما رزىء به الفؤاد من تلك المشاغبات مقتنعا بما عنده من العلم بل « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » نعم هذا داء أعيا العلامة ابن خلدون دواؤه كما قدمنا وقال ان المرض استحكم والشلل عم الاعصاب فهيهات هيهات أن ينجع الدواء . أحيل القارىء على المقالة التي ذكرناها عن ابن خلدون كيف أبان القول وحذر وأنذر وأوجب نسخ هذه الطرق باقرب منها ووضع التعلم على ثلاث درجات لاغير فى كافة الفنون مبتديء ومتوسط ومنته مع مراعاة احوال الزمان والمكان

ومن العجيب ان الغزالى رحمه الله قال كقوله (وبين الرجلين أربع قرون وقد مضى الثانى وله نحو خمسة قرون)

ياقوم قد حق القول علينا قد مضي اسلافنا وذهلوا عما
انذر به هذان المصلحان وجهلوا أو تجاهلوا حفظا للمراكز وصونا
للمقامات وسترا على الجهل فاستحكمت العادة بعدهم وتأصلت
فينا فاصبح رجالنا وعقلاؤنا ونوابنا لا يدرون ما يقولون ثم هم
بعد ذلك يرجعون الى سلالة تعلمت من أخرى صموا آذانهم
عن النداء ياقوم رعاكم الله هلا قرأتم ففهمتم ماسطره ابن خلدون
مما ذكرناه آنفا فان الرجل اسمى نظرا مما تعظمون وأرقى عقلا
وأحكم رأيا ممن تعتقدون الم يقع ما انذر به من خمسة قرون الم
تكال المدافع رؤس جبالنا وتتوج قلاعنا باكاليل من نار ونحن
راضخون صامتون صابرون « انا لله وانا اليه راجعون » هل
صواعق المدافع ونيران بارودها ورعد مقذوفاتها الا اثر من
آثار العلم وهل تفريق الجامعة والتصديق بالخزافات والتواكل
والتخاذل الا أثر من آثار الجهل حتى قبضت هولندا الغربية
الصغيرة على جاوة الشرقية الكبيرة واذاقتهم العذاب الهون
بما كانوا يكسبون. ياقوم هداكم الله ان ابيتم الا التقليد فاقرؤا
ما كتبناه عن ابن خلدون وان حكمتم العقل فما لكم لا تنظرون.
واياكم والرضوخ لقول اقوام عيونهم فى غطاء عن الذكرى فهم

لا يبصرون (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)
وان رأيتم ان الامر ضاع والداء استحكم وعز استئصاله فلم لا
تنشؤن كلية تحيون بها مجدا هدم ودينا عفا ودنيا مضت انحن
اصبحنا أقل أهل الارض قاطبة أيكون ديننا اشرف الأديان
ونحن اكسل الأمم حتى ترقى اليابانى والأوروبى والامريكي ارتقى
المثلث وعابد الشمس وبقى الموحد يرسف فى قيود الذل والنكال
(فأن اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)
هاهى صواعق نيران المـدافع وكسف القلل النازلة من سماء
المدنية الى أرض الجهالة « فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك
نجزى القوم المجرمين »

﴿ المقالة الثالثة ﴾

(نظام الازهر)

الازهر أجل مدرسة اسلامية منها نبغ كثير من الفضلاء
والعلماء على ممر الدهور والاجيال وقد سار على شاكلتها مدارس
اخرى في مساجد امهات القرى كرشيد ودمياط وغيرها
فوجب علينا النظر فيها ومن أعجب العجب ان تتعاقب النذر

ويتوالى الارشاد والناس صامتون لا يبدون حراكا . هذا النظام
قد ندد عليه ابن خلدون واكابر حكماء الاسلام بقى الى الآن
أول حركة للطالب أن يحفظ القرآن حفظاً بلا فهم فاذا أتمه
وهو فى الغالب ابن ١٥ سنة انتظم في سلك تلك المدرسة الجامعة
وهو لا يعرف من الدين الا اسمه ولا من القرآن الا رسمه
ناشدتكم الله ياقوم أليس يضيع زمنه بلا علم ولا تعلم أليس التلميذ
فى المدارس قد يأخذ البكالوريا وسنه ١٥ سنة فيكون حفظ
القرآن وحده بلا معنى كالابتدائية والتجهيزية أليس من الصواب
الرجوع الى ماقاله ابن خلدون ولا ريب أن طريقته تشبه طريقة
مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ومدرسة القبه لمولانا العباس

« رأى الكاتب الاصمعي »

الذى أراه ان تجعل[1] له مدرسة ابتدائية تحت نظر الازهر
وتدار بادارته وتلك المدرسة يدخلها من عرفوا مبادئ القراءة
والكتابة فى الكتاتيب ثم يقرؤن النحو والانشاء والحساب
وعلوم الاشياء ممزوجة بمبادىء التوحيد وعلوم الاخلاق

---

١ بعد ظهور هذه المقالة قام بهذا العمل العلامة الشيخ محمد شاكر فنحمد الله ونشكره

وبالجملة تكون على مقتضى نظام المدارس الخيرية مع حفظ القرآن وفهم معناه بوجه بسيط كما هو الحال في مدرسة القبة التى هى حسنة كبرى من حسنات مولانا العباس حتى اذا أتم الطالب سنين معدودة امتحن فاذا نال الشهادة انتظم فى سلك الطلبة الذين يخوضون في غايات العلوم ولعلك يا أخى تقول ان الازهر ليس عنده استعداد لانشاء مدرسة . قلنا لم لا يجعل قسم خاص يكون فيه الدرس على هذا النمط حتي يكون القرآن معروفاً لفظاً ومعنى فان قلت ان القديم يبقى على قدمه أقول هذا هو الانحطاط بعينه واذا كانت الامة تشكو من القضاء الشرعى وانحطاطه وتدعو بالويل والثبور مع انتشار الخرافات بين الخاصة والعامة ألم يكن ذلك من تلك التربية الضعيفة وكيف يبقى الطالب ١٥ سنة أو نحوها وهو لم يدر فى الدنيا شيئاً ثم يتعلم بعد ذلك أليست الملكات قد رسخت عنده وتعسر اقتلاعها أليس ابقاؤه تلك المدة بين يدى معلم جاهل كافياً لاذهاب الفطنة من رأسه وخروجه من الحياة صفر اليدين أليست العلوم تبقى بعد ذلك سطحية اذ المؤثر على المرء مايسمعه فى أول حياته ويتلقاه فى مبدإ صباه وهل أتاك نبأ التدريس بعد ذلك وهو لعمرك نبأ عظيم

لا يدخل العلم فى الاذهان الا من وراء حجب الجدال العنيف

يبتدىء الطالب وهو لا يحسن قراءة سطرين ولا فهم جملتين ولا اعراب كلمتين وأول مايبدأ إذ ذاك بالبسملة واعرابها وان لها تسعة أوجه ويقال بسم الله الرحمنِ الرحمنَ الرحمنُ وان هذه الاوجه الثلاثة مع أوجه الرحيم الثلاثة يضربها فى بعضها تبلغ تسعة ثم يقال له هذا هو النعت المقطوع ففى حال النصب يكون مفعولا لفعل محذوف تقديره امدح الرحمن أمدح فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة ظاهرة فى آخره والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره أنا والرحمن منصوب وعلامة نصبه فتحة ظاهرة فى آخره وهذا بعض اعراب وجه من الاوجه التسعة ويجرى الباقي على مقتضاه فيكون اعراب الاوجه التسعة يشغل كراسة بتمامها ثم يحفظ هذا النظم ليعلم ان وجهين منها ممنوعان وليكون ضابطا وقانونا

ان ينصب الرحمن او يرتفعا   فالجر فى الرحيم قطعا منعا
وان يجر فاجز فى الثاني   ثلاثة الاوجه خذ بياني
فهذه تضمنت تسعا منع   وجهان منها فادر هذا واستمع

ومن المدهشات ان علم الفقه تقرأ عباداته ومعاملاته من

البيع والشراء والقرض وغيرها تعبداويبقى الطالب ما بين العشرة الى الخمس عشرة سنة وهو يتعلمها ثم يجلس على منصة الاحكام فيضل فيها بعد أن ضاع الزمان ومات شطر من عمره وهـذا التلميذ يدخل مدرسة الحقوق ويقرأ لغتين فيها ويلم باطراف القوانين والاحكام ثم يكر كرة على اللاتينية فيتعلمها ليعرف كيف يفهم القانون الرومانى كل ذلك في أربع سنين وكيف يرى ذلك القاضي الاهلي نفسه ارفع مقاما من ذلك العالم الديني أليس هذا كله من جراء طريقة التعليم ورداءتها أقول هذا وأنا أعلم أنه لن يقدر هذا القول حق قدره الا علماء الامة وأكابرها والمأمول من اولياء الامور أن ينظروا في هذه المدرسة وينقذوا طلبتها وطلبة مدارس أخرى ربما بلغت ١٥ الفا من الضياع واذا كان نظام التعليم يبقي على ماهو عليه الآن فلا غرابة اذا كان القاضي والمفتى المتخرجان يقضيان ويفتيان بما نرى ونسمع كل يوم وكيف يجوز السكوت على هذه الوصمة وقد احاطت بنا الافرنج من كل جانب واحدقت بنا الاعين تزلقنا بابصارها فمهما سهونا اولهونا فدوسنا بالقدم وسوقنا الى العدم اسرع من لمح البصر سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا

﴿ المقالة الرابعة ﴾

(الغزالى والعلوم فى الازهر)

ذكرنا فيما سبق ماقاله علماؤنا رحمهم الله تعالى ومايوجبه العقل والنقل في طريقة التعليم وتغييرها واتباع احسنها والآن نبحث فى العلوم الواجب على الامة معرفتها والاستبصار بها فاني علمت ان كثيرا من عقلائنا يخدعهم قول القائلين ان علوم الدين اذا صحبت غيرها اضر ذلك بها موهمين الناس ان علوم الدين الاسلامى قاصرة على مايقولون ولا شاهد على ما يقولون

من لى بان يقرأ العقلاء ماسطره الغزالى فى الجزء الاول من الاحيا من الحط على العلماء وذمه الاقتصار على فنون محدودة وترك الطب الذى يعتبره علماء الشريعة حجة في الفتاوى وبين الاسباب الداعية للتوغل فى الفقه وأبان ان ذلك للدنيا وحدها لا للدين وقال ما نصه (اعلم ان الغرض لا يتميز عن غيره الا بذكر أقسام العلوم والعلوم بالاضافة الى الغرض الذى نحن بصدده تنقسم الى شرعية وغير شرعية واعنى بالشرعية ما استفيد من الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه ولا يرشد العقل اليه كالحساب والتجربة مثل الطب والسماع مثل اللغة.

فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم الى ماهو محمود والى ما هو مذموم والى ما هو مباح فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم الى ما هو فرض كفاية والى ماهو فضيلة وليس بفريضة أما فرض الكفاية فهو كل علم لايستغنى عنه في قوام امور الدنيا كالطب اذ هو ضرورى في حاجة بقاء الابدان وكالحساب فانه ضرورى في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها وهذه هى العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج اهل البلد واذا قام بها واحد كفي وسقط الفرض عن الآخرين فلا يتعجب من قولنا ان الطب والحساب من فروض الكفايات فان اصول الصناعات ايضا من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة فانه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك اليهم وعرضوا انفسهم الى الهلاك فان الذى انزل الداء انزل الدواء وارشد الى استعماله واعد الاسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله واما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج واما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات

وعلم الشعبذة والتلبيسات واما المباح فالعلم بالاشعار التي لا سخف فيها وتواريخ الاخبار وما يجرى مجراه) ثم قال بعد كلام طويل مانصه (فان قلت لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا وألحقت الفقهاء بعلماء الدنيا — فاعلم ان الله عز وجل اخرج آدم من التراب واخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق فاخرجهم من الاصلاب الى الارحام ومنها الى الدنيا ثم الى القبر ثم الى العرض ثم الى الجنة او الى النار فهذا مبدؤهم وهذا غايتهم وهذه منازلهم وخلق الدنيا زادا للميعاد ليتناول منها مايصلح للتزود فلو تناولها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة الى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان الى قانون يسوسهم به وطريق التوسط بين الخلق اذا تنازعوا بحكم الشهوات فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده الى طريق سياسة الخلق وضبطها لينتظم باستقامتهم امورهم في الدنيا ولعمري انه متعلق أيضا بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة فان الدنيا مزرعة للآخرة ولا يتم الدين الا بالدنيا والملك والدين توأمان فالدين اصل والسلطان حارس وما لا اصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع ولا يتم الملك والضبط الا

بالسلطان وطريق الضبط فى فصل الحكومات بالفقه وكما أن
سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين فى الدرجة الاولى
بل هو معين على مالا يتم الدين الا به فكذلك معرفة طريق
السياسة فمعلوم ان الحج لا يتم الا ببذرقة تحرس من العرب في
الطريق ولكن الحج شيء وسلوك الطريق الى الحج شيء ثان
والقيام بالحراسة التى لا يتم الحج الا بها شيء ثالث ومعرفة
طرق الحراسة وقوانينها شيء رابع وحاصل فن الفقه معرفة
طرق السياسة والحراسة) ثم قال رحمه الله (ولو سألت الفقيه
عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من
التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج الى شيء منها
وان احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فلا
يزال يتعب فيها ليلا ونهارا فى حفظه ودرسه ويغفل عما هو
مهم نفسه فى الدين واذا روجع فيه قال اشتغلت لانه علم الدين
وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه والفطن
يعلم انه لو كان غرضه أداء الامر في فرض الكفاية لقدم عليه
فرض العين بل لقدم عليه كثيرا من فروض الكفايات وكم من
بلدة ليس فيها طبيب من اهل الذمة ولا يجوز قبول شهاداتهم

فيما يتعلق بالاطباء من احكام الفقه ثم لا نرى احدا يشتغل به ويتهافتون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة واهمال مالا قائم به هل لهذا سبب الا ان الطب ليس يتيسر الوصول به الى تولى الاوقاف والوصايا وحيازة مال الايتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الاقران والتسلط به على الاعداء هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس علماء السوء فالله المستعان واليه الملاذ فى ان يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ويضحك الشيطان

﴿ المقالة الخامسة ﴾

قال رحمه الله (لا ينبغي للطالب ان يدع فنا من فنونه المحمودة ولا نوعا من من أنواعه الا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيه والا اشتغل بالاهم منه واستوفاه وتطرف من البقية فان العلوم كثيرة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال الانفكاك من

عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس أعداء ماجهلوا « قال تعالى واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم » قال الشاعر

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مراً به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد الى الله تعالى او معينة على السلوك نوعا من الاعانة ولها منازل مرتبة فى القرب والبعد والمقصود والقوام بها حفظة كحفاظ الرباط والثغور ولكل واحد مرتبة وله بحسب درجته أجر فى الآخرة) انتهى كلامه بالحرف الواحد ثم نقول عجباً كيف يدعى قوم انهم عرفوا التوحيد وهم يجهلون ماذرا الله في الكائنات أم كيف يقرأون القرآن وهم عن آيات الله فى السموات والارض معرضون (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) من لى بان يقف عقلاء الامة على مابين أيدى القوم الآن من عبارات مشوشة مشؤومة وماسطره المتقدمون هذا أعظم كتاب بين ظهر انينا (جمع الجوامع) وكم يدندنون ويطنطنون بقولهم « شكر المنعم واجب » وكثيراً ماجعلت هذه العبارة امتحانا للطالب فى علم الاصول حتي يقرر عالما فياليت شعرى ما الذى يستفيده القارىء من تلك العبارات والمجادلات والمناقضات والخلاف

بين أهل السنة والمعتزلة وبعد هذا وذاك تقول احدى الحواشى
لم يرد فى علم الفقه ان شكر المنعم واجب . . .

دعنا من هذا الخطب الجليل المدلهم العظيم وانظر الشكر
فى الجزء الرابع من الاحياء وكيف فصله وقسمه وتأمل كيف
ذكر سعادة الانسان فى دنياه ودينه وكيف فصل السعادات
تقسيما عجز عنه فطاحل علماء الغرب وها هو العلامة جون لبك
الانجليزي احد أعاظم الانجليز الآن الذى يشار اليه بالبنان بين
أمته وجميع علماء أوروبا قد ألف كتابا فى سعادة الحياة وترجم
الى اكثر اللغات واذا قارناه مع ضخامته وحسن تركيبه وترصيعه
وما حوي من حكم وامثال وجمال لانجده قسم السعاده وفصلها
ورتب اقسامها واستوفاها كما فعل الغزالى فى باب الشكر مع
الوجازة فليراجعه من أراد ولينظر ويقارن بين عالم شرقى مضي
له تسعة قرون وعالم غربى وليتأمل فلسفة الفريقين وحكمة
الرجلين فى باب السعادة (الذى جعله الغزالى استطرادا فى باب
الشكر كما قدمنا) وكيف ادخل رحمه الله جميع اقسام العلوم
والمعارف وأحوال الدنيا والآخرة فيها ثم يكر كرة على جمع
الجوامع ويقرأ شكر المنعم فيه فبماذا ياقوم تحكمون قال علماؤنا

علوم العربية كلها من علوم الدنيا يقرؤها المسلم واليهودي والنصراني والمجوسي وعابد الشمس وكل صاحب دين ونحلة ولكن يتوقف عليها معرفة الكتاب والسنة فعلم الطبيعة ومعرفة ما خلق الله في الارض والسماء مما يتوقف عليها معرفة الله وجماله وحكمته في خلقه وان أبيت يا صاح الا الافصاح فاقرأ باب التفكر في الاحياء فهل تري الا نظرة في علم الطبيعيات التي حرم منها طلبة العلم وتعلمها اصغر تلميذ في مدارس أوروبا

هاهم يا قوم أهل الغرب قاطبة وتبعهم يابان الشرق يدرسون من كل علم طرفا أولا حتى اذا نالوه ووصلوا غايته الوسطى (الشهادة الثانوية) رأيت كل واحد اختار فنا للتضلع فيه وصار ركنا في الامة لهذا الفن يا قوم أليس هذا ما قاله الغزالي من نحو تسع قرون. يا قوم كنا ملوكاً على الاسرة فاصبحنا اذنابا للتقليد والجهل فهل أنتم منتهون ... أحيل القارئ على تفسير الرازي لينظر كيف ذكر فيه من كل فن من الطبيعيات والرياضيات والالهيات أتقول بعد هذا ان هذه العلوم ليست من الدين. يا قوم مالنا أصبحنا ننكر الضروريات وعميت علينا السبل. يا قوم أن فؤادي لينفطر الآن على ما أصاب جسم الامة وما دهي

رجالها وهذا مقدورى وغاية وسعى أخرج من حد الكتمان
وهل يجوز بعد هذا أن ينكر من تربوا تربية ناقصة حتى اذا
مروا على حكمة من حكم الله أو عجيبة من عجائبه قالوا هذا
ليس من الدين . العلوم شجرة أصلها ثابت في الافئدة فروعها
كل علم ثمرتها الاعمال وأصل العلوم معرفة الله تعالى وجماله
ولا سبيل الى ذلك الا بالعلوم الطبيعية التي جعلها الله أول
واجب على الانسان لمعرفته كما في مئات في الآيات وأقوال
اكابر العلماء وسنبين ذلك في المقال الآتي من كلام ابن رشد
صبحاً . أليس الصبح بقريب

﴿ المقالة السادسة ﴾

(الازهر وابن رشد)

ذكرنا في سابق قولنا طرفا من كلام ابن خلدون والغزالى
في رداءة التعليم والقصور في العلوم وها هو ابن رشد رحمه الله
قال (ان فعل الفلسفة ليس شيئاً اكثر من النظر في الموجودات
واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع أعنى من جهة ما هى
مصنوعاته فان الموجودات انما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها

وانه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم وكان الشرع قد ندب الى اعتبار الموجودات وحث على ذلك فيبين ان مايدل عليه هذا الاسم اما واجب بالشرع واما مندوب اليه فاما ان الشرع دعا الى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به فذلك بين في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى مثل قوله (فاعتبروا يا أولى الابصار) وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلى أو العقلى والشرعي معا ومثل قوله تعالى (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وماخلق الله من شيء) وهذا بالحث على النظر فى جميع الموجودات واعلم انه ممن خصه الله تعالى بهذا العلم وشرفه ابراهيم عليه السلام فقال تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض الآية وقال تعالى (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت) وقال (ويتفكرون في خلق السموات والارض) الى غير ذلك من الآيات التى لاتحصى كثرة اه ثم قال في موضع آخر (اعلم ان الذى قصده الشرع من معرفة العالم هو انه مصنوع لله تبارك وتعالى ومخترع له وانه لم يوجد عن الاتفاق من نفسه فالطريق التى سلك الشرع بالناس فى تقرير هذا الاصل

ليس هو طريق الاشعرية فانا قد بينا ان تلك الطرق ليست من الطرق اليقينية الخاصة بالعلماء ولا هي من الطرق العامة المشتركة بالجميع وهي الطرق البسيطة اعني بالبسيطة القليلة المقدمات التي نتائجها قريبة من المقدمات المعروفة بنفسها وأما البينات التي تكون بالمقاييس المركبة الطويلة التي تنبني على اصول متفننة فليس يستعملها الشرع في تعليم الجمهور فهل من سلك بالجمهور غير هذا النوع من الطرق اعني البسيطة وتأول ذلك على الشرع فقد جهل مقصده وزاغ عن الطريقة وكذلك ايضاً لا يعرف الشرع بامثال هذه المقاييس من الامور الا ما كان له مثال في الشاهد وما كانت الحاجة الى تعريف الجمهور به وكيدة مثل ذلك باقرب الاشياء شبها به كالحال في أحوال المعاد وما لم تكن لهم به حاجة الى معرفته في هذا الجنس عرفوا انه ليس من علمهم كما قال تعالى في الروح واذ قد تقرر لنا في هذا الاصل فواجب ان تكون الطريقة التي سلكها الشرع في تعليم الجمهور حدوث العالم من الطرق البسيطة المعترف بها عند الجميع وواجب ان كان حدوثه ليس له مثال في الشاهد أن يكون الشرع استعمل في تمثيل ذلك حدوث الاشياء المشاهدة فاما الطريق التي سلكها

الشرع فى تعليم الجمهور ان العالم مصنوع لله تبارك وتعالى
فانه اذا تؤملت الايات التى تضمنت هذا المعنى وجدت
تلك الطرق هى طريق العناية وهى احدى الطرق التى قلنا انها
الدالة على وجود الخالق تعالى وذلك انه كما ان الانسان اذا نظر
الى شيء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما وقدر ما ووضع ما
موافق فى جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس
والغاية المطلوبة حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل وبغير
ذلك الوضع أو بغير ذلك القدر لم توجد فيه تلك المنفعة علم
على القطع ان لذلك الشيء صانعا صنعه ولذلك وافق شكله
ووضعه وقدره تلك المنفعة وانه ليس يمكن ان يكون اجتماع
تلك الاشياء لوجود المنفعة بالاتفاق مثال ذلك انه اذا رأى
انسان حجرا موجودا على الارض ووجد شكله بصفة يتأتى
منها الجلوس ووجد ايضا وضعه كذلك وقدره علم ان ذلك
الحجر انما صنعه صانع وهو الذى وضعه كذلك وقدره فى ذلك
المكان واما متى لم يشاهد شيئا من هذه الموافقة للجلوس فانه
يقطع ان وقوعه في ذلك المكان ووجوده بصفة ماهى بالاتفاق
ومن غير ان يجعله هذا لك فاعل كذلك الامر فى العالم كله فانه

اذا نظر الانسان الى مافيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب
التى هى سبب الازمنة الاربعة وسبب الليل والنهار وسبب
الامطار والمياه والرياح وسبب عمارة أجزاء الارض ووجود
الناس وسائر الحيوانات البرية وكذلك الماء موافقا للحيوانات
المائية والهواء للحيونات الطائرة ولو انه اختل شيء من هذه
الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التى ههنا علم بالقطع أنه
ليس يمكن ان تكون هذه الموافقة التي فى جميع اجزاء العالم
للانسان والحيوان والنبات بالاتفاق بل ذلك من قاصد قصده
ومريد اراده هو الله عز وجل وعلم على القطع ان العالم مصنوع
وذلك انه يعلم ضرورة انه لم يمكن ان توجد فيه هذه الموافقة
لوكان وجوده عن غير صانع بل عن الاتفاق فاما ان هذا النوع
من الدليل قطعي وانه بسيط فظاهر من هذا الذى كتبناه وذلك
ان مبناه على اصلين معترف بهما عند الجميع احدهما ان العالم
بجميع اجزائه يوجد موافقا لوجود الانسان ولوجود جميع
الموجودات التى ههنا والاصل الثانى ان كل ما يوجد موافقا
فى كل جميع اجزائه لفعل واحد ومسدد نحو غاية واحدة فهو
مصنوع ضرورة فينتج عن هذين الاصلين بالطبع ان العالم

مصنوع وانه له صانع وذلك ان دلالة العناية تدل على الامرين معا ولذلك كانت أشرف الدلائل الدالة على وجود الصانع واما ان هذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود فى الكتاب العزيز فذلك يظهر من غير ما آية من الآيات التى يذكر فيها بدء الخلق فمنها قوله تعالى الم نجعل الارض مهادا والجبال اوتادا الى قوله (وجنات الفافا) فان هذه الآية اذا تؤملت وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الانسان وذلك انه ابتدأ فنبه على أمر معروف بنفسه لنا معشر الناس الابيض والاسود وهو ان الارض خلقت يتأتى لنا المقام عليها وانها لو كانت متحركة أو بشكل آخر غير شكلها أو في موضع آخر غير هذا الذى هى فيه او بقدر غير هذا القدر ما أمكن ان توجد فيها ولا ان نخلق عليها وهذا كله محصور في قوله تعالى « لم نجعل الارض مهادا » وذلك ان المهاد يجمع الموافقة فى الشكل والسكون والوضع وزائدا الى هذا معنى الوثارة واللين فما أعجب هذا الاعجاز وأفضل هذه السعادة واغرب هذا الجمع وذلك انه قد جمع فى لفظ مهاد جميع مافى الارض من موافقتها لكون الانسان عليها وذلك شىء قد تبين على التمام للعلماء فى

ترتيب من الكلام طويل وقدر من الزمان غير يسير والله يختص برحمته من يشاء واما قوله تعالى «والجبال أوتادا» فانه نبه بذلك على المنفعة الموجودة في سكون الارض من قبل الجبال فانه لو قدرت الارض اصغر مما هي كان كانت دون الجبال لتزعزعت من حركات باقي الاسطقسات اعني الماء والهواء واتزلزلت وخرجت من موضعها ولو كان ذلك كذلك لهلك الحيوان ضرورة فاذا موافقة سكونها لما عليها من الموجودات لم تعرض بالاتفاق وانما عرضت عن قصد قاصد وارادة مريد فهي ضرورة مصنوعة لذلك القاصد سبحانه وموجودة له على الصفة التي قدرها لوجود ماعليها من الموجودات ثم نبه أيضاً على موافقة وجود الليل والنهار للحيوان فقال تعالى « وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا » يريد ان الليل جعله كالسترة واللباس للموجودات ههنا من حرارة الشمس وذلك انه لولا غيبة الشمس بالليل لهلكت الموجودات التي جعل الله حياتها بالشمس وهو الحيوان والنبات فلما كان اللباس قد يقي من الحر مع انه سترة وكان الليل يوجد فيه هذان المعنيان سماه الله لباساً وهذا من ابدع الاستعارة وفي الليل أيضاً منفعة اخرى

للحيوان وهو ان نومه يكون فيه مستغرقا لما كان ذهاب الضوء الذى يحرك الحواس الى البدن الذى هو اليقظة ولذلك قال تعالى (وجعلنا نومكم سباتا) أي مستغرقا من قبل ظلمة الليل ثم قال تعالى « وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا » فعبر بلفظ البنيان عن معنى الاتقان الموجود فيها والنظام والترتيب وعبر بمعنى الشدة عما جعل فيها من القوة على الحركة التى لا تفتر عنها ولا يلحقها من قبلها ملال ولا تخاف ان تخر كما تخر السقوف والمبانى العالية الى هذه الاشارة بقوله تعالى (وجعلنا السماء سقفا محفوظاً) وهذا كله تنبيه منه على موافقتها في أعدادها واشكالها وأوضاعها وحركاتها لوجود ما على الارض وما حولها حتى انه لو وقف جرم من الاجرام السماوية لحظة واحدة لفسد ما على وجه الارض فضلا عن ان تقف كلها وقد زعم قوم أن النفخ في الصور الذى هو سبب الصعقة وقوف الفلك ثم نبه على منفعة الشمس الخاصة وموافقتها لوجود ما على الارض فقال تعالى « وجعلنا سراجا وهاجا » وانما سماها سراجا لان الاصل هو الظلمة والضوء طاريء على ظلمة الليل ولولا السراج لم ينتفع الانسان بحاسة بصره بالليل وكذلك لولا الشمس لم ينتفع

الحيوان بحاسة بصره اصلا وانما نبه على هذه المنفعة للشمس فقط دون سائر منافعها لانها اشرف منافعها وأظهرها ثم نبه تعالى على العناية المذكورة في نزول المطر وانه انما ينزل بمكان النبات والحيوان وان نزول المطر بقدر محدود وفي أوقات محدوده لنبات الزرع ليس يمكن يعرض عن الاتفاق بل سبب ذلك العناية بما ههنا فقال تعالى » وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا والآيات التي في القرآن فى التنبيه على هذا المعنى كثيرة مثل قوله تعالى « الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله انبتكم من الارض نباتا» ومثل قوله تعالى الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء ولو ذهبنا لنعدد هذه الآيات ونفصل ما نبهت عليه من العناية التى تدل على الصانع والمصنوع لما وسع ذلك مجلدات كثيرة وليس ذلك قصدنا فى هذا الكتاب ولعلنا ان مد الله فى الاجل ووقع لنا فراغ ان نكتب في العناية التى نبه عليها الكتاب العزيز وينبغي ان تعلم ان هذا النوع من الاستدلال في غاية المضادة للاستدلال الذى زعمت الاشعرية انه الطريق الى معرفة الله سبحانه وذلك انهم

زعموا ان دلالة الموجودات على الله تبارك وتعالى ليس من أجل
حكمه فيها تقتضى العناية ولكن من قبل الجواز أي من قبل ما
يظهر فى جميع الموجودات أنه جائز في العقل أن يكون بهذه
الصفة أو ضدها فانه ان كان هذا الجواز على السواء فليس ههنا
حكمة ولا توجد ههنا موافقة اصلا بين الانسان وبين اجزاء
العالم وذلك انه ان كان يمكن على زعمهم أن تكون الموجودات
على غير ماهى عليه كوجودها على ماهى عليه فليس ههنا موافقة
بين الانسان وبين الموجودات التي امتن عليه الله بخلقها وأمره
بشكره عليها فان هذا الرأى الذى يلزمه أن يكون امكان خلق
الانسان جزء من هذا العالم كامكان خلقه في الخلاء مثلا الذى
يرون أنه موجود بل والانسان عنده يمكن أن يكون بشكل
آخر وخلقة اخرى ويوجد عنه فعل الانسان وقد يمكن عندهم
أن يكون جزء من عالم اخر مخالف بالحد والشرح لهذا العالم
فلا تكون نعمة ههنا يمتن بها على الانسان لان ماليس بضرورى
ولا من جهة الافضل في وجود الانسان فالانسان مستغن عنه
وماهو مستغن عنه فليس وجوده بانعام عليه وهذا كله خلاف
مافى فطر الناس وبالجملة فكما ان من انكر وجود المسببات مرتبة

على الاسباب فى الامور الصناعية أو لم يدركها فهمه فليس عنده علم بالصناعة ولا الصانع كذلك من جحد وجود ترتيب المسببات على الاسباب في هذا العالم فقد جحد الحكيم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقولهم ان الله أجرى العادة بهذه الاسباب وانه ليس لها تأثير في المسببات باذنه قول بعيد جداً عن مقتضى الحكمة بل هو معطل لها لان المسببات ان كان يمكن أن توجد من غير هذه الاسباب على حد ما يمكن أن توجد بهذه الاسباب فأى حكمة فى وجودها عن هذه الاسباب وذلك ان وجود المسببات عن الاسباب لا يخلو من ثلاثة أوجه إما أن يكون وجود الاسباب لمكان المسببات من الاضطرار مثل كون الانسان متغذيا وإما أن يكون من أجل الافضل أعنى لتكون المسببات بذلك أفضل وأتم مثل كون الانسان له عينان وإما أن يكون ذلك لا من جهة الافضل ولا من الاضطرار فيكون وجود المسببات عن الاسباب بالاتفاق وبغير قصد فلا تكون هنالك حكمة أصلا ولا تدل على صانع اصلا بل انما تدل على اتفاق وذلك انه ان كان مثلا ليس شكل يد الانسان ولا عدد أصابعها ولا مقدارها ضروريا ولا من جهة الافضل فى الامساك الذي

هو فعلها وفى احتوائها على جميع الاشياء المختلفة الشكل وموافقتها لامساك آلات جميع الصنائع فوجود افعال اليد الذى هو عن شكلها وعدد اجزائها ومقدارها هو بالاتفاق ولو كان ذلك كذلك لكان لا فرق بين ان يخص الانسان باليد أو الحافر أو بغير ذلك مما يخص حيوانا من الشكل الموافق لفعله وبالجملة متى رفعنا الاسباب والمسببات لم يكن ههنا شيء يرد به على القائلين بالاتفاق أعنى الذين يقولون لا صانع ههنا وان جميع ما حدث فى هـذا العالم انما هو عن الاسباب المادية لان أحد الجائزين هو احق ان يقع عن الاتفاق منه ان يقع عن فاعل مختار وذلك انه إذا قال الاشعرى ان وجود أحد الجائزين او الجائزات هو دال على ان ههنا مخصصاً فاعلا كان لأولئك ان يقولوا ان وجود الموجودات على احد الجائزين او الجائزات هو عن الاتفاق لان الارادة انما تفعل لمكان سبب من الاسباب والذي يكون لغير علة ولا سبب هو عن الاتفاق اذ كنا نرى اشياء كثيرة تحدث بهذه الصفة مثل ما يعرض للاستقساط ان تمتزج امتزاجا بالاتفاق فيحدث عن ذلك الامتزاج بالاتفاق موجود آخر فتكون على هذه جميع الموجودات حادثة عن الاتفاق أما نحن

فلما كنا نقول انه واجب ان يكون ههنا ترتيب ونظام لا يمكن
ان يوجد اتقن منه ولا أتم منه وان الامتزاجات محدودة مقدرة
والموجودات الحادثة عنها واجبة وان هذا دائما لا يختل لم يمكن
ان يوجد ذلك عن الاتفاق لان ما يوجد عن الاتفاق هو أقل
ضرورة والى هذا الاشارة بقوله تعالى صنع الله الذى اتقن كل
شيء واى اتقان يكون ليت شعرى فى الموجودات ان كانت
على الجواز لان الجائز ليس هو اولى بالشيء من ضده والى
هذا الاشارة بقوله تعالى ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت
فارجع البصر هل ترى من فطور واى تفاوت اعظم من ان
تكون الاشياء كلها يمكن ان توجد على صفة أخرى فوجدت
على هذه ولعل تلك الصفة المعدومة افضل من الموجودة فمن
زعم مثلا ان الحركة الشرقية لو كانت غربية والغربية شرقية
لم يكن فى ذلك فرق في صنعة العالم فقد ابطل الحكمة وهو كمن
زعم انه لو كان اليمين من الحيوان شمالا والشمال يمينا لم يكن فى
ذلك فرق فى صنعة الحيوان فان احد الجائزين كما يمكن ان
يقال فيه انما وجد على أحد الجائزين من فاعل مختار كذلك
ممكن ان يقال انه انما وجد على أحد الجائزين بالاتفاق اذ كنا

نرى كثيراً من الجائزات توجد على الجائزين عن فاعليها بالاتفاق
وانت لتتبين ان الناس باجمعهم يرون ان المصنوعات الخسيسة
هى التى يرى الناس فيها انه كان يمكن ان تكون على غير ماصنعت
عليه حتى انه ربما أدت الخساسة الواقعة في كثير من المصنوعات
التى بهذه الصفة ان يظن انها حدثت عن الاتفاق وانهم يرون
ان المصنوعات الشريفة هى التى يرون فيها انه ليس يمكن ان
تكون على هيئة أتم وافضل من الهيئة التى جعلها عليها صانعها
فاذا هذا الرأى من آراء المتكلمين هو مضاد للحكمة والشريعة
ومعنى ما قلناه من ان القول بالجواز هو اقرب الى نفى الصانع
عن ان يدل على وجوده مع انه ينفى الحكمة عنه وانه متى لم
يعقل ان ههنا أواسط بين المبادىء والغايات فى المصنوعات
تترتب عليها وجود الغايات لم يكن ههنا نظام ولا ترتيب
واذا لم يكن ههنا نظام ولا ترتيب لم يكن ههنا دلالة ان لهذه
الموجودات فاعلا مريداً عالما لان الترتيب والنظام وبناء
المسببات على الاسباب هو الذى يدل على انها صدرت عن علم
وحكمة واما وجود الجائز على أحد الجائزين فيمكن أن يكون
عن فاعل غير حكيم عن الاتفاق عنه مثل أن يقع حجر على

الارض عن الثقل فيه فيسقط على جهة منه وعلى موضع دون
موضع أو على وضع دون وضع فان هذا القول يلزم عنه ضرورة
اما ابطال وجود الفاعل على الاطلاق وإما ابطال وجود فاعل
حكيم عالم تعالى الله وتقدست أسماؤه عن ذلك واما الذى قاد
المتكلمين من الاشعرية الى هذا القول فالهروب من القول بفعل
القوى الطبيعية التى ركّبها الله في الموجودات التي ههنا كما ركب
فيها النفوس وغير ذلك من الاسباب المؤثرة فهربوا من القول
بالاسباب لئلا يدخل عليهم القول بان ههنا أسبابا فاعلة غير الله
وهيهات لا فاعل ههنا الا الله اذ كان مخترع الاسباب وكونها
أسبابا مؤثرة هو باذنه وحفظه لوجودها وسنبين هذا المعنى بيانا
اكثر فى مسألة القضاء والقدر وأيضاً فانهم خافوا أن يدخل
عليهم من القول بالاسباب الطبيعية أن يكون العالم صادراً عن
سبب طبيعى ولو علموا أن الطبيعة مصنوعة وانه لا شيء أدل
على الصانع من وجود موجود بهذه الصفة فى الاحكام لعلموا
أن القائل بنفي الطبيعة قد أسقط جزءاً عظيما من موجودات
الاستدلال على وجود الصانع العالم بجحده جزءا من موجودات
الله وذلك أن من جحد جنساً من المخلوقات الموجودات فقد

جحد فعلا من أفعال الخالق سبحانه ويقرب هذا ممن جحد
صفة من صفاته فلما كان نظر هؤلاء القوم مأخوذاً من بادىء
الرأى وهو الظنون التي تخطر للانسان من أول نظره وكان
يظهر فى بادىء الرأى ان اسم الارادة إنما يطلق على من يقدر
أن يفعل الشيء وضده رأوا انهم ان لم يصلوا الى أن الموجودات
جائزة لم يقدروا ان يقولوا بوجود فاعل مريد فقالوا ان
الموجودات كلها جائزة ليثبتوا من ذلك ان المبدأ الفاعل مريد
كأنهم لم يروا الترتيب الذى في الامور الصناعية ضروريا وهو
مع ذلك صادر عن فاعل مريد وهو الصانع وهؤلاء القوم
غفلوا عما يدخل عليهم من هذا القول من نفى الحكمة عن الصانع
أو دخول السبب الاتفاقى فى الموجودات فان الاشياء التى
تفعلها الارادة لا لمكان شيء من الاشياء أعنى لمكان غاية من
الغايات فهى عبث ومنسوبه الى الاتفاق ولو علموا كما قلنا انه
يجب من جهة النظام الموجود في أفعال الطبيعة ان تكون
موجودة عن صانع عالم والا كان النظام بالاتفاق لما احتاجوا أن
ينكروا أفعال الطبيعة فينكروا جنداً من جنود الله التي سخرها
الله تعالى لايجاد كثير من موجودات باذنه ولحفظها وذلك ان

الله تبارك وتعالى أوجد موجودات باسباب سخرها لها من خارج وهي الاجسام السماوية وباسباب أوجدها في ذرات تلك الموجودات وهي النفوس والقوى الطبيعية حتى انحفظ بذلك وجود الموجودات وتمت الحكمة فمن أظلم ممن أبطل الحكمة وافترى على الله الكذب فهذا مقدار ما عرض من التغيير فى هذه الشريعة في هذا المعنى وفى غيره من المعاني التى بيناها قبل ونبينها فيما يأتى ان شاء الله تعالى فقد تبين من هذا أن الطرق الشرعية التى نصبها الله لعباده ليعرفوا منها ان العالم مخلوق له ومصنوع هى مايظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التى فيها وبخاصة بالانسان وهى طريقة نسبتها في الظهور الى العقل نسبة الشمس فى الظهور الى الحس واما الطريق التى سلك بالجمهور تصورهذا المعنى فهو التمثيل بالشاهد وان كان ليس له مثال فى الشاهد اذ ليس يمكن للجمهور أن يتصوروا كنه ماليس له مثال فى الشاهد فأخبر تعالى ان العالم وقع خلقه اياه فى زمان وان خلقه من شيء اذا كان لا يعرف فى الشاهد مكون الا بهذه الصفة فقال سبحانه مخبراً عن حالته قبل كون العالم وكان عرشه على الماء وقال تعالى (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض

في ستة أيام) وقال « ثم استوى الى السماء وهي دخان » الى سائر الآيات التي في الكتاب العزيز في هذا المعنى فيجب أن لا يتأول شيء من هذا للجمهور ولا يتعرض لتنزيله على غير هذا التمثيل فانه من غير ذلك فقد أبطل الحكمة الشرعية فاما ان يقال لهم ان عقيدة الشرع في العالم هي انه محدث وانه خلق من غير شيء وفي غير زمان فذلك شيء لا يمكن أن يتصوره العلماء فضلا عن الجمهور فينبغي كما قلنا أن لا يعدل في الشرع عن التصور الذى وضعه للجمهور ولا يصرح لهم بغير ذلك فان هذا النوع من التمثيل في خلق العالم هو الموجود في القرآن وفي التوراة وفي سائر الكتب المنزلة ومن العجب الذى في هذا المعنى أن التمثيل الذى جاء في الشرع في خلق العالم يطابق معنى الحدوث الذى في الشاهد اطلق ولكن الشرع لم يصرح فيه بهذا اللفظ وذلك تنبيه منه للعلماء على ان حدوث العالم ليس هو مثل الحدوث الذى في الشاهد .

وانما اطلق عليه لفظ الخلق ولفظ الفطور وهذه الالفاظ تصلح لتصور المعنيين اعنى لتصور الحدوث الذى في الشاهد وتصور الحدوث الذى أدى اليه البرهان عند العلماء في الغائب

فاذا استعمال لفظ الحدوث او القدم بدعة في الشرع وموقع
في شبهة عظيمة تفسد عقائد الجمهور وبخاصة الجدليين منهم
ولذلك عرضت اشد حيرة تكون واعظم شبهة للمتكلمين من
اهل ملتنا اعنى الاشعرية وذلك انهم لما صرحوا ان الله مريد
بارادة قديمة وهذا بدعة كما قلنا ووصفوا ان العالم محدث قيل
لهم كيف يكون مراد حادث عن ارادة قديمة فقالوا ان الارادة
القديمة تعلقت بايجاده في وقت مخصوص وهو الوقت الذى وجد
فيه فقيل لهم ان كانت نسبة الفاعل المريد الى المحدث في وقت
عدمه هى بعينها نسبته اليه فى وقت ايجاده فالمحدث لم يكن وجوده
في وقت وجوده اولى منه فى غيره اذا لم يعلق به فى وقت
الوجود فعل انتفي عنه فى وقت العدم وان كانت مختلفة فهنالك
ارادة حادثة ضرورة والاوجب ان يكون مفعول محدث عن
فعل قديم فان مايلزم من ذلك فى الفعل يلزم في الارادة وذلك
انه يقال لهم اذا حضر الوقت وقت وجوده فوجد هل وجد
بفعل قديم او بفعل محدث فان قالوا بفعل قديم فقد جوزوا وجود
المحدث بفعل قديم وان قالوا بفعل محدث لزمهم أن يكون
هنالك ارادة محدثة فان قالوا الارادة هى نفس الفعل فقد قالوا

محالا فان الارادة هي سبب الفعل فى المراد ولو كان المريد اذا
أراد شيئا ما فى وقت ما وجد ذلك الشيء عند حضور وقته
من غير فعل منه بالارادة المتقدمة لكان ذلك الشيء موجودا
من غير فاعل وايضاً فقد يظن انه ان كان واجبا ان يكون عن
الارادة الحادثة مراد حادث فقد يجب ان يكون عن الارادة
القديمة مراد قديم ولا كان مراد الارادة القديمة والحادثة واحدا
وذلك مستحيل فهذه الشبه كلها وانما اثارها فى الاسلام اهل الكلام
بتصريحهم فى الشرع بما لم يأذن به الله فانه ليس في الشرع انه
سبحانه وتعالى مريد بارادة حادثة ولا قديمة فلا هم فى هذه
الاسياء اتبعوا ظواهر الشرع فكانوا ممن سعادته ونجاته باتباع
الظاهر ولا هم ايضاً لحقوا بمرتبة اهل اليقين فكانوا ممن سعادته
في علوم اليقين ولذلك ليسوا من العلماء ولا من جمهور المؤمنين
المصدقين وانما هم من الذين في قلوبهم زيغ وفي قلوبهم مرض
فانهم يقولون بالنطق الخارج اشياء يخالفها النطق الباطن منهم
وسبب ذلك العصبية والمحبة وقد يكون الاعتياد لامثال هذه
الاقاويل سببا للانخلاع عن المعقولات كما نرى يعرض للذين
مهروا بطريق الاشعرية وارتاضوا بها من الصبا فهؤلاء لا شك

محجوبون بحجاب العادة والمنشأ فهذا الذى ذكرناه من امر هذه المسألة كاف بحسب غرضنا) اه كلام ابن رشد فترى بهذا أنه قد انحى على رداءة تعليم التوحيد وفصل مايدرس الآن في الازهر منه تفصيلا واخذ يشرح العقائد واحدة واحدة وقال ان هذا غير ما شرحه القرآن وما طلبه الرسول واقتضاه الدين واشار بتغيير هذه الطرائق بطرق أخري تطابق كتاب الله الذى طلب النظر في العوالم ومعرفة الحكمة والا فكل ما بيننا الآن انما هى فضالات من حثالات اليونان القديمة المحشوة فى الكتب المنافية لشريعتنا ومن العجب انك ترى الكتب تحارب أعداء ماتوا ليس لهم وجود وما مثل هؤلاء فى محاربتهم لليونان وجدالهم فى الكتب وذمهم على الالسنة الا كمثل قوم من الخوارج الآن يحاربون معاوية واليزيد وغيرهما ويتركون كل ما أحاط بنا من كل جانب كانه كتب علينا ان نذر مصالحنا ونندب مامضى وليت شعرى هذه أوروبا وأمريكا أخذ اهلوهما بحظ وافر من العلم واهتدوا بهدى علمائهم وحكمائهم وهذه الامة مضى لها قرون طويلة واعمار وهي تنبذ الحكماء وتبغض المصلحين . هاهم نبذوا ما أشار به الغزالى وما فسره ابن رشد

وما أنذر به ابن خلدون وكل أمة هذا شأنها حق عليها ماذكر الله عن اليهود (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) نادى ابن رشد بالاصلاح فطرده الاندلسيون الى أوروبا فأزال الخرافات والضلالات من انفس امتلأت من ترهات الاحبار والرهبان واطلقها من أغلال الاوهام فرعت فى ارض جنة الحكمة وشربت سلسبيلها فانظر كيف تدلت الاندلس الى حضيض الجهالة فمزقت كل ممزق وتفرق أهلها أيدى سبا وكيف ثم كيف سارت أوروبا من يومئذ في سبيل الرقى المادى والادبى وكان ما كان من انتشار العلم والتعليم واكتشاف الارض الجديدة كامريكا والاقيانوسية كما يشهد بذلك كريستوف كولمب نفسه اذ قال انى علمت ان فى الارض قسما آخر من تعليمات ابن رشد ثم تغلب الاسبانيون على المسلمين واجلوهم وأوسعوهم قتلا وسبياً واسراً أليس ذلك عبرة للباقين من الامم الاسلامية أيظن قوم انهم علماء وهم لم يدرسوا ما سطرته يد القدرة فى اكناف البسيطة من سطور الحكمة وآثار العظمة ومن سمع قوله تعالى (ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد

بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك) عرف ان العلماء هم الذين يعرفون علوم الطبيعيات من النبات والحيوان والانسان واختلاف الالوان اذ اعقبه بقوله (انما يخشي الله من عباده العلماء) هل ضل الرازى فى تفسيره واهتدى البسطاء هاهو الرازى شرح عند كل آية ما يناسبها من الحكم المودعة فى الطبيعة وجمال الالوهية اللهم انا نضرع اليك ان ينظر عقلاء الامة وحكماؤها فى مستقبل بلادهم وأمتهم . هل من العقل والحكمة ان ينبذ الرازى وابن خلدون وابن رشد والغزالى وأحزابهم ونصغى الى قوم اسفل منهم بدرجات باعترافهم انفسهم وقولهم هؤلاء أرقى منا عقلا وأرفع شأنا وأعلى كعبا ونحن قوم ضعفاء فيالله ويالالجهل والعار ويا ضيعة الاسلام والمسلمين وياحسرتا على هذه الامة ذهبت ريحها

معاشر الاغنياء والعقلاء ها أنا قصصت عليكم ما يخرجنى من التبعة والاثم والكتمان إن اريد الا إصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله فهل أنتم مستمعون وان عجزتم عن اصلاح الازهر وظل سائرا نابذا سنة الترقي فلماذا لا تنشؤون الكليات

والا بقي التعليم منحطاً أبد الآبدين ودهر الداهرين (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء) وهاهي كسف المدافع لم تبق ولم تذر فى أقطار البلاد وما هى الا نتيجة العقول المتفقة والاراء المهذبة والعلوم المدونة فما الماديات الا نتائج للعقليات فغلية المدافع والبنادق ترجمان عن عقول منيرة وحكم صافية فاذا لم تستنر العقول بالحكم احترقت الاجسام بالكسف والقلل اذ العالم فى ترق مستمر فمن حاد عنه كان نصيبه الذهاب من الوجود وسنذكر فى المقال بعد هذا ناموس الترقى من القرآن ونقابله باعمالنا الآن عبرة لمن اعتبر

﴿ المقالة الثامنة ﴾

(كليات الاسلام والترقي)

هل درى أولئك الذين ينبذون معرفة ما فطره الله في الكائنات وما سطره على صفحات الطبائع في الارض والسماء ان الترقي سنة فى الحياة وان القرآن هو اول مقرر لمبادئه حاث عليه قد بينه على طرق شتى تارة بتعاقب الاديان وطوراً بالطبيعيات

وآونة بالاقوال وكثيرا بالقصص وسنة الماضين

(١) الاديان . تعاقبت الاديان وناسب كل زمانه ومكانه فنسخ ماقبله فكانها سلسلة يتبع بعضها بعضاً وكان آخرها نزولا هذا الدين الذى سمح بالترقي لكل فرد وعمل وندد على من وقفوا على ما خطه رهبانهم وحرره احبارهم وتحكمت به قسيسوهم وأفهم ان ذلك داع للانحطاط والتدلى والذهول عن الترقى فقال (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا) ثم قال يريدون ليطفؤا نور الله المنبعث الى العقول بفطرتها وبوحي اخر ماانزل واطفاؤه بالافترا من الاحبار والرهبان الداعى الى انعكاس الرجاء والوقوف امام ترقيها (والله متم نوره ولو كره الكافرون) فالترقى محتم على العالم ومن وقف أورجع خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

الناس في الدنيا مسافرون الى الكمال متوجهون الى العلى كركب ساير فى طريق فيه المدلهمات مشمعلات والمخاوف محيطات من كل جانب فاى راكب توقف وسط الطريق عن المسير أو قفل راجعا تناوشته السباع وانتاشته الذئاب وهلك

من الجوع والعرى وظما الهواجر ونار السمير ولكن الركبان مأمورون أن يسيروا مسوقون بقوة قاهرة وسلطة قوية مضروبون بيد من حديد مكسوة بالين من الحرير واذا كان الترقي هو سنة الله وهو الفطرة فمن خالفها فقد ضل وغوى واهلك نفسه بوادى الخسران وهلاك الفرد احرى من هلاك الجماعة ومن العيب ان تقف الجماعة لواحد أو ينبذوا مقرهم ويتبعوا هذا الكاسل

ولما لم يعلم الناس ذلك بعقولهم انزلت الكتب السماوية لايقاظهم فلما غفلوا ارسل الصواعق النارية عليهم ليعظهم بالعمل بعد العظة بالقول (والله يؤتى ملكه من يشاء)

رأينا رقي الامم حولنا ووقفنا نحن وتركنا مدارسنا الكليات فى امهات مدن القطر وبقى القديم على قدمه وبيننا العقلاء والاذكياء فما لهم لايقرؤن وما بالهم لايتكلمون وما للعامة لا يسألون ايخرج التلميذ من مدارس الاجانب بعد الخامسة عشر عارفا اربع لغات مع نحو عشرة علوم ونحن في ذلك السن لا يعلم متعلمنا الا كلمات لا يعقل معناها ثم يقضى حياته فى لغة لا يقدر أن يحرر بها خطابا هان على الاماس ما لاقى الدبريقف

التلميذ فى اول امره على اقوال العلماء في اوجه البسملة واعرابها وكون الباء حرف جر زائد او اصلي والنعت مقطوع او غير مقطوع رموز لايفهمها الا بعد سنين فاين سنة الترقي

(٢) الطبيعيات . وتارة ترى ناموس الترقى فى الكتاب بضرب امثال طبيعية مما يشاهده الناس من الماء والمعادن يعلوها عند نزول الاول وجريانه وسبك الثاني وغليانه زبد فاذا تمايزا ذهب الزبد جفاء وبقى الماء والحلى نافعا للناس هذا هو المثل المضروب فى الكتاب (انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال

(٣) القول . هل قوله « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه » الا نفثة من نفثات ناموس الترقى وهل حسن القول الا بمعناه وهل هو الا انتخاب الاحسن واختيار الاجمل فيتبع وها هو مشاهد محسوس ان البشرى تابعة لمن سلك مسلكا راجحا (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون)

(٤) وهل ذكر عاد وثمود وقصص نوح وغيره الا مذكرات لناموس الترقى وهل قوم نوح لما طغوا ونبذوا ما وعظوا به فأغرقوا الا عبرة للامم ان يهلكوا كما هلك أولئك لما تتابع الانذار فيهم حينا بعد حين قرونا وعلم انهم لن ينجعوا وليس فيهم قابلية ذهبوا من الوجود حتى قيل (رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفارا) وملخصه الا يبقى الا الاصلح للوجود وهو عينه ناموس الترقى

(٥) علم الله ان ستنام اعيننا وقلوبنا ونخبط خبط عشواء فننسخ آيات واحاديث بغيرها كما هو رأى كثير من العلماء كانه يقول النسخ فى كل شيء على شريطة ان يكون الثانى اصلح وهنا انا نسخت اية بأية وحديثا بحديث فوجب عليكم ان تتبعونى وتنظروا ما يصلح من المنافع والعلوم في كل زمان ومكان وما كان هذا الا كمالا وشرفا

فياقوم ها هو القرآن وقصصه والامم واخبارها والطبائع والشرائع كلها داعية للتغيير والنسخ ومناسبة الزمان والمكان فلماذا يادعاة الانسانية ورجال الامة يبقى القديم فى الكليات

على قدمه ولا تنظرون في امرها ولئن نسيتم من الازهر اصلاحه وعجزتم وتركتموه هكذا فناشدتكم الله لماذا لاتنشؤن الكليات لتعوضكم ما فقدتموه . ياقوم لم تضنون بالاموال وها نحن نرى اليابانى يجود بروحه لسد مدخل بورارثر والانجليزى بالانفاق على مدرسة غوردون في السودان والروسى يخرج من ماله لوطنه وما لنا والامم القاصية هاهم اخواننا القبط بين ظهرانينا نحو نصف مليون وهم نصف عشرنا كيف يجمعون في جلسة واحدة لمدرسة صنائعهم اربعين الفا من الاصفر الرنان وهل اصبحنا اقل اهل الارض قاطبة نبذنا الاقربون والابعدون حولوا نظركم عن المشرق والمغرب وولوها شطر اسلافكم الماضين وآبائكم الاقدمين ماذا فعلوا جادوا بالمال والرجال فبقى ذكرهم وان غابت اشخاصهم خرج ابو بكر يوما من ماله كله وعمر من نصفه فوقفا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالا هذا القول فقال عليه الصلاة والسلام « بينكما فى الفضل ما بين كلمتيكما فبماذا تجيبون وعلى ماذا تقدمون . لقد رأيت سلطانا من سلاطين الاسلام في جزائر المحيط قد اخرج من دياره وامواله وأولاده وبساتينه لا يملك شروى نقير أخرجه

الفرنساويون فماذا افادت الاموال ياقوم لئن لم تنفقوا طوعا وتنشئوا الكايات لحفظ جامعتكم لبث الصنائع والعلوم الافرنجية ليذهبن ما بقي من آثار مجدنا ولا تظنوا ان الاحتلال شيء مذكور في جانب اختلال الصناعة وانتشار مدارس الاجانب وتقدم تجاراتهم ولئن تركنا الامور على هذا لتقفلن دور وتذهب أموال وثروات ولا تغرنكم اللذات . (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بامره)

﴿ المقالة الثامنة ﴾

(الواقفون والعلماء)

الناس في الدنيا درجات بعضها فوق بعض فمن كان علمه أدوم نفعا واتقن صنعا وارقى للمدنية كان اقرب زلفى لله واكثر ثناء من الناس فبقدر ما تدوم المنافع والثمرات تبقى الذكرى والشكران ويتجدد الاجر والثواب والاعمال هي الميزان المعنوى تقاس بها فضائل العمال وهذه هي المضاعفة (مثل الذين ينفقون

أموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة
مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) أعلى الانفاق
نشر الحكمة بين الناس وارفع الناشرين لها مقاما الانبياء فعلى
قدر أممهم والتابعين لهم تكون منزلتهم فى القرب من ربهم
وارتفاع شأنهم فى الدنيا والآخرة يليهم الحكماء فالعلماء ومعيارهم
فى التفضيل ظهور الثمرات فى تابعيهم كثرة وقلة وبالجملة ففضل
الرجل على مقدار ظهور امره فى الناس كفضل الشمس على
القمر والقمر على السيارات فكما ان مقادير تلك الكواكب
متفاوتة بتفاوت اضوائها فهكذا العلماء يتفاوتون بتفاوت هدايتهم
فى الامم ولذلك يفضل النبي الحكيم والحكيم العالم والعالم العابد
قال عليه الصلاة والسلام (فضل العالم على العابد كفضلى على
أدنى رجل من أمتى) ثم التفاوت بين الملوك يجرى على هذه
النسبة فمن أراد المقايسة بين عالم وملك فلينظر لمقدار أثرهما في
اصلاح العالم فمهما كان الملك أكثر تأثيرا فى سياسة الامة من
العالم فهو افضل منه بتلك النسبة ومهما كان العالم أكثر هداية
في الحال والاستقبال فهو أرقى من الملك بنسبة ذلك من الملك
وبالجملة فالاعمال زرع والمنافع العامة فى الامة ثمراتها والعمال

زارعون وعلى هذه القاعدة يجري الواقفون والمصلحون فمن وقف لارباب التكايا والمساجد والكتاتيب الصغيرة والاضرحة فلتقس نتائج افعاله بهؤلاء ومن عزز علمه وعقله وفهم حكمة الله في خلقه علم ان ثمرة العلماء ارقي فان العالم يهتدى بعلمه خلق كثير ويتسلسل الامر فيكونون كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة فالواحد على الاقل يهدى سبعة والسبعة قد يهدى كل واحد مائة وكل واحد من المائة قد يهدى آلافا وتزكو الامة ويتضاعف عدد الهداة والمهديين وتعم الحضارة والعمران وترتقي الامة فهذه نسب درجاتهم عند ربهم يوم القيامة (ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما) فالمضاعفة قد رأيتها والاجر العظيم يكون على وفقها (جزاء وفاقا) وقال الغزالى (الافضل أن يكون المتصدق عليه من اهل العلم خاصة فان ذلك اعانة له على العلم والعلم اشرف العبادات مهما صحت فيه النيات وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه اهل العلم فقيل له لو عممت فقال انى لا اعرف بعد مقام النبوة افضل من مقام العلماء فاذا اشتغل احدهم بحاجة لم يتفرغ للعلم ولم يقدر على التعلم فتفريغهم للعلم افضل ومن

اراد ان يظهر له ذلك رأى العيان فليتأمل الامم الراقية كيف تبذل الاغنياء اموالهم في سبيل المنافع العامة وكيف أثمرت ذكر احسانهم فى الدنيا ورقى أممهم فيها والجزاء للمؤمن يكون على هذه النسبة فوا أسفاً على اغنياء الاسلام نبذوا المرشدين فضلوا في طريق الانفاق والوقف فترى هممهم على قدر عقولهم وتعليمهم فاغلب الاوقاف للامور القاصر نفعها ولعمرى ان بين العالم والعابد كما بين النبي وأدنى رجل فهكذا فلتكن النسبة بين الواقف للاول والواقف للثانى هذه أموال المسلمين تنهال جزافاً على التكايا فما الذى افاد المسلمين منها الا ضحك الافرنج على أمور تنكى وتبكي وتؤلم العقلاء

من ذا الذى كان يظن ان تصل هذه الجامعة لدرجة تحت الصفر يعلوها ثلج ركام فيموت علماؤها ويحي جهالها حتى دك شامخ مجدها وباذخ سعدها

ياقوم رعاكم الله هل اصبحنا اقل الامم ادراكا وفهما هل فقدنا رشدنا حتى احتجنا لقيم علينا أيدرك الداء اليونان والطليان والانكليز والالمان والفرنساويون والامريكان واليابان والهنود فيتبرعون بالمال للكليات ونبقى نحن فى حضيض الجهل . مات

رجل ألمانى وترك سبعة ملايين فأوقفت ابنته نصف هذا المبلغ لعلوم الطبيعة التي يظن المسلم أنها تنافي دينه الان . هذا القول فهل من سميع هذا الارشاد فهل من مجيب

قام سسل رودس الانكليزى فأوقف ماله كله على المنافع العامة لا لامته خاصة بل لها وللامم كلها وللسلام العام

انفقوا ياقوم اموالكم الان واحيوا كليات القطر في الازهر والمساجد لتحملوهم على قراءة العلوم كلها وان أبى العلماء ووقفوا في مدار واحد وعلى نمط مخصوص فدعوهم وشأنهم واوقفوا لمدارس كليات بشروط تناسب الزمان والمكان ألا فلتنفقوا فقد سبقكم الامم . انفقوا اوقفوا قبل ان تذهب ريحكم وتزول البقية الباقية من الامة فقد غلبتم على الزراعة والصناعة والتجارة (يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقكم الله من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) ان لم تحدوا على الكليات وتعميم التعليم الان فما تمضي سنون قلائل الا ويقفل باب الاصلاح وينادى من قبل السماء فيقال (انفقوا طوعا او كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين) (الصيف ضيعت اللبن) (سبق السيف العذل) ياقوم أيجمل ان يتخطى الانجليز جزائرهم التى

هى في بحر الظلمات بعيدا عن المعمورة تكتنفها الامواج فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ووراءها لجيج لا آخر لها ولا منتهى الا في الشرق تسمى لانشاء مدرسة غوردون فى البلاد السودانية وتدفع مائة الف جنيه ونحن نأبى ان نصرف مثل هذا المبلغ على ابنائنا فتباً لقوم لا يفهمون وتعسا لنا اذا تمادينا في الضلال . هذه ثمرات الاعمال ظهرت في الامم حولكم مصداقا لكتابكم فياقوم لم قصرت هممم الواقفين ولاى شيء قصرت ارادتهم على الامور الجزئية دون الكلية والصغيرة دون الكبيرة . هل كتب علينا الشقاء فمن ذا الذى يضع الحجر الثانى بعد الاول الذي وضعه (المحسن الكبير الذي علمنا انه سعى في انشاء كلية) ومن ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ويفقه الحكمة العامة في الامم ورقيها فيضع الحجر الثانى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون) وليس الصالح هو ذاك المنتكس على الرأس في أعماله واقواله فى التكايا كلا ثم كلا انما الصالح هو ذاك الذي يصلح لعمارة الارض ويعرف حكمة ربه فيضعها في موضعها . الانتكاس فى الفهم جر الى نوم الغفلة والجهالة حتى انك لترى

الاوقاف القديمة كلها راجعة الى أمور قاصرة على ثمرات طفيفة فكانت النتيجة مانحن فيه الآن . فهل لنا من رجل يقول ها أنا ليشجع غيره ويبنوا الكليات ويعمموا العلم (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما)

﴿ المقالة التاسعة ﴾

(خطاب لوجهاء الامة)

أدعو بقولي الآن وجوه الامة وعقلاءها واغنياءها دعوة مخلص في قوله ناظر لمستقبل امته كيف وجهتم التفاتكم الى شؤن الحياة صغيرها وكبيرها وعظيمها وحقيرها وقديمها وحديثها حتى شملت العناية المراحيض وبيوت الخلاء وتركتم كليتكم العظمى وهى الجامع الازهر تندب حظها وتشكو زمانها وتنادى بالويل والثبور مدوا أيديكم رعاكم الله الى اصلاحها فان أبي القائمون بها وغلبوكم على أمركم فما لكم لا تسعون في انشاء كلية اسلامية تكون ملجأ لبنى العظماء يتعلمون فيها ويتخرجون

وقد درسوا انواع العلوم ياقوم مالى أرى الحركة بطيئة والنوم طويلا والنفوس في حجاب والعقول فى غفلة وهل أتاكم نبأ اليابان وقد قامت من غفلتها فى سنين معدودة وهل يسبقنا الهنديون ونحن لانبدى ولا نعيد اللهم انا نضرع اليك ان تهدى سراتنا واغنياءنا سواء السبيل

من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط

ألا نفوس أبيات لها همم　　ألا كريم على الخيرات معوان

هل من عظيم من العظماء يقوم فيمد يده بما يدونه له التاريخ فى الاصلاح ومستقبل الزمن فيقتدي به الباقون والامل عظيم فى الاسرة الخديوية وعباسها العظيم وكم من سامع هذا القول يناجى نفسه ومن أنا حتى أجدد مجدا عفا وريحا ذهبت فينام نومة لا قيامة بعدها

ولو درى ذلك ما تومئ اليه قطرتان في السحاب تناجتا بلسان يفهمه العلماء المتبصرون ويجهله المقلدون الغافلون

قالت احداها للاخرى (وقد رأت زراعا فى حقله واضعا رأسه على كفه نادما حزينا كئيبا) انى أرثى لهذا الفلاح ولقد

احترق فؤادى وانضنى جسمى حتى احسبني استحلت دمعة باك بعد قطر ساق فقالت الثانية ماأنت أيتها المسكينة ومثلك لا يملك للرجل نفعا ولا ضرا ولو قطرت من السماء ونزلت لم تفن عودا من القمح فضلا عن الحقل كله وما هى الا لحظة تبقين فيها على ورقة ثم تنشفك الرياح أطرق كرى ان النعام في القرى

فقالت الاولى ان الوجود خير من العدم ووجودى في الحقل ينعش فواد صاحبه فقهقهت الثانية ضحكا وقالت ما اقبح الحزن بعد الفرح والبكاء بعد الضحك فقالت الاولى ان لى في ذلك ثلاث خصال الاولى ان أدخل السرور على قلب صاحب الحقل الثانية أن أؤدى ما على من الخدمة الصادقة وأظهر ما كمن فى من الفضل الثالثة أن تقتدى القطرات الاخري وبها يسقي الحقل ويتم الامر وما كادت تتم قولها حتى سقطت على ساق من نبات القمح فتبعتها الثانية وغيرها وهلم جرا فروى الحقل ونما القمح وما مثل القطرتين المتناظرتين الا كرجلين أحدهما يطلب الاصلاح والآخر ييأس منه وهذه فى الحقيقة طريقة الانبياء والحكماء ألم تر كيف يقول الله لرسوله (فذكر

انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) على انه لا يأس من روح الله فقد دلت الحوادث على ان من سعى فى امر باخلاص ناله كله أو بعضه وهذا سر التوكل على الله وهو الاعتماد على النفس في العمل مع توجيه الهمة لمدبر العالم كله وبه يصرح (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) والمراد بالايمان ايقان النفس بان ماتعمل حق وعسى أن نسمع مجيباً لندائنا يرفع صوته لتحيي الامة ليحيى الوطن لترتق الصناعة والزراعة والتجارة

من ذا الذى يضع الحجر الثانى في بناءة هيكل مستقبل الاسلام فأما الحجر الاول فقد وضعه المحسن الكبير وانى احذركم ذهاب الامر من أيدينا فى كافة شؤن الحياة أو نذل الى الابد

ولا يقيم على ضيم يراد به الا الأذلال غير الحي والوتد
فذا على الخسف مربوط برمة وذا يشبح فلا يرثى له أحد

فان سمعتم النداء فهذه الحياة الطيبة والا فالذل أولا والدمار آخرا (قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنامن المتكلفين ان هو الا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين)

﴿ مقالة العاشرة ﴾

(العالم مدرسة كبرى والله سيدها والناس الطالبون)

انتبذت من القاهرة مكاناً قصياً يوماً مع أخ من اصدقائي وتنزهنا في فلاة ذات أشجار وأنهار ومزارع وحقول وقد ضربت السماء علينا قبة زرقاء تحجبها اخرى من السحاب الملون بالسواد فى موضع والبياض فى آخر والنسيم يلعب بالاغصان وهو عليل فأخذنا نجوب أطراف الغيضة ونتمشى في جوانبها وقد خلالنا فسيح الجو وعرفنا نعمة سكون الضوضاء والجلبة خارج القاهرة وتذكرنا حال الجنة وانها لا لغو فيها ولا تأثيم لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما فاهتاجت نفوسنا لمحاسن جمال الطبيعة وتأملنا فيما حولنا اذا بجماعات من النحل واخرى من النمل وغيرها من الطيور فصغا الفكر الى تذكر ما عرفناه وماكاد قلبي يذكر الا وقد فاجأني صاحبي بقوله نحن عرفنا فى المدرسة اتقان هذه الحيوانات فى غدوها ورواحها ومستقرها ومستودعها واني لاذكر ما قرأته آنفاً عن النمل وأنها تهندس مساكنها بأعمدة منتظمة وترضع أولادها وتغسلها لتنظفها

وتأخذ الاسرى تحت سيطرتها وتقتني حشرات كالانعام عندنا
لتمتص لبنها بخراطيمها وتزرع الارز بهندسة عجيبة في حقولها
وهكذا النحل يشاهد لبعضه اسفاط (مقاطف) على مؤخر
أرجله ليضع فيها مادة الشمع ويخبز منها لاولاده وغير ذلك
واني أشعر بلذة عند تذكر هذه المعلومات ويا ليت شعري
مافائدة هذه اللذة وهل دراستها ترقى المدنية أم هي من المسليات
للانسان كالآت الملاهي فقلت ان الشيء كلما كان نفعه أعظم
كانت اللذة به اكبر فبمقدار اللذة به يكون نفعه وهذه السماء
ذات نجوم باقدار متباينة واحجام واضواء وحساب مختلفات
يتكون منها علم الفلك وهذا العالم الطبيعي ذو صنائع متقنة مما
ذكرت وما لم تذكر كل هذه من علويات وسفليات تذكرة
للناس وميزان لهم فأي امة اخذت حظها من العلوم واقتدت
بملك الملوك فى معرفة مخلوقاته كانوا هم خلفاءه في الارض
وسيطروا على الامم وكل قوم ضلوا فهم هذه وفرحوا بما
عندهم من العلم حاق بهم ماكانوا يستهزؤن قال تعالى (بل كذبوا
بما لم يحيطوا بعلمه)

فما العالم الا مدرسة وما الناس الا متعلمون والله بيده

الميزان يرفع ويخفض فمن رآهم تأملوا صنعته وقلدوها فى الاحكام والاتقان وسابقوا كل حيوان فى عمله والفلك في حسابه فازوا بالسبق فى الدنيا ومن نكصوا على اعقابهم عوقبوا بالحرمان والخذلان يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولوا الالباب

ولعمري كيف تكون الامة خليفة فى الارض اذا لم يقم كل جماعة منها بصناعة اوعلم كما ان كل امة من الحيوان اختصت بصناعة اوعلم وكيف يمكن التوغل في ذلك لا بالمدارس الكلية الكبرى وهل يمكن فى بلادنا الا ببذل المال من ذوى الثروة الواسعة وقد اصبحت بلادنا مزدحم الامم جميعا فى التجارة والصناعة والزراعة وتلك لعمرك يتضاءل في جانبها المزاحمة الادارية فاذا لم يقم الوطنيون بمدارس كلية فلا بد من تغلب العناصر الاجنبية على الثروة وينقرض العنصر الوطنى على تمادى الزمان كالامريكان الاصليين واليه الاشارة بقوله تعالى (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ان في ذلك لآية لكل عبد منيب) وقد خربت كثير من بلاد الاسلام

وغيرها قديماً وحديثاً كاسبانيا وأهل امريكا الاصليين (ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون)

﴿ دعوة عامة للناشئين ﴾

(الى جمال العالم والعلوم)

أيها الناشئون هلموا الى كمال النفس الناطقة بالعلوم والعرفان وزينوها بالنظر والفكر وحلوها بعقود راق منظرها وحسن نظمها من مناظر الافلاك البديعة والطبائع المتقنة وعجائبها البهيجة وغرائبها المدهشة قف فى الفضاء والليل ساكن الحركات هادىء الانفاس وحدق بصرك الى قبة تراها أينما حللت او ارتحلت مرصعة بالدرارى اللامعة المشرقة في جوانبها كأنها سمرت فيها رقشها مبدعها بما لا يصل اليه امكان الانسان في كل زمان ولو ان صانعاً سقف منزله بقبة مزرقة اللون وزينها بالمصابيح الجميلة وراعي بينها مسافات بالنسب الهندسية والابعاد الحكمية التى بين الكواكب فيما يوازيها من قبة السماء ثم وضع هذا أملس خاليا من الفطور بريئاً من الشقوق ناهجا نهج ملك الملوك لكان سقفه أعجوبة الاعاجب وخلابة الفطن اللبيب ولو

خطر هذا الخاطر لاحد المهندسين لهرعت اليه الناس افواجا من كل حدب ينسلون ولتنافسوا فى سقوفه

ولو تأملت النجوم لرأيت اشكالا هندسية ما بين مثلث ومربع ودائرة وخط مستقيم وآخر منكسر وأخرى حيوانية فهذا كاسد وهذا عقرب وهذا حمل الخ . . وتراها مابين احمر وأبيض وصغير وكبير وان عددتها تجدها ثلاثة آلاف بالعين العادية وان اخذت صورتها (بالآلة المصورة) الفتوغرافية بلغت مائة مليون وهناك ما اعجز الناس بابصارهم وآلاتهم واختراعهم عن معرفته مصداقا لقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون والله واسع عليم) فاذا راقك هذا المنظر ترى النفس قد اشرقت وابتهجت وفرحت بما لاحظت من جمال هى به أحرى وتقرأ فى سطور تلك النجوم كلمات العبر وآيات الحكم تعبر عن صانع قادر وحكيم عظيم وتدخل اذ ذاك فى عداد من ذكر الله بقوله (ان فى خلق السموت والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ماخلقنا هذا باطلا)

فاذا شاقتك نفسك الى مرتبة العلماء والسادة الحكماء

ولم تتمتع باول مراتب الجمال ولم تستطع صبرا على مبدأ الكمال
فعرج على علم الفلك وشاهد ذلك الجمال بالبصيرة بعد البصر
وادخل جنة العلوم والعرفان في هذه الدنيا تقدك الى الجنة
الاخرى (جنة عرضها السموات والارض) فانظر نتيجة التقويم
واقرأ ما سطره علماء حسابها من تلك الرقوم الدالة على سير
الشمس والقمر والكواكب سنة فسنة تعلم ان منظرها الجميل
وراءه ما هو اجمل منه وأبهي وان الظاهر عنوان الباطن فكما
جمل منظرها بالعيون حارت في حسابها الدقيق العقول وترى
نظاما متقنا غفل عنه الجاهلون ووصل اليه العارفون فان رغبت
مع هذا ان تعرف براهينها وابعادها ونسب بعضها الى بعض
فهناك البهاء وتخرج من زمرة من عيرهم الله بقوله (ما اشهدتهم
خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم) وتدخل في عداد
من مدحهم وأثنى عليهم فقال (شهد الله ان لا اله الا هو
والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم)

ولعمري كيف يحسب الانسان نفسه شهد الابداع
وجمال العالم واتقانه ولم يطالع فن الفلك أو لم يلم بشيء من مبادئه
يعرف به مقصوده وما أكثر الدعوى في بلاد الشرق وما

أعم الجهل به اللهم امنح أمتنا رجالا صادقين يحولون وجهة الشبان الى نهج العلوم والمعارف وسلوك سبل الترقى فى الحياة وان شئت فاقرأ قوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ان فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون) ثم اتبعه بذم من اعرضوا عن هذا النظر فقال (ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون)

ولعلك بما تلونا عليك من المقال والآيات شاقتك نفسك لهذا العلم

فاعلم ان الفلك يبحث عن حساب الكواكب واقدارها وسرعة حركاتها والمسافات التى بينها ومقادير ابعادها عنا وغير ذلك اما حسابها فقد تكفل به فن التقويم ولكن المقصود لنا ان نلاحظ ما فيه من الجمال وقد الفتنا قراء كتبنا الى ذلك فى ميزان الجواهر وجواهر العلوم وفي نظام العالم وانما المقصود واما اقدارها فانك اذا علمت ان الشمس مقدار الارض مليونا

و٢٨٠ مرة ثم ان الشعري اليمانية قدر الشمس الف مرة وان هناك ما هو اعظم واختفى عنا لبعده العظيم حتى يرى لنا في الليل البهيم كأنه سحاب ابيض ولعل لتلك الكواكب سيارات وتوابع فانك تقضى العجب من ذلك وتعلم ان هناك مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر اما سرعة حركاتها فاعلم ان حركة قلة المدفع لا تزيد عن عشرة اميال في الدقيقة وسرعة الارض فى حركتها اليومية ١٦ ميلا فى الدقيقة وفى الحركة السنوية الف ميل وفى الحركة العمومية للنظام الشمسى ٣٠٠ ميل كما نقله العلامة اللورد افيرى مع ان الزهرة اسرع منها وعطادر اذ يبلغ الاخير قريبا من الفي ميل فى الدقيقة اى كسرعة قلة المدفع مائتى مرة اما ابعادها عنا فاعلم ان النور يقطع في الثانية الواحدة (١٨٠٠٠٠) ميل وضوء الشمس يصل الينا فى ٨ دقائق و١٨ ثانية والشعرى اليمانية تبعد عنا مليون مره بعد الشمس والنجمة القطبية تبعد عنا بمقدار وصول ضوئها لنا في ٥٠ سنة فانظر اذا حولت السنين الى شهور والشهور الى ايام والايام الى ساعات والساعات الى دقائق والدقائق الى ثوان والثانية مقدار ١٨٠٠٠٠ ميل فكيف يتصور الخلق عظمته

اذ ذاك وهم يعلمون انه لو قذفت قلة المدفع وصارت فى الجو من الارض من زمن ابينا آدم الى الان ما وصلت الى ذلك الكوكب وكم من نجوم غابت عن العيون لبعدها فلا ترى باقوى النظارات واما بعد الكواكب عنا وبعد بعضها عن بعض فاعلم ان علماءنا رحمهم الله قالوا اذا قدرنا قطر الارض ثمانية كان قطر الهواء تسعا وقطر القمر اثنى عشر وقطر فلك عطارد ١٣ وقطر فلك الزهرة ١٦ وقطر فلك الشمس ١٨ وقطر فلك المريخ ١/٢ ٢١ وقطر فلك المشترى ٢٤ وقطر فلك زحل ٣/٧ ٢٧ فهى هكذا

الارض	الهواء	القمر	عطارد	زهرة	شمس
٨	٩	١٢	١٣	١٦	١٨

مريخ	مشترى	زحل
١/٢ ٢١	٢٤	٣/٧ ٢٧

وقالوا ان هناك نسبة شريفة بين الارض والقمر وبينها وبين الهواء والزهرة والشمس والمشترى اذ فلك القمر مثل فلك الارض مرة ونصفا والهواء مرة وثمنا والزهرة مرتين والشمس مرتين وربعا والمشترى ٣ مرات اما الثلاثة الباقية وهى عطارد والمريخ وزحل فليست نسبتها محموده (اذ المحمود مثل النصف والربع والثمن) فقيل عنها انها نحوس هذا ماقاله علماؤنا

رحمهم الله جارين على مذاهب اليونان ناهجين مناهج النسب المعربة عن النحوس والسعود ولاذكر لك مارسمه الافرنج لتطلع على اواء الشرق والغرب فى النجوم وتتأمل كيف اتحدت الوجهة واختلفت النتيجة ولتعلم ان جميع العقلاء يرمون الى غرض المعرفة سواء اوصلوا الى النتيجة ام لا وجميعهم حكماء ذكر العلامة (افبري) فى كتابه جمال الطبيعه نقلا عن العلامة (يود) قانونا سموه (قانون يود) ذلك القانون لم يتم انضاجه ولم تكمل تجربته فلا يزال محل نظر وفكر ذلك ان كل كوكب يبعد عن الشمع ضعف ما قبله مع زياده ثابتة ما عدا الاول ايضاحه اننا اذا فرضنا ان عطارد بعده عن الشمس أربعة فبعد الزهرة سبعة والارض عشرة والمريخ ستة عشر وفي بعد ثمانية وعشرين متسع عظيم ومنطقة مشغولة بكواكب اخرى يعبرون عنها (زون) تبلغ نحو ٣٠٠ محطة باخرى صغيرة كانها ذرات لا تكاد تتميز اكتشفها العلامة (بيزى) فى اول يناير سنة ١٨٠١ أى من نحو قرن وكلها كواكب سيارة صغرى ومن اجمل مكتشفات هذا العصر واخرها في المسافة العظمى بين المريخ والمشترى وبعد ذلك المريخ ٥٢ وزحل ١٠٠ هذا هو

القانون الذى رسمه (يود) واكمله (بيزي) يريك ان بعد كل كوكب سيار عن الشمس مضاعف لما قبله بزيادة وهو تقريب وها انا اريتك قول الشرقيين والغربيين لتعلم ان كل امريء عاشق للوقوف على اسرار الخليقة مائل الى أن يشهد نظام الله المتقن ليكون من اولى العلم ولتكمل النفس الناطقة بذلك الحساب البديع وكما ان نتائج حساب الكواكب فى سيرها والعناصر فى امتزاجها والمركبات في قانونها يحدث نظام الجسم (بصورته فيغذيه ويهدى الحواس بالنور وسائر المحسوسات فهكذا نفس قانونها وحسابها ونظامها يحيي العقول ويطلعها على عالم الجمال والحكمة المستمدة من اشراق الذات الاقدس الذى له الرمز بقول الله تعالى (الله نور السموات والارض) فافهم

ولنرجع الى ما كنا بصدده فنقول اذا علمت ان بعد عطارد عن الشمس ٣٦ مليونا ميلا امكنك بقانون (يود) ان تعلم مقدار بعد أى كوكب سيار عنها هكذا ـ ٤ ـ ٧ ـ ١٠ ـ ١٦ ـ ٢٧ ـ ٥٢ ـ ١٠٠

﴿ العالم السفلى ﴾

وليس العالم السفلى كما يراه العامة مبعثرا مشوش الترتيب بل هو محكم منظم عجيب واذا اتبعت مارسمناه في هذا الكتاب وقرأت ماسطرناه في كتابنا (العقد الثمين في آراء العرب ومذهب دروين) الذى مضى فى هذا الكتاب لعجبت كيف اتسق خلق الجماد والمعدن والنبات والحيوان والانسان وصارت هذه كلها سلسلة واحدة أخذ بعضها بحجز بعض فترى الجماد تتلوه المعادن من قصدير ورصاص ونحاس وحديد وفضة وذهب يرتقى عنها النبات اصغر فصغيرا فكبيرا فاكبر حتى تصل النخل ثم الصلة التى بينه وبين الحيوان وتدخل فى عالم منظم من هوام فى البر والبحر لحشرات لحيوان بحرى فطيور فجوارح فبهائم فانعام فوحوش فسباع وهكذا حتى يصل الى انسان نازل التربية فآخر فاضل حتى يصل الى الانبياء فالملائكة الكرام واريد ان تلاحظ جمال العالم ملاحظة دقيقة وتقف على ماسطره علماء الافرنج وتلاحظ الترتيب العجيب وتقرأ قوله تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع

البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) ومن ذا الذى
يعد نفسه فى مصاف العلماء وهو لم يشهد الابداع ببصيرته وكيف
يظن انه من أولى العلم مالم ير هذا الترتيب العجيب والخلق الجميل
الذى يعرب ابداعه عن القسط والعدل ولعمرى من ذا يدعي
أن بينه وبين رب العزة في العطف مرتبة واحدة فى قول (شهد
الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط) وهو
لم يشهد بنفسه قيام الله بالقسط والعدل فى ابداعه ولم يلاحظ
هذا الاتقان البديع ويا سبحان الله كان مبدع الكون الهم النوع
البشرى من آدم فمن دونه أن يبحث أولهم وآخرهم عن ترتيب
الكائنات كانه نقش على الواح بصائرهم وكتب فى مكنون نفوسهم
ان ربكم حكيم في صنعه مبدع في نقشه فترى العرب وضعوا
له الجدول الدال على ابعاد الكواكب الذي رأيت فى العلويات
ولاحظوا السعود والنحوس والافرنج وضعوا آخر وحسبوه
من واحد الى مائة فيها وهكذا ترتيب الكائنات العضوية والعنصرية
سائر بنسق واحد كنسق الكواكب وهو عند العرب أمر
شائع في كتبهم أما الافرنج فلم يوقظهم له الا (دروين) مع ما
فى سيره من النتائج المخالفة واعلم انك اذا لاحظت هذا العالم

السفلى ونقشه وابداعه وصوره واشكاله وعجائبه وغرائبه من النبات والحيوان ولاحظت ما خط على جلودها وصورها دخلت في عداد من اثنى عليهم الله فقال (الم تران الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء) فانظر كيف خص خشية الله بمن عرف هذه العلوم بدليل ذكرهم بعد هذه العجائب واعلم ان هذا الفكر كان شائعا فى الاعصر الاول زمن دولة العباسيين وفي قرون اخرى قليلة ولما انقطع سند كثير من العلوم ظن الناس ان الفقه والآلات كافية فى هذا الوصف مع ان ادنى التفاتة الى تاريخ اسلافنا رحمهم الله تعالى والى معنى هذه الآية وغيرها يريك ان خشية الله مختصة بمن عرف هذه العلوم التى رسمناها لك فى كتبنا وامثالها من عجائب صنعه عز وجل وهذه المرتبة لا تنال الا بعد العمل بالشريعة والتخلق بها بقدر الامكان ومقدمته الفقه فلما ضعفت مدنيتنا وقفنا فى مبدأ الطريق هذا وكيف تخشى النفوس الانسانية من لا تعرف ابداعه ولا اعماله ولا آثاره. الرقى في الحياة الدنيا

مداره على هذه العلوم وكيف ترتقى أمة وهى تجهل ماحولها
وما يحيط بها ولقد أنذر الله امة هذا شأنها وهددها واوعدها
فقال (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق
الله من شىء وان عسى أن يكون قد اقترب اجلهم فبأى حديث
بعده يؤمنون) فياحسرة على بلاد الاسلام وشبان الشرق
وأبناء العرب جاء القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم وينادى فى
الاف من الآيات بالعلوم الطبيعية والفلكية والنظر فى الامم
وفي كل شىء واوعدهم وهددهم فجاء من صدهم عنها من ذوى
القصور فاصبحوا وقد صدق عليهم (وقال الرسول يارب ان
قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) اللهم انى دعوتهم بما
اودعته فيما كتبت اجابة لدعوتك وحبا فيك ورغبة اليك وشوقا
لذاتك وانذرت وحذرت معذرة اليك وان عسى ان يعلموا
فضل الامم الراقية فى الحياة الدنيا ونكون فى الآخرة مع الذين
انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن
اولئك رفيقا ذلك الفضل من الله

ولنذكر الآن مقالاتنا الرازية وهما ٩

المقالة الاولى

(هذه العلوم فأين الرقي)

تساءل الاصحاب فيما بينهم آسفين حزنا وأنا بينهم صامت لا سمع مايقولون . قالوا ياويلتنا مالنا لا نرى رجالا نعدهم من الاخيار الا نزرا ولا حكماء نابغين ولا مرشدين ولا مصلحين الا ركزا . بلادنا والحمدلله غنية. مصر محط رجال الشرق والغرب فيناجم غفير ادمغتهم ملأى باللغات العربية والفرنسوية والانجليزية والالمانية من مقتصد وسابق وأيديهم ملآى بالكتب وشوارعهم بالمدارس يتناولون الفنون أنواعا ويزاولون الصناعات تباعا

هل نالنا ما نال القدماء من يونان ورومان ومصريين من اختصاص طائفة بشرف التعليم ! أم انقضت علينا صاعقة محكمة التفتيش تنقب على القلوب الواعية والانفس الراقية (كما كانت فى أوروبا) حكمة حار فيها الفطن . خلت المثلات وتعاقبت النذر واعتاص الجواب فهل من مجيب

قال قائل . حوادث الايام وصروف الدهر وكوارث الزمان وأرزاء الهون والهوان واستبداد الملوك السالفين وظلم

الظالمين من صناجقة المماليك البرية والبحرية من التركمان وتأله الفاطميين وغيرهم من الفاتحين المستبدين . فقال الآخر لكل من الامم نصيب وافر من الظلم وهذه أوروبا خلقوا عبيداً للاشراف غنما لهم طعمة هنيئة بلا ثمن ومع ذلك لم يعقهم عن الاشراف على المدنية والرقى فيها ولم نسمع قط ان احدا من آبائنا الاولين سيم خسف الاستعباد ولا ضرب عليهم الرق ولا بيع مع الارض والماشية كما بيع الافرنسي والسكسونى والجرمانى وغيرهم ثم التفت الى وقال ماذا ترى ؟ فقلت لا تعليم اليوم ولو صح ما عاقتنا شبا الظبات ولا زحزحتنا قلل المدافع وما مثل العلوم في الامم الا كمثل النار تتقد فاذا غشيها الوقود زادلهيبهاوالتهب سعيرهاوتطاير شررهاوأرعدزفيرهافتشخص لها الابصار وتحدق بها الانظار

أو مثله كمثل الماء يسيل فيجول فى كل واد اذ لا يصده سد العرم ولا الحجر الصلد ولا الترب ولا الطين وكل شيء

نعم عندنا تعليم مبدؤه جسماني .أسه الالفاظ بناؤه الاعراب سقفه التفيهق والثرثرة زخرفه النكت الأدبية غايته خبز سميذ وعجل حنيذ وشرب النبيذ وثوب من باريز

فويل لامة كانت علومهم قشورا ودارهم بورا وآمرهم مأموراً . وبعبارة اجلى وأوضح.للعلم غايتان عليا وسفلى جسمية وعقلية كما أن للانسان جزءين جسما وروحا يحمل الاول الثانى ويسيطر الثانى على الاول فهكذا العلم له غايتان تحمل الاولى الثانية وتسيطر الثانية على الاولى

فاذا أردت بالعلم اكمال عقلك وشغل فؤادك بما جل وحلا فلا ريب تنال بالاولى مايقيم جسمك فاما ان اردت حظ الجسم نابذاً حظ العقل والفهم نبذ النواة فلن تصل اليه أمد الدهر (وأن ليس للانسان الا ماسعى.من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب)

وسأتلو على مسامعك قصصا يوضح المقام ويزيل الابهام فيما سترى ان شاء الله تعالى

﴿ المقالة الثانية ﴾

(هذى العلوم فأين الرقي)

هل لك أن تستوضح ما قررته لك أمس من أن الامم اذا كانت وجهة علومها جثمانية محضة ـ زالت الصلة بينها و بين مبدعها وتدهورت فى مهاوي الخسران وباءت بالنكال ولأقص لك قصصا يوضح ما انبهم ويحل ما استعقد

كان فى الامم الغابرة عالم يسمى بلعام نبغ بين اخدانه فاستظهر العلوم العقلية والنقلية وصار يشار اليه باطراف البنان وسارت بذكره الركبان واذا دعا ربه أجاب

وكان النبي موسى عليه الصلاة والسلام مرسلا اذ ذاك فسار فى جيش من بنى اسرائيل الى أرض بلعام فأجمع القوم أمرهم أن يستظهروا ببلعام فأبى لعلمه ان النبي من عند الله فاحتالوا على زوجته بالمال فغووها فأضلته فأتبع هواهم فانقلب علمه جهلا فاتبعه الشيطان فأخذ يفكر فى الحيل والدهاء والمكر وأساليب الخبث السياسى فانسلخ من الكمال فكان من الغاوين. والخلاصة أنه حول العلم الذى ضاء به قلبه الى دهاء ومكر لينال به اشباع

بطنه وسد عوز شهواته فكان من الخاسرين وكان قبل ذلك مجاب الدعوة فأقفل بابه بعدها وحرم بهجة العلم ورونقه وأنذر بالحرمان والطرد وذلك مثال لكل عالم فى الارض لا يريد بالعلم الا أن يكون آلة

والمثل الا وضح انك اذا احضرت كلبا لدى ملك عظيم وألبسته بزة نضرة وتاجا مرصعا وأجلسته في تخت الوزراء واوقفت الجند حرساً والاشراف خدما والحكام حشما ثم رأى عظما معروقا أو لحما متروكا على سدة الباب جرى مسرعا اليها شرها تاركا ما كان معظما حامله موقرا لابسه مجملا نائله

فهذا هو حال الكلب ان حملت عليه بالمصالحث فأخرج لسانه مندلعا وان تركته لم يزل على حاله جشعا لا يعرف المشقة من الراحة ولا الجحيم من النعيم

بل ذلك مثل كل متعلم نال امنيته من العلم ثم سولت له نفسه ان ذلك لشهوة النفوس فحسب وصد النفس عن جنتها ونعيمها من الارتواء من انهاره وورود حياضه وسلسبيله وأشجاره واقتطاف ازهاره وجنى ثماره ذلك هو العائق عن الوصول الى المدنية كما وصلت الامم المحيطة بنا من كل جانب فاذا شئت ان

تقرأ هذه المعانى والقصص ونتائجه في القرآن فاقرأ قوله تعالى في سورة الاعراف

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) إشارة الى بلعام وكل من تعلم علما ما حتى الجغرافيا والاشياء (فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) اشارة الى اتخاذ العلم آلة فحسب مع نبذ رقى النفس والعقل به ثم أوضحه فقال (ولو شئنالرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه) ثم أوضحه بمثل الكلب فقال فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) وأبان ان تلك المثلات انما هى غواش من الحجب النورية أو سرادقات من العلم تضم فيها اسراراً من الحكمة فلم يدعها عند حد التمثيل بل صرح واوضح فقال (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) وجهلوا نفوسهم وغرتهم الامانى فباءوا بغضب الكسل على غضب الجهل . ثم أبان ان الغرض من القصص آثارها ومن المثلات علومها وفهمها ومن النار نورها ومن القصص مغزاها ومقصودها وأن الجامدين على أحاديثها والمنكبين على اعرابها وبيانها والغافلين عنها ساء مثلهم فتسربت اليهم التعاسة والشقاء فقال (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا

القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون) ثم أخذ يشرح صفات رجال الامم المنحطة وعقلائها وذوى النفوذ فيها وانهم يقنعون بجسوم العلوم دون ارواحها أو المبانى دون المعاني أو يسمعون القصص فيتخذونها سلوة واذا رأوا حكمة ردوها للشهوات فقلوبهم غلف وآذانهم صم وأعينهم في غطاء فقال (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون)

(ميزان وبرهان)

اذا شئت ان تسبر أمتك بهذا المسبار فانظر خواصها فان الفيتهم متكالبين على الرسوم لذاتها والوظائف رابضين قانعين بما أوتوا من الرزق متكالبين عليه وشغلوا القوة العاقلة بهذا وحده فبشرها بالحياة الحيوانية والاستعباد الادبى وبضدها تتميز الاشياء

كيف السبيل

انما السبيل لذلك أن تؤلف الرسائل المشوقة للعلم الحاثة

عليه كالاحاديث المحببة فيه حتى يرغب لذاته كقوله عليه الصلاة والسلام (ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلب) وقوله عليه الصلاة والسلام (من سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا الى الجنة) اه

﴿ المقالة الثالثة ﴾

(مقدمة الكلام فى)

(أحوال الدول فى قصص فرعون وموسي عليه السلام)

الانسان في حياته ينتهج سبيلا سلكه من قبله واختطه له جاهل أو عالم فاما مكبا على وجهه أو سويا على صراط مستقيم

كل ابن أنثى يتخذ طريقا سنه الابوان أو الاقربون أو الاخدان والاصحاب والعشيرة والقبيلة والمربى مع ملاحظة الامزجة وهؤلاء يهدونه احد النجدين اما الخير أو الشر . وبمقال آخر ان هؤلاء مثل ضربت له وسبل سنت طرقا للسعادة أو الشقاء والتاريخ مثل واضح يتمثل به الانسان سيره فى نفسه واهله ومدينته متى عقل وعمل وحوادث الاصحاب والاخوان تاريخ تشاهده العينان وتسمعه الاذنان ولا جرم انه يسد عوز الحكيم

اذا عقل في سيرته الشخصية والمنزلية أما سيرة المدن وتقلبها فمرجعها الى مرآة اوسع واعظم ألا وهى تواريخ الامم الغابرة فهى المنظار المعظم تدرس بها الاخلاق فى شكل بهيج جميل

لعمرك ليس كل تاريخ يغنى (وما كل مصقول الحديد يمانى) فقد يستسمن ذوالورم وينفخ فى غير ضرم يسرد المؤرخ حكايات الاولين قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ولن تجد العبر الا فى آثار واحوال تستأنس بها النفس وتطمئن لها العقول وتذكر له الحوادث برونق بهج ونوائجها ظاهرة واضحة خيرا أو شرا فيخرج القارىء من بساتينها مقتطفا من رياضها ازهارا وجانياً من اشجارها اثمارا ولقد ذكر العلماء ان درس التاريخ ان عدل عن هذه الوجهة كان شغلا بلا فائدة وضياع وقت وحياة نذكر ذلك ليكون عبرة للعالمين لا سيما المصريين وقد كان فرعون يقول (أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون)

ذلك تذكرة للكاتب والقارىء لانا نعلم انه لم يكن ليجعل حكاية يسلى بها القارىء نفسه كما يشعر به قارىء رواية أو يقتل به الزمن كلا . كيف وهو تعالى يقول (لقد كان في

قصصهم عبرة لاولى الالباب) والعبرة مشتقة من عبور البحر فينقل قارىء التاريخ حال غيره الى نفسه ويعبر به على سفن الالفاظ الى جلجلانه ويقول تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) ويقول جل وعز (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) ويقول سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام (ما تحت الشمس من جديد) ويقول علماء العصر (التاريخ يعيد نفسه)

غفل الناس عن ذلك الاعتبار جهالة بالقصد وخبلا عن الفحوي ورضاء بالقشور وابتعادا عن أسرار البلاغة

جاء الخطاب بلسان العرب وهم يعلمون ضرب الامثال والمواعظ ولكل مثل مورد ومضرب وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازيها ومراميها واحوال العرب عامة تنطق بها

فمن اجهل ممن جمد على الالفاظ دون معناها اوالمعانى دون مغزاها ولذلك قال أبلغ البلغاء عليه الصلاة والسلام (شيبتنى هود واخواتها) وترى كثيراً من الادباء اذا ازمع هداية انسان ذكرله قصصاً تشبه حاله فيردعه عن غيه فتكون اشد تأثيرا من وقع الحسام وتثير فى القلب حمية واقداما أو خيفة واحجاماً فزال

المراء ورفع الغطاء ان الخبر فى مغزاه كالسهم في مرماه فلنبدأ
بعد هذا بما وعدنا ونذكر تلاشي الامم فى قصص فرعون
وموس عليه السلام

﴿ المقالة الرابعة ﴾

أشرنا في المقال السابق الى ان تاريخ مصر امس بالمصريين
وانفع للعالمين ونحن لا نعلم من تاريخ دولهم الا انهم كانوا فى
ليل الجهل الدامس حتى بعث لهم نبي الله ادريس المسمى بهرمس
ويسمى المثلث لانه كان طبيبا ومهندسا والهيا وورد انه اول
من خط القلم فاقتبس المصريون الحكمة المطمورة الآن في
النواويس تحت الاحجار والصخور وكانوا موحدين وتناهوا
في ذلك التوحيد وبنوا الهيا كل العظيمة آثاراً لجلاله ونظروا
فيما حسن ولطف دلالا على جماله ثم نسوا المعبود وعبدوا الاثر
وتراخى الزمن وبقي التوحيد سراً مكتوما عند حملة الدين
وحرموا العامة منه فارسل النبي موسي عليه الصلاة والسلام
فبرهن للخاصة والعامة بالعصا واليد فنجع في الخاصة وهم القليل
وآمن بنوا اسرائيل وبقي المصريون في عمايتهم وجهلهم مع

فرعونهم (فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين)
فاغرق فرعون وجنوده واما بقية الشعب فاجتاحتهم جائحة
الحبشان بعد الاسرة العشرين ودمرتهم صاعقة الاشوريين
واحاطت بهم سرادقات الفارسيين فجاء قمبيز فلعمرك ما سدد
سهمه عليهم فاصماهم واقصد القلب الا بقوس من شعائر دينهم
عبدوا بعض الحيوانات ومنها الهرة فوضعها قمبيز بين
الجيشين فتحرج المصرى عن قتالها فاصابها وأصابه قمبيز فملك
وقتل وسبي وغزا وارسل الجيوش وقتل العجل المعبود واغضب
المصريين وكان ما كان من هلكته

مضت دولة الفرس فورثهم اسكندر المقدونى وبعده
البطالسة فالرومان الذين استباحوا ماحرمه الظالمون فقتلوا
الابرياء وانتهكوا الحرمات وغالت الامة غولهم وجاء عمر مهيمن
عليهم بجناح الرحمة واسدل ستارا من العدل وحرسه بجند من
الايمان وبنى عليه هيكلا من العلم وزينه بزخرف من الكياسة
ووشاه بنقوش الحكم وسيطر عمر ابن الخطاب عليه فجاء نوراً على
نور وسجاه بثوب من الرغبة وقنعه بسوط من الرهبة فوصمه بما
وصم امام الصحابة رضى الله عنهم في قضية ابنه وابن القبطي اذ

ضرب الثانى الاول بحضرمن الصحابة فى المدينة حتى قال القبطي قد شفيت نفسي

كل هذا وحال المصريين تنادى

وانك عادل يا عمرو فينـا ولكن جئت فى الزمن الاخير

فأكثرهم أبيدَ بيدِ الفاتحين الظالمين وحقت عليهم كلمة العذاب مصداقا لما روي عن ادريس النبي عليه السلام

يامصر يامصر ستتركين دينك القويم القديم وتستبدلينه بالصور والتماثيل فستذهب رجالك وآمالك وتبقي اخبارك فى أحجارك

والكتاب اوضح هذا فقال فى فرعون (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ولقد آتينا موسي الكتاب لعلهم يهتدون)

العبرة فى هذا ان الامم لهاباب ترتقي فيه وآخر فيه تضعف قوتها واذن لا بد لها من اصلاح فاما ان تتعظ الامة بالمرشدين الناصحين والا فلا مناص لها من السير على نهج فرعون وقومه

بهلاك الجند كما أغرقوا ثم الاستعباد المتعاقب وتتابع الامم المصمية المهينة الفاتكة وان الامة اذا ظلت عاكفة على عجول جهالتها فهي دابة كل راكب خادمة كل سيد طفلة كل مرب زوجة كل بعل وكما لم ينفع المصريين ان انجلت عنهم دول الاحباش والاشوريين والفرس واليونان والرومان بل كلما راح ظالم غدا عليهم جبار فهكذا ياقوم فليكن حالنا اليوم فما دمنا جهلاء فنحن سنكون ابد الدهر طعمة الآكلين فريسة القابضين ولو ساد اليابان والصين أو الفرنسيس والالمان فليس لنا في ذلك مصلحة خاصة فرحمة الله انما ينزلها للمحسنين عملا (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون) ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ان المصريين القدماء لو اعتبروا واتبعوا دعوة سيدنا موسي عليه الصلاة والسلام ماسحقتهم الامم الجائرة بل تراهم تفرقوا شيعا فذاق بعضهم بأس بعض فانظر كيف كان عاقبة الجامدين

أما اهل مصر الحاضرون فما غشيهم ما غشى أهل فرعون فان أكثر سكانها من بيوتات العرب وقبائلهم نزحوا اليها وهم

وان نسوا انسابهم ففيهم بقية صالحة من صفات النجدة والشرف تظهر بكثرة فى عرب البادية المصرية وتقل في الفلاحين وتضعف في أهل الامصار والمدن الكبار الا فى أناس ارجعها لهم التعليم ان صح فلا حكم عليهم كما حكم على الامة التى قبلهم ولا أرى أن يسام الحاضرون بالغابرين

هـذه أمة عربية فتحت منذ قرون وتتابعت فى هذه الديار زمراً زمراً زمن الامويين والعباسيين والفاطميين الى نحو القرن السادس الهجرى وان ما فى البعض من سمات الذلة يرجى زواله بعد حين كيف وقد غلبت صفات الفاتحين من العرب على من دخل دينهم وعاشرهم وصاهرهم فاذا قيل مصر بقيت فى الذل ٤ آلاف سنة فذلك لا يكون حكما علينا كيف وقد كان من العرب انفسهم الفاطميون الذين انقرضوا من نحو سبع قرون وعليه فان أمتنا قابلة لاسرع الرقى في أقرب الازمنة متى تعلموا وسنذكر بعد هذا كيف تولد الامة وهى جنين وكيف تشب وهى طفلة لعوب

المقالة الخامسة

(فى انشاء الامم)

سبق القول انا سنبسط شرح احوال الامم آن تدرجها وهى اجنة في البطون فى مدارج الحياة ونشأتها وان ذلك سنة لا محيص عنها للامم اعمار وابتداء وانتهاء كطلوع الشمس وزوالها وغروبها وكالانسان طفل فشاب فشيخ فميت وكالسنة ربيع فصيف فخريف فشتاء فموت كسير القمر توليد فتربيع فبدر فتربيع ثان فسرار وكالنبات ينبت فيستوى على سوقه فيعجب الزراع فتراه مصفرا فيكون حطاما وكل بائد مما ذكرنا يخلفه نظيره وشبيهه اما بالحركات فى الافلاك او بالولادة فى العناصر الزوجان من الانسان مهما حاولا ان يتناسيا النسل فلا مناص منه للجمهور شاؤا أم ابوا فهكذا الامم تراها مقهورة مسخرة على كفالة سواها مما تحت سيطرتها ولكم حاولت الامم القاهرة ان تبقى فريدة فى الوجود وتدمج سواها فى جسمها فلا تلبث ان تتمزق كل ممزق بايدى الامم الضعيفة فيسود الضعفاء ويحكم المقهور (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون

وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون) وناهيك بما وقع للمصريين من السودان وهم عبدانهم والكنعانيين وهم الضعفاء المقهورون وماكان من تمزق الرومان بايدى الفاتكين من الامم الوحشية اذ شنوا الغارة على دولة الرومان الغربية ومزقوها كل ممزق وذاقت جزاء ما كسبت يداها من الظلم وحق عليها القول هكذا ترى العرب غلبوا الفرس على امرهم فى اعصر النبوة وهم كانوا تحتهم بالاسم والغلبة والقهر (وتلك الايام نداولها بين الناس) هـذا وليس رقى الامم بلا موجب فللرقى اسباب وللتدلى اسباب ولقد فصلنا القول فى اسباب السقوط فلنشرح الآن اسباب الرقي من قصة فرعون وموسي عليه الصلاة والسلام اذهما اقرب لنا مكانا ومولدا ومهاجرا وقدمنا انها ذكرت فى في الكتاب الحكيم لتذكير العالمين عموما والمصريين خصوصاً ليتعظوا ويقيسوا الحاضر بالغابر والشاهـد بالغائب ويعتبروا بالامم السالفـة (هو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) وقد استخلصنا اسباب الرقى اذا هى عشرون عشرة منها بكسب الانسان وعشرة من الله ومتي قام

الناس بما عليهم منحهم الله ماعنده من الهبات والمنح العشرة
الاول ان تمنح الامة رجالا صدقوا ماعاهدوا الله عليه فاخلصوا
في اعمالهم لاممهم وجادوا بمالهم وجاههم وعملوا الاعمال لذاتها
لا رياء ولا سمعة بحيث يكون ذلك كانه خاصة فيهم هبة لهم
وهذا كما ساعد موسى عليه الصلاة والسلام بنتي شعيب عليه
السلام في سقي الغنم اذ (قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وابونا
شيخ كبير) فرفع الحجر عن البئر فسقى لهما ثم تولى الى الظل)
وكان ماكان من زواجه باحدى الابنتين ورعيه الغنم ١٠ سنين
وكما اقام الخضر الجدار لليتيمين بانطاكيه وقد ابى القوم ان
يضيفوهما وما كان ذلك الا عملا اريد به فضل العمل لذاته لا اجر
ولا شكور

(٢) حسن السياسة مع الامم الفاتحة المغيرة وافهامها
حاجات الامة المغلوبة بما في الامكان واجتذابها اليها بما جمل من
العلم والمعرفة كما وقع للنبي موسى عليه الصلاة والسلام اذ خوطب
(اذهب انت واخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري اذهبا الى فرعون
انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر اويخشى الى ان قال (فارسل
معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام

على من اتبع الهدى) فجمع بين الارشاد واللين في القول أو الشفاعة فى قومه وهذا واجب شرعاً على كل من أوتي حكمة فى القول وجاها وعلماوقدرة ان يتذرع بها الى الأمم المسيطرة على امته ليريهم وجه الصواب والخطأ ويسعى فى علو شأن أمته لهذا نزل القرآن لا تغنيا أو اعرابا لخسب أو تاريخاً ومن اعطاه الله حكمة اوجاها فانتبذ من أهله مكانا قصيا عاكفا على شهواته فبشره بالمذلة والهوان وليعش معيشة الحيوان مخالفاً حكمة عامة الاديان

(٣) القوة العلمية واقناع الخاصة بما يلائمهم والعامة بالمحسوسات حتى تتحد الطبقات على مبدأ واحد يشير الى الاول قوله تعالى فى موسى (قال فمن ربكما ياموسي قال ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وقوله (الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات شتي) فهذه براهين تعقلها القلوب الواعية والانفس الراقية وهى تشير الى مايعقله العقلاء ويتباهى به الحكماء وثم تلقفت عصاه افك السحرة واخرج يده فاذا هى بيضاء وهذه محسوسة لدى العامة معقولة أيضاً لدى السحرة

(٤) الانفة والغيرة والبأس والحمية وحماية الذمار وخوف

العار بأزالة المنكرات جهاراً واستئصالها ليلاً ونهاراً عند القدرة كما قتل موسي القبطى الظالم للاسرائيلى فوكزه موسي فقضى عليه) وان ندم بعد ذلك وهكذا ان اذاق الخضر الغلام كأس الحمام لما كان مرسوما على صحائف نفسه فراسة بنور النبوة والعلم انه سيضل به الوالدان فهذه اشارت وملامح يراد منها انتهاج خطة الصلاح والاصلاح فهذه اشجارهذا زهرها واثمار هذا طعمها وفاكهة هذا حلوها

(٥) سياسة اللين عند الاستكانة والضعف واستجلاب الحيل ودفع المكروه بالتى هى احسن كما احتال الخضر على نجاة السفينة من الظالم بخرقها (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وهكذا ام موسى وضعته فى التابوت لنجاته (فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافى ولا تحزنى أنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين)

(٦) الثبات على المبدأ والصبر امد العمر الم تر كيف خرج قوم موسي من البحر سالمين ونجوا من الغرق (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فاتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا آلها كما لكم آلهة قال انكم قوم تجهلون الخ) هذا

في العلم وفي المحاربة قالوا له (اذهب انت وربك فقاتلا اناههنا قاعدون قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى) وبهذا اتعظ نبينا عليه الصلاة والسلام فقال والله لأقاتلنهم ولو وحدى

وليس قصدنا من هذا الا الثبات على المباديء الشريفة وانتهاج خطة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فمتى صح لديك البرهان فكن على مبدئك ولا تبال بعاذل أو ناقم

٧ اشعار النفوس بالشهامة وعلو النفس وان لهم اتصالا بمبدع العالم ولهم شرف وفضيلة ولذلك كرر ذكر فضائل بنى اسرائيل فى القرآن بهذه العبارة (وانى فضلتكم على العالمين) تذكرة لهم في زمانهم وتذكرة لمن يقرأ هذا الدين الجديد فويل لامة تقرأه وهى ترى الصلة بينها وبين مبدعها منقطعة فتذل وتخزى كيف وهذه الامة عموماً وجمهور المصريين أبناء العرب أرباب التاج وملوك الارض مدنوا العالم منا الامويون والعباسيون والفاطميون وما الطولونيون والاخشيدون الا موالى أبائنا وما المماليك البرية والبحرية الذين دوخوا هذه البلاد الا من موالى اسلافنا ولقد أدركت القوم فى القرى ايان لفومة أظفارى وهم يفخرون بقرى الضيف وضرب السيف

وينشدون الاشعار الحماسية وماعهد اكتساح التتار بمائتي ألف من المصريين أيام المظفر من نحو سبع قرون ببعيد

ولعمرى لان تمتلئ النفوس شهامة والعقول حماسة والقلوب أقداما خير من أن نراها ذليلة منكسة الاعلام مرتاعة الافئدة مرتعدة الفرائص حائرة ذاهلة وتضمحل كخيوط من شعاع الشمس أو دقائق الهواء أو ذرات الهباء خائرات القوى

٨ تربية الناشئة على مبادى جديدة تصلح للرقى والتربص بمن شبوا وشابوا على الذلة والمسكنة حتى ينقرضوا ويموتوا كما وقع لبنى اسرائيل لما جبنوا عن الحرب بقوا فى أرض التيه اربعين سنة حتى نشأ رجال تمكنوا من دخول مدينة الجبابرة (قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض فلا تأس على القوم الفاسقين)

(٩) الفرار بالاهل والعشيرة والامة من حال ترديهم الى هاوية العذاب الى حال أخرى كالخروج من أرض الى أرض وان ذلك يسهل متى اراد الانسان وهو أبو العجب الم تر الى موسى عليه السلام كيف مر ببنى اسرائيل من أرض فرعون الى أرض كنعان

(١٠) ازدواج اللين والشدة وقد كان للاولى هارون وللثانية موسى عليهما الصلاة والسلام هذه العشرة متى ظهرت في افراد من الامة منحهم الله هبات وافرة وهي عشرة سنذكرها فى مقال آت ان شاء الله تعالى

﴿ المقالة السادسة ﴾

قلنا فيما سبق ان الامم تحيا برجال يجمعون عشر خصال اخلاص العمل لامتهم والحنو والشفقة وتذليل العقبات بين أممهم ومن غلبوا على أمرهم وما من أمة من أمم الشرق الا ولها علاقة مع دولة غربية فعليهم أن يخلصوا لبلادهم فى العمل رغبة فى حسن الاثر والاحدوثة الجميلة وتخليد الذكر ان كانوا أوساطا فى العلم او الثواب الجميل والشوق الى مبدع الكون وتقليده فى صنع الجميل بلا طلب اجر ان كانوا حكماء واقناع الخاصة والعامة بالمعارف المناسبة لهم وتعميمها وتهذيبها بجميع انواع الوسائل المرقية للامم ودفع الاذى عنهم وحماية الذمار ودفع العار متى أمكن ولو اذاقهم الفاتحون كاس الحمام وجرعوهم الموت الزؤام فلا أمة تفعل ما فعلت الفراعنة

فى بنى اسرائيل ومع هذا فلم يترك موسى عليه السلام فرصة
قتل نفس منهم والتلطف عند الحاجة والثبات على المبدأ مهما
عارضه الاقربون والادنون واشعار النفوس بمكانتها وشرفها
فلا ينبغى ان تصغى الامة الى من يصغرها في عينها ولقد قال
ابن خلدون رحمه الله ان هؤلاء الذين يسكنون الخيام في البادية
هم ملوك الاعصر الغابرة وهم يجهلون اصلهم وتاريخهم وأنا
أقول أننا قبائل نزحنا الى هذه البلاد واقاليم السودان واستوطناها
وتغلبنا عليها من آماد واجيال قريبة العهد لا تقتضى بان يضرب
علينا الذل والمسكنة ولا يقال في مصر (وهى لمن غلب) فانما
كان هـذا المثل مضروبا لامة خلت (تلك امة قد خلت لها
ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون)
وتربية النشء على المبادىء القويمة والعزة ومزج الشدة باللين
والفرار بالعشيرة عند الحاجة مكانا أو صفات أو اخلاقا اوملكا
الخ هذا ملخص ما ذكرناه امس ونقول هذه العشرة تتبعها
العشرة الاخرى التى قلنا انها هبات من الله وهى تساوقها بلا
ترتيب ولا تعقيب فضلا من الله الحكيم لعباده الرحيم بهم
واحسانا

(١) الالهام وذلك يكشف الغطاء عن القول فتنظر لهم وجوه المنافع ومساوى المضار فان النفوس اذا جاوزت هذه العقبات او بعضها حصلت لها جامعة روحية ودخول الى الحكمة فأدركوا حالهم ومآلهم واليه الاشارة بقوله تعالى (واوحينا الى أم موسى) وهذا وان كان بلا كسب ففيه اشارة الى مانحن فيه (٢) اجابة الدعاء والنصر (قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما) (٣) شد الازر وتقوية الافئدة بالاخوان والانصار (قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) (٤ و ٥) النصر والنجاة من الضر (ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين)

(٦) الهداية الى الطريقة المثلى (وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم (٧) حسن السمعة والذكر والصيت (وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزى المحسنين

(٨) القربي من الله تعالى (وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا (٩) التمكن من الخلافة في الارض (ونريد

ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

(انقلاب الاعداء اصدقاء محبين ألم ترالى حديث رجل من آل فرعون (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله) الآيات فكان نتيجة صبر موسي عليه السلام على الدعوة ان قام رجل من اعدائه يطالب قومه بالاهتداء بهديه ولعمرك ان في هذا لبلاغاً للامم المهضومة الحقوق ان من اعطى فصاحة او جاها او حكمة وعلما وجب عليه وجوبا عينيا ان يقوم فيناضل عن أمته بماله او جاهه أو قلمه فان الله عز وجل وعد بالنصر ولو بعد حين حتى بلغ الامر أن صار العدو حبيبا والخاذل ناصرا والمعادي مواليا وهذا يتربصه كل من انتهج منهج الكمال والاعتدال ورقي أمته وهداها ورفع منارها ووسع نظامها (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) ولما جاهد بنو اسرائيل بالقوة والعلم والجاه والمال منحهم الله ملكا عظيما دام ألفاً وخمسمائة سنة مع قلة عددهم وأخذت مصر في التلاشي اذ ذاك ودوختهم الامم المغيرة الفاتحة

من فرس وروم وسودان وكنعانيين وأشوريين وبطالسة (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون)

﴿ المقالة السابعة ﴾

دع بنى اسرائيل وأخبارهم والمصريين وآثارهم وسر بنا رويداً الى ساحل البحر والرياح عاصفة والامواج مصطفة متتابعة كتائب ذات عجيج وزئير تسير جحافلها على سطح الماء تستلم صم الحصا وتلتزم أركان الشاطئ ذهبية الاصيل وما أمامنا الا الماء والسماء والهواء يزجي السحاب فيمور موراً ويثير الامواج فتبنى طوداً وتحفر سرباً وغوراً

قف بنا ننظر غروب الشمس في هذا البحر. وكيف اقتنصها وهو ذرة صغيرة بالنسبة لها . وأطلق لنفسك سراحها لتجول في عالمها وعاطها كؤوس العلم في رياض الفكر علها تروى صداها وتشم شذاها فتسير فى الارض سيرة وتدور فى الفلك دورة

قف وفكر فالعلم غذاء والتاريخ والعمران دواء . أيتها النفس فيم تفكرين وأى مذهب تذهبين !! هذا البحر المحيط

أمامك والشمس تنظر اليه باسمة وقد آذنت بالرحيل مودعة تشير بطرف العين وراحة السحاب « السلام على العالم » « السلام على العالم »

نظر الشعراء . ماذا تنظرين أيتها النفس . أتنظرين نظرة الشعراء علماء الخيال الناظرين للجمال يتخيلون تيجان الماس مكالة جند الامواج ويسمعون انغام الموسيقى الناجمة من هبوب الرياح فيناجون الارواح العالية فتنزل عليهم وحى المعانى الجميلة فيصوغون من صفاء الماء ولطافة الهواء وزرقة السماء وذهب الاصيل صوراً تنعكس في خيالهم عن عالم المشاهدة فتسمعها شعرا كالدر ونثرا كالجوهر . فان تصور صورة الصبا قال :

يأيها الرشأ المكحول ناظره بالسحر حسبك قدفتت أحشائي
ان انغماسك فى التيار حقق ان الشمس تغرب فى عين من الماء

وان رجع وأناب وذكر الشيخوخة قال

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لاتمسى
وطلوعها حمراء صافية وغروبها صفراء كالورس

نظر الكيماوى ماذا تنظرين أيتها النفس ؟ أتنظرين الى ما أحاط بالكرة الارضية من الماء والملح ممتزجين فتجزئى ذراته وترجعيه الى أصله وتحلليه الى عناصره فلا يرى هناك

الا مواد حارة هوائية طائرة واخرى باردة تطاردها فى الهواء والاولى هى الاكسجين والثانية هى الادروجين . ومن عجب ان يكون هذا الماء من مادتين هوائيتين لطيفتين لا يراهما الراؤون ولا يتخيلها الحادسون تضادتا طباعا واتفقتا لطافة أولاهما محيية بحرارتها وثانيتهما مميتة ببرودتها فكونتا هذا الشكل البهيج للعالم . طالما قرأنا فى الحديث أن البحر نار فى نار فلا نذوق له طعما ولا ندرك له فهما فظهر الامر فى المكتشفات الحديثة أن الماء $\frac{8}{9}$ ثمانية اتساعه المادة المحرقة (الاكسجين) وذلك فى الوزن فقط . وفي حديث آخر تحت البحر نار فظهر أنها تلك الكرة النارية المخلوقة قبل الارض وقودها المعادن والكبريت والزئبق مداخنها جبال النار (البراكين) فائدتها اعداد المعادن للآلات والصناعة والزينة لمن بعدنا من الامم وياليت شعري كيف تكوّن من الحار والبارد هذا الجوهر اللطيف وهو الماء فاخرج به جنات وأعناب وفاكهة وحيوان وانسان وسمع وبصر وعقل وحكمة

نظر المؤرخ أم تنظرين الى سطح هذا البحر العظيم وما تحمله الجوارى المنشآت فيه كالاعلام كأنها مدن بنيت آساسها

العلم صنعا والماء وضعاً طيرها البخار فى البحار وكلمها البرق فى اسلاكه والاثير فى خفائه وغيابته كأنها وقد جالت في البحار (ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) عجباً هذه السفن الذاهبة الآتية للتجارة والربح والحرب والسلم. ارجعي أيتها النفس الى القرون الماضية والامم الغابرة والدول البائدة فكم لهم من غدوات وروحات هناك ترين سفن الفينيقيين وجوبهم هذا البحر، والفرس وقبيزهم الظلوم، حمله هذا الموج لخضد الشوكات النافذة وقلم الاظفار الخادشة وأنزل الملوك والفراعنة عن عروشها. وكأنك بالاسكندر المحبب فى رعاياه يجوب العباب ويقطع الصعاب وهو يهد شامخات الصروح ويبنى المدن ويشيدها. وترين البطالسة وترفهم والرومان وغلبهم والامويين وفتوحهم والعباسيين وعلومهم وامم الترك وما وراء ذلك من دول وملوك وأساطيل وجنود الاسبان (ومايعلم جنود ربك الا هو وما هى الا ذكرى للبشر) مروا سراعا وولوا اتباعا وقلبوا اوجه اليابسة كما قلب هذا الهواء الطيف الماء فهاج الناس وماجوا كما يموج هذا الموج ثم تولت دولهم وذهبت ايامهم كأن لم يغنوا بالامس

أين الملوك التى كانت محجبة ... من دونها تضرب الاستار والكلل

نظر الطبيعي ام تتأملين الاضواء وتركيبها وجمالها وكيف كانت سبعة الوان تمازجت واتحدت وصورت شكلا بهجاً نضر اللون في الاودية والجبال والبساتين والاشجار والماء واظهرت محاسن الصور الانسانية. ولولا الضوء ماكان اللون وظل العالم سواداً في سواد ثم نكر كرة عليه فنقول. اهذا الضوء عرض كالالوان والطعوم والروائح تابع لغيره لا استقلال له كبياض الابيض وجمال الجميل أم هو جوهر كالاجسام يأخذ مقداراً من الفراغ ولو اخترنا العرضية ونبذنا الجوهرية فكيف ينتقل من الكواكب الينا ولا استقلال للأعراض فكيف حركتها ونقلتها وكيف جاءنا ضوء الشمس في نحو (٨) ثمان دقائق مع انه كالبياض لاحركة له الا بجسمه واذا رسمناه جوهرا وقدرناه جسما فما الذي اذهبه من العالم اذا توارت الشمس بالحجاب وضربت عليها القباب وهل تذهب الثمرة بذهاب الشجرة أم الولد بموت أبيه ؟ كلا !!!

قفي أيتها النفس في حيرتك فاذا لم يكن عرضاً ولا جوهراً فلا وجود له ! كيف هذا ونحن نشاهده بعيوننا بل لا حياة لنا الا به. لا. انما الضوء حركات في الاثير وموج كامواج الصوت

في الهواء هذا آخر ماوصل اليه عقل الانسان

ام تنظرين نظرة الفلكي للشمس وانها لا تزيد على مقدار دائرة صغيرة في نظر العين ولكن العقل اكبرها فنظرها العرب واليونان فاوصلوها ببراهينهم الى ٥٠ او ٦٠ ضعفاً قدر الارض واوصلها علماء العصر الحاضر الى مليون و ٣٠٠ الف مرة مقدار الأرض ... ما أعجب الانسان وأبدعه اري بعيني هذه الشمس صغيرة فكبرها العقل فتتضاءل العين وعلومها ومعارفها وتضمحل هي وماعليها وتذل المخترقات لعظمتها امام العقل

﴿ نظر الحكيم ﴾

عجبا لك ايتها الشمس . كيف صغرت ايها الكوكب العظيم في العيون وما الذي انزلك من سماء عظمتك وانت سيد الكواكب السيارة حولك عطارد والزهرة والمشترى وزحل وانت انت الملك العظيم انت الهيكل الكبير عبدك الاولون وسجد لك الفراعنة الاقدمون جلست على عرش عظمتك في سماء جلالتك بما منحك منشئك ومبدعك من القوة والعظمة فياليت شعري كيف حركتك العيون وانت في سكون وكيف صغرتك

الظنون وانت ذو الشؤون لا لا انا لا أعجب منك أنت إنما
العجب من نفسي اذ النفوس الانسانية اعظم منك وأجمل وأبهى
وابهر فانها بما لها من السلطان عليك والقهر والعظمة بما اوحى
اليها من سماء العرفان وما اودع فيها من الحكم والحواس استنزلتك
من سماء عظمتك واغرقتك فى البحر فتركتك كالدينار ملقى
فى الماء فوسعك البحر وانت عظيم وادركتك العين وانت كبير
حتى وقف الاسكندر المقدونى على شاطىء بحر الظلمات وهو
جزء صغير من المحيط ورأى الشمس تغرب فيه وما البحر
وماؤه فى جانب ما في العالم من الاجرام والكواكب الكبيرة
الاجزاء حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين
حمئة ممزوجة بالطين او حامية حارة . أأنت ايتها الشمس ذلك
الذى يرسم الليل والنهار بمقدار ويكون الشهور والايام أم انت
التى تدورين كالرحا على القطبين فتجعلين نصف السنة ليلة واحدة
ونصفها الآخر يوما واحداً ثم تتناقص الايام والليالي الى شهور
فشهرين فشهر فاسبوع فايام معتادة على قرب المناطق وبعدها
كما رسم فى أيام المسيخ الدجال وكان ذلك من أعاجيب النبوة
ومرموزاتها المستورة عن النفوس الضعيفة والعقول الخامدة ؟

﴿ ثمرة هذا النظر ﴾

أراك ايتها النفس تلمحين من خلال مسطور الواح العالم نوراً وتكتبين على الخيال منه سطوراً وقفت موقف الشاعر واوقدت النار للتحليل الكيماوى وأمررت الضوء فى البلور والمنشور مع الطبيعي وتأملت معه في سبعة الالوان فى قوس قزح وقطرت الماء وكررت راجعة الى غابر الدهور مع التاريخيّ ونظرت الشمس ومارسمه الاقدمون انها لاحارة لاباردة ولا رطبة ولايابسة وانما الضوء والحرارة بالانعكاس على الارض وما قال به المصريون انها حارة وتركبت من العناصر الارضية

فيقول الاولون بانها باقية ابد الآبدين ودهر الداهرين وكذبهم الاخرون من العرب والافرنج وانها ستمحى من صحيفة الوجود كالانسان وهذا سيرك مع علماء الفلك ثم سبرت الحكمة فى العقول والابصار واختلاف مقادير الاشياء باختلاف درجاتها وعطفت على المفسرين في قصص الاسكندر وانثنيت مع الفقهاء في تقدير الايام اذا زادت عن المعتاد

وهل حظ عقولنا من هذا الجمال البديع الا ان نتعالى

بنفوسنا عن الدنايا ونخطو الى جلائل الاعمال مع عظام الرجال فلتكن النفوس الكبيرة شموس الامم وبحار الحكم يصدر عندها سحاب الطلاب والسائلين ويرد اليها جداول المدح وانهار الثناء من الشاكرين . لعمرك ما العلوم على تباين اشكالها وتمايز اوضاعها وتكثر فروعها الا كمال للعقول تستعد بها الى العروج الى سماء المدنية وترقى الامة . عقل يحلل الماء ويطيره فى الهواء ويحلل الضوء ويحكم ويتصرف أولى بالاحاطة والشمول وانارة السبل والعقول

على نفسه فليبك من ضاع عمره   وليس له منها نصيب ولا سهم

﴿ المقالة الثامنة ﴾

(يأجوج ومأجوج)

يأجوج ومأجوج امتان ذكرتا فى القرآن الشريف فى سورة الكهف وسورة الانبياء قال تعالى قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض» وقال في سورة الانبياء « حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق الآية » فلنجعل هاتين الآيتين موضوع

بحثنا ضاربين صفحا عن وجوه التفسير التي ليس لها مساس به ولنحصره في خمسة مباحث .

المبحث الاول في معنى لفظ يأجوج ومأجوج واصلهم وجغرافية بلادهم .

المبحث الثاني في افسادهم في الارض ويستلزم ذكر تاريخهم

المبحث الثالث في معنى فتحت يأجوج ومأجوج وذكر خروجهم وتعيين زمنه ومايشهد له من الاحاديث وأقوال العلماء ومكاتبات الملوك .

المبحث الرابع في ذكر معنى الحدب لغة ومقارنته بكلام المؤرخين .

المبحث الخامس اقتراب الوعد الحق .

المبحث الاول — أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح مأخوذان من أجيج النار وهو ضوءها وشررها تشيران لكثرتهم وشدتهم وذكر بعض المدققين في البحث عن تأصيلهم ان اصل المغول والتتر من رجل واحد يقال له ترك وهو نفس الذى سماه ابو الفداء باسم مأجوج فيظهر من هذا ان المغول والتتر هم المقصودون بيأجوج ومأجوج وهم كانوا

يشغلون الجزء الشمالى من آسيا تمتد بلادهم من التيبت والصين
الى المحيط المنجمد الشمالى وتنتهى غربا بما يلى بلاد التركستان
كما فى فاكهة الخلفاء وابن مسكويه في تهذيب الاخلاق وفي
رسائل اخوان الصفافقد ذكروا ان هؤلاء هم يأجوج ومأجوج

المبحث الثانى — الكلام على افسادهم فى الارض . وقد
ذكر المؤرخون ومنهم الافرنج ان هذه الامم كانت تغير قديماً
في أزمنة مختلفة على الامم المجاورة لها فكم أفسدوا وقلبوا الامم
قلبا قبل زمن النبوة ودمروا العالم تدميرا وجعلوا عاليه أسفله
فهم مفسدون في الارض بنص القرآن وشهادة التاريخ فقد
ذكروا ان منهم الامم المتوحشة والسيول الجارفة التى انحدرت
من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت الى أوروبا
في قديم العهد فمنهم أمة السيت والسمرياق والمسجيت والهون
وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التى كانت مقر
الانبياء وكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء الامم قديما قبل نزول
القرآن وكذلك ورد ذكرهم في القرآن كما تقدم وفى بعض
الاحاديث ايضا ثم انهم لم يزالوا في حدود بلادهم لايتجاوزونها
بعد زمن النبوة الى ان ظهرت الداهية الدهياء والغارة الشعواء

من تلك الامم المتوحشة الرحالة اذ ظهر منهم رجل يسمى
تموجين لقب نفسه جنكيزخان وقال مؤرخو الافرنج ان معناه
بلغة المغول ملك العالم ولقد ملك من بعده مشارق الارض ومغاربها
اذ أعد نفسه فاتحا لكل العالم وكان خروجه هو وقومه من الهضبات
المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى فى أوائل القرن
السابع من الهجرة فانه بعد ان جمع أمة التتار تحت حكمه اخضع
الصين الشمالية اولا ثم ذهب الى بلاد الاسلام فاخضع السلطان
قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين بن ارسلان بن محمد من
الملوك السلجوقية ملك خوارزم لاسباب سنذكرها وكان يمتد
ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين
مدافعة الابطال لرد هجماتهم فلم يرد شيئا وسقطت الدولة بعد
حرب مكثت عشر سنين ولقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات
والفظائع مالم يسمع مثله فى تاريخ فلم يبقوا على رجل ولا امرأة
ولا صبي ولا صبية فقتلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش
أنواعا ولقد حسبوا القتلى فى مدينة خوارزم وحدها فلحق كل
واحد من جموع جنكيزخان التى لاتحصي عداً اربعة وعشرون
قتيلا واحرقوا المدينة وهدموا اسوارها وأجروا بها الدماء انهارا

فضلا عما فعلوه بسمرقند وبخارى وغيرهما وفتكوا باهل نيسابور
وافنوهم عن آخرهم حتى الاطفال والحيوانات كالقطط والكلاب
وأحرقوا البلد وقد عدت القتلى فى واقعة مرو فكانوا ا مليونا
وثلاثماية وثلاثين الفا هذا ما امكن ضبطه وهذه نبذة يسيرة
بل قطرة من بحر فظائعهم راجع دائرة المعارف وابن خلدون
وفاكهة الخلفاء وقس على ما ذكرناه جميع البلاد التى سنذكرها
فلقد اخضعوا بلاد الهند ومات جنكيز خان بعد قفوله من
غزوها ولما ملك بعده ابنه اقطاى اغار ابن اخيه المدعو باتو
على الروس سنة ٦٢٢ ودمروا بلونيا وبلاد المجر وأحرقوا
وخربوا ومات اقطاى فقام مقامه جالوك فحارب ملك الروم
وألجأه الى دفع الجزية ثم مات جالوك وقام مقامه ابن اخيه
منجو فكلف اخويه كيلاى وهولاكو ان يستمروا في طريق
الفتح فيتجه الاول الى بلاد الصين والثانى الى الممالك الاسلامية
وقد فعل كل منهما ما أمر به فاخضع كيلاى بلاد الصين
وزحف هولاكو على الممالك الاسلامية ومقر الخلافة العباسية
وكان الخليفة اذ ذاك المستعصم بالله فاراد أن يدخل الى هؤلاء
الباغين من طريق المداولات فلم يفلح واخذت بغداد عنوة

فى أواسط القرن السابع من الهجرة واسلمت للسلب والنهب سبعة ايام سالت فيها الدماء انهرا وهو أمر معلوم مشهور وطرحوا كتب العلم فى دجلة وجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم وهذا الخليفة بعد ما احضر لتسليم ما لديه من الكنوز التى لا تحصي وقد ورثها عن اجداده ذبح وعلقت جثته فى ذنب حصان وساروا بها بين أسوار مدينة بغداد وبه انتهت الخلافة العباسية ببغداد ولما استولت ذرية جنكيز خان على آسيا كلها وأوروبا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشأوا منها اربع ممالك منفصلة فاختصت اسرة كبلاى بالصين والمغول وملك جافاتاى أخو اقطاى لتركستان وملكت ذرية باطرخان البلاد التى على شواطئ نهر فلجا وصارت الروسيا تدفع الجزية اليها زمنا طويلا وانضمت بلاد الفرس الى هولاكو الذي دمر بغداد وقد استمرت فتوحات المغول الى بلاد الشام

المبحث الثالث — قوله تعالى « حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج » أى فتحت جهتهم على احد تفسيرين ولقد فتحت تلك الجهة فى أوائل القرن السابع من الهجرة كما ذكرنا فى التاريخ وخرج جنكيز خان وجنوده وملكوا مشارق الارض

ومغاربها كما أوضحنا وقد ورد فى بعض الاحاديث مايشير الى
ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم (اتركوا الترك ما تركوكم فان
اول من يسلب أمتي ملكهم بنو قنطورا) أى الترك مع ملاحظة
ما ذكرناه فى التاريخ انه لم يسلب الامة الاسلامية ملكها الا
هؤلاء وقدورد ايضا فى حديث يأجوج ومأجوج ان مقدمتهم
تكون فى الشام وساقتهم بخراسان فهذه اشارة الى سيرهم
واتجاههم وطريق ومنتهى ملكهم اذلم يتجاوزوا الشام الى مصر
ولا افريقيا وقد ورد ايضا ان يأجوج ومأجوج لا يدخلون مكة
ولا المدينة ولا بيت المقدس ومن العجيب ان جنكيزخان وقومه
وذريته طافوا الارض شرقا وغربا ولم نعثر فيما اطلعنا عليه انهم
دخلوا احد الاماكن الثلاثة فما اجلها من معجزة ظاهرة ثم ان
جنكيزخان هو المراد بحديث (يخرج في آخر الزمان رجل
يسمى امير العصب اصحابه محسورون محقرون مقصون عن
ابواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق
يورثهم الله مشارق الارض ومغاربها) وقد حمله بعض العلماء
قديما على جنكيزخان المذكور وسبب خروجه وحصده الارواح
ان سلطان خوارزم المتقدم ذكره في التاريخ قتل رسل جنكيزخان

والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم واغار على اطراف بلاده فاغتاظ جنكيزخان وكتب اليه كتابا يهول فيه ويشنع على السلطان قال فيه مامعناه .

كيف تجرأتم على اصحابى ورجالى وأخذتم تجارتى ومالى وهل ورد فى دينكم اوجاز في اعتقادكم ويقينكم ان تريقوا دم الابرياء اوتستحلوا اموال الاتقياء أوتمادوا من لاعاداكم وتكدروا صفو عيش من صادقكم وصافاكم اتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة اوماجاءكم عن نبيكم سريكم وعليكم ان تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن ظلم الضعيف قويكم وما اخبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم (اتركوا الترك ماتركوكم) وكيف تؤذون الجبار..وتسيئون الجوار ونبيكم قد اوصى به مع انكم ماذقتم طعم شهده اوصابه ولا بلوتم شدائد اوصافه واوصابه (الا ان الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا اليكم فعوها واحفظوها وتلافوا هذا التلف قبل ان ينهض داعى الانتقام وتقوم سوق الفتن ويظهر من الشر مابطن ويروج بحر البلاء ويموج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج . وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ولابد ان الخالق القديم

والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته وآثار عدله في بريته فان به الحول والقوة ومنه النصرة مرجوه فلترون من جزاء افعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب انتهى المقصود من عبارات كتاب جنكيزخان وانظر كيف كان صريحا بجميع مايراد من هذه المقالة باوفي بيان وهذا مصداق مارواه البخارى بسنده عن ام حبيبة بنت ابى سفيان عن زينب ابنة جحش. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول لااله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هـذا وحلق باصبعه الابهام والتى تليها قالت زينب ابنة جحش فقلت يارسول الله انهلك وفينا الصالحون فقال نعم اذا كثر الخبث . ولقد اتسع ذلك الفتح من ذلك التاريخ الى القرن السابع من الهجرة حتي فتح عن آخره وخرج هؤلاء القوم كما أوضحنا ولقد عثر على آثاره كما قدمنا ولاريب ان هؤلاء الاقوام كانوا غوغاء ولارؤساء لهم.

وصار لهم زعيم خرجوا بعد فتح السد فى المدة المذكورة المجهولة فيها البلاد التى لم تعلم الابافتتاح المسلمين ماجاورهامن بلاد خوارزم وهذه من أجل المعجزات

ثم انه كان بين بلاد جنكيز خان ومملكة خوارزم مملكة تسمى انذار كانها حد فاصل بين الدولتين اوسد بين الامتين فغزاهم الملك السلجوقي واستعبد اجنادهم فارتفع الحاجز بين الامتين فسرت السراير.. وابتهجت القلوب بهذا الفتح وكان اذ ذلك في نيسابور عالمان فاضلان فاقاما العزاء على الاسلام وبكيا حتى ارويا الارض بدموعهما فسئلا عن موجب هذا البكاء والناس فرحون بنصر الله فقالا وانتم تعدون هذا الثم فتحاً وتتصورون هذا الفساد صلحاً وانما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج » ونحن نقيم العزاء على الاسلام والمسلمين وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين (ولتعلمن نبأه بعد حين) فهذا تصريح من هذين العالمين بما اردناه ونص في فحواه ولا ضرورة لخروج كلامهما عن ظاهره وانظر كيف ظهر صدق كلامهما في حينه كما قدمناه وظهر التتر وافنوا المسلمين وماج الناس بعضهم في بعض فلقد اضطرب أهل آسيا وأخذوا يرحلون من منازلهم فراراً وكذلك اهل اوروبا .

المبحث الرابع قوله تعالى (من كل حدب ينسلون) الحدب

ما ارتفع من الارض وينسلون اى يسرعون في النزول من الآكام والتلال المرتفعة وهذه الحالة منطبقة تماما على قوم جنكيزخان المتقدمين فانهم باجماع مؤرخى العرب والافرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطي وحدبها كما ذكرنا

المبحث الخامس قوله تعالى واقترب الوعد الحق اى القيامة ويؤخذ منه ومن سورة الكهف قوله تعالى. «ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً» في مساق قصة يأجوج ومأجوج ان خروجهم قرب الساعة ولكن هذا لا يدلنا على انه لا فاصل بينه وبين الساعة الا ترى قوله تعالى «اقتربت الساعة وانشق القمر» وقوله صلى الله عليه وسلم «بعثت انا والساعة كهاتين» واشار بالسبابة والوسطى ومع ذلك فقد مضى نيف وثلثماية والف سنة فهكذا قال في آية يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فكلاهما اقتراب. ورب قائل يقول أين الاقتراب في الموضعين قلنا معلوم ان ما مضى من الزمان لا يتناوله الاحصاء وما بقى من عمر الارض الطبيعى قدره يسير جدا بالنسبة لذلك ونحن لقصر حياتنا نعد ذلك بعداً ويعده الله الباقى الدائم قرباً قال تعالى «انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً» فالآلاف السنين لا تنافى القرب مهما

امتدت وطالت بنسبتها الى الزمن كله اذ من البديهى ان الآلاف لانذكر في جانب الملايين ولذلك ورد فى حديث ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج وهذا دليل على ان الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمنا ويعبدون الله عز وجل واما صفاتهم المشهورة فى القصص وبعض الآثار فكثير منها لا أصل له اوضعيف الرواية وليؤول الصحيح منها ان خالف حقيقة هذه الامم على قاعدة وجوب تأويل الدليل النقلى ليوافق العقلى الذى قطع ببرهانه فاذا صح ان الارض اكتشفت بتمامها وان الربع الشمالى لم يبق فيه احتمال لوجود أمة مجهولة وجب المصير الى ماقلناه في هذا المبحث او نحوه هذا ما عن لى الآن وهذا ماكنت اجبت به عن سؤال الاديب الهندى فى حينه من أمد غير بعيد في مجلة الهلال في آخر القرن التاسع عشر

ثم قارنت بين حديث البخارى المار وهو قوله عليه الصلاة والسلام (ويل للعرب من شر قد اقترب قدفتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج الخ) فيماذكرناه مع اضطرابه وخوفه

الشديد وبين كلام علماء الجغرافيا فى نحو القرن الثالث والرابع
فزاد يقينى بما كتبت ورأيت هذه البلاد كانت معروفة عندهم
باسم يأجوج ومأجوج وزاد استغرابى جداً لمعجزة ظاهرة
واضحة قد خفى رسمها عنا وكيف تحقق هذا القول فى الخارج
وجاء مصداقاً للقرآن والحديث فالحق والحق أقول أن هذا
النبي والكتاب المنزل عليه لمما يدهش العقول وكيف رأينا تلك
الجهة تسمى باسم يأجوج ومأجوج فى كتاب تهذيب الاخلاق
لابن مسكويه ولكنه اجمال لايشفى غليلا ولا يؤخذ حجة
لاجماله ولقد فصل فى رسائل قديمة الفت فى نحو القرن الثالث
والرابع وذكر فيها أن امة يأجوج ومأجوج هم سكان تلك
الجهة المتقدمة شمال الصين وحددت بلادهم بأنها من نحو سبع
وعشرين درجة من العرض الشمالى الى نحو خمسين درجة
منه وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين وفيها بكين عاصمتها
الآن ولقد كانوا أغاروا على الامم جميعاً وكانوا تفاتحين للعالم كله
فكانوا أشبه بأهل اوروبا الآن فكأنهم اخلفوهم فى عملهم
وفتوحاتهم وسيطرتهم على العالم ومن المقرر ان بينهم نسباً ورحما
فانظر كيف أصبحت دولتهم الآن فى قبضة الصين بل هم الجزء

العظيم منهم وهاهى منشوريا تتجاذبها الروسيا والصين وبلادهم تبلغ فى العرض نحو ثلاث وعشرين درجة كما رأيت وتلك البلاد تسكن الاقليم الرابع والخامس والسادس والسابع من الاقاليم التى اعتبرها الاقدمون هي الحدود المعروفة لاقسام الارض وهي مبنية على مقادير العرض الذى لايتغير بتغير الايام والامم وتداول السنين مما اختطه الملوك الاقدمون والحكماء الغابرون والانبياء السابقون الذين طافوا الربع المسكون من الارض وغابت عنهم امريكا والاقيانوسية لبعد المواصلة وشقة السفر وحيلولة الجبال والبحار وذلك مثل الاسكندر الرومي اليونانى وتبع الحميرى وافريدون النطى وازد شيربن بايكان الفارسى وسيدنا سليمان بن داوود عليهما السلام الاسرائيلى وغيرهم ولما عثرت على هذا علمت علماً يقيناً اننا معاشر المسلمين الآن والدولة الاسلامية اما في حال الهرم وهى وقت نسيان كل معقول ومنقول وأما اطفال ولدهم شيخ كبير فهم يبحثون على آثاره . . فيا عجباً كيف كانت هذه البلاد معروفة باسمها وصفتها ودرجاتها عرضا وطولا ونحن لانعلم منها شيئاً وكيف يخبر نبينا الصادق بهذا الامر ويحصل فى الوجود ونجهله نحن

ولعمرى أنها لمعجزة ظاهرة واضحة ولقد كان الاقدمون يجعلون علم الجغرافيا مما يجب النظر اليه فى الكون مثل قوله تعالى (وفي الارض آيات للموقنين . قل انظروا ماذا في السموات والارض أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء) بل لو لم يكن للنبي معجزة سوى هذه التى ظهرت بالتاريخ والجغرافيا لوفت بالمراد وانى لاعجب من ان النبى صلى الله عليه وسلم يقول ويل للعرب من شر قد اقترب الخ ثم ان هؤلاء أزالوا دولة العرب وانتهت الدولة العباسية بقتل المعتصم آخر ملوكها وبقى خليفة رسمى فى مصر وعند قرب الالف من السنين زال حكمهم مرة واحدة وتفرق الاسلام شذر مذر وما حفظه الا الدولة العثمانية بعد العرب وأما اولئك التتار فهم كونوا أغلب المسلمين في الهند والصين وأغلب آسيا فكما ورثوا أرضهم وديارهم ورثوا دينهم وهذه المسئلة وان كانت بسيطة فملاقتها بعلم العمران أمر عظيم جداً والحق ان علم الحديث أوضح كيف تخرب الدول وعبر عنها بأشراط الساعة وسماها العلماء الاشراط الصغرى اذ الكبرى بخراب الارض كلها والصغرى بادة امة او امم فاذا جاءت الطامة الكبرى زالت

الامم من الوجود

ولقد اوضح الرسول الصادق اموراً كثيرة لايسع المقام ذكرها الآن ولنقصر عنان القلم في ماذكرناه عبرة وتذكرة

﴿ المقالة التاسعة ﴾

(حاجة المسلمين الى مدرسة جامعة كبرى)

ياقوم ألم يأت لنا أن ننظر فيما حولنا من الكائنات (افلم ينظروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض) ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ان في ذلك لآية لكل عبد منيب)ياقوم نرى كل يوم خبراً جديداً ساراً بانشاء مدرسة كذا وتبرع بكذا ووقف فلان مائة فدان على المدارس وثلاثمائة وهكذا ثم نبحث فلا نجد الا اموراً تافهة لا ترجى أي دولة في المدنية عجباً والف عجب قامت النهضة فى بلادنا وظهر لاغنيائها ان الفضل والفخر في البذل وانتشار الصيت ولكن قصرت تبرعاتهم على الامور الجزئية دون الكلية والصغيرة دون الكبيرة . عار على امة يبلغ أهلها نحو عشرة الملايين ولا يكون فيهم مدرسة جامعة للعلوم مازجة

لمصالح الدين والدنيا مدخلة فى غضون ذلك ان هـذه العلوم لآبائنا الاولين حاث عليها القرآن الشريف بكثير من الآيات وكذا الاحاديث ونذكر أيضاً تلك الآيات ولا نقتصر على نحو (ولا تنس نصيبك من الدنيا) فالقرآن مملوء بذلك بل اكثره فيه . اليس من المحزن ان يظهر فينا محسن كبير ومحسن صغير وسيظهر (اظن) محسنون على تمادى الازمان ولا يجدون من يفهمهم ان مدرسة عليا (بشرائط مخصوصة) تجعل مصر فتاة في ريعان شبابها الا يجمل بنا وقد عجز مصلحو الازهر عن القاء ما يفرض الدين علينا من الخلال الجميلة والاستعداد للطوارىء ان ننشيء مدرسة جامعة تكون ملجأ للسورى والبغدادي والتركى والهندى والجاوى والمراكشى والجزائرى والتونسي مع شرائط مخصوصه كما فعل سيسل رودس الانجليزى . زار العلامة المستر دوارد براون الانجليزى مصر وتحادث مع عقلاء المصريين في أمور شتى وتكلم فى مسألة مدرسة يراد انشاؤها بهمة احد الاغنياء وما الذى يجب بالنسبة لها فقال لكاتب هذه الاسطر ان فلانا اوجب ان تدرس فيها لغة أجنبية فما تقول ؟ فقلت أما انا فان اهتمامى راجع الى الكليات لا الجزئيات والذى اعتقده ان مؤسسي

هذه المدارس جهلاء لا يعرفون من العلوم الا مباديها ولا تجمعهم
جامعة الا مع من لم يدرسوا من احوال المدينة شيئاً ولا تاريخ
اسلافنا الاولين كيف لا وهم لم يزيدوا شيئاً على ماهو حاصل
فالازهر والمدارس الاسلامية في المساجد وكتاتيب نظارة
المعارف ومدرسة دار العلوم تغنى عن مثل هذا وانما اقول كان
يجب ان تجعل مدرسة تعلم فيها العلوم العالية ويجعل هؤلاء
صلة بين المسلمين عامة ان امكن . ياقوم انني ليحزنني ان يكثر
عددنا ولا نجد من رجال العلم من يحدثهم بشأن مدرسة جامعة
هل قل المحققون من العلماء نعم نعم والنفر القليل منهم محسودون
هل تخطي العلم الشرق وذهب الى الغرب. هل كانت ثمرة القرآن
محرمة علينا . هل ختم على قلوبنا وسمعنا وابصارنا . هل رفع
القرآن فنعذر فى الجهل . نحن امة حق عليها القول (وقال
الرسول يا رب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) جهلنا
الاشياء ولم نحط علما بما بين ايدينا فضلا عما عداه فحق علينا القول
(بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) والآية شاملة
لكل مالم يحط بعلمه ثم هدد بقوله (كذلك كذب الذين من
قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) الحوادث متشابهة والايام

متتالية والادوار متتابعة كان الامراء في دولة الجراكسة
لبساطتهم وعدم اهتمامهم بالاسلام عموماً يقصرون انظارهم على
وقف تكية ومسجد وكتاب والآن ترقى العمل الى مدرسة
صغيرة الم بأن لنا ان نصل الى الدور الثالث فنقلد المعز الفاطمى
في بنا ازهره . انى يا قوم ليسرني ان تبنى مدرسة يجعل فيها
على الاقل قسم تعلم فيه العلوم العالية لا كالنورمال ومدرسة
دار العلوم بل يوسع فيها اكثر من ذلك ولنا في همة الواقفين
وحبهم للخير وغيرتهم الوطنية وصداقتهم الدينية وحميتهم الملية
خير نصير. وهنا نذكر شيئاً لا يجوز لنا اغفاله وهو ان نذكر
افاضل رؤساء الجمعيات الاسلامية ان يلفتوا انظارهم لموضوع
مهم الا وهو ان ندرس في السنين الاولى نباتات وحيوانات
البلاد درساً طبياً زراعياً توحيديا فيذكر ان الفجل مثلا يدر
البول ويطرد حصاة الكبد ورمالها ويسكن آلامها وانه يثير
شهوة الطعام وانه يحدث انتفاخات غازية وان البقدونس يدر
البول نافع لامراض الكلى وان الشعير ماؤه ملطف مبرد مغذ
مدر للبول وان البصل يصدع الرأس ورائحته تورث عداوة
الاصدقاء ولذلك كان اكله مكروها في الشرع ولكنه يصلح

السائل المنوى ويقتل بعض المكروبات ويصلح الهضم ونحو ذلك مما هو مشهور عند الاطباء ثم يقال لهم تأملوا حكمة الخالق وصنعه وكيف صور وخلق وقدر واعطى كل شى خلقه ثم هدى (وفى الارض ايات للموقنين ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وانبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) وهكذا مما لا يحصى . ويذكرون مثلا النحل وكيف يبني بيوته ويشرب من الازهار وكيف يأتى لنا بالعسل وكيف سخر الله هذا الحيوان الضعيف نافعا للانسان وكيف نفع الانسان بالعسل الناتج منه وما منافعه الطيبة وهكذا وانه ذكر فى القران الشريف ويعلمون حسن الملاحظة كما في العنكبوت وكيف هندس وبنى بيتا محكما اقفله من الداخل واحترس من الاعداء لعمرى ان هذا الشكل يشوق التلاميذ لفهم جميع العلوم ولا يخرجون من سنتهم الاولى الا وقد درسوا ما بين ايديهم وما خلفهم من السماء والارض فانتفعوا ونفعوا . وانى أكرر القول ان رؤساء الجمعيات مسؤلون بين يدى الله تعالى وبين يدى النوع الانسانى عن هذا الامر وهل يليق ان يعلم الانكليز والفرنساويون ابناءهم فى الكتب

الصغيرة تلك العجائب الكونية ونحرم نحن منها . . . نعم نحن نخالفهم فى شكل التعليم فيجب علينا ان نجعل للاحاديث والقرآن وكلام علمائنا الحظ الاوفر عندالكلام على كل علم والاضاع شكل هذه الامة ومزقت كل ممزق كأهل سبا مزقوا تمزيقا جسمانيا فهكذا نحن نمزق تمزيقا عقليا فيصبح هذا درويشا وذاك ابله وهكذا وكان تذكر دودة القطن وكيف وضع الله ابا دقيق ملونا بلون جميل وكيف يموت الذكر بعد اللقاح وكيف تموت الانثى عقب ترتيب البيض ووضعه وضعا متقنا هندسيا وكيف علمت هذه الهندسة وكيف تكون الشرنقة معرضة للتقلبات الجوية وهى سالمة منها بحيث تقاوم مالا تقاومه كثير من الحصون والبيوت العظيمة الانسانية اليس ذلك لحكمة باهرة وعظة ظاهرة (ان ربك هو الخلاق العليم) ويذكر كيف يعرف الورق الذى عليه الدود وكيف يحترس منه فينزع وهكذا . فيخرج التلميذ من المدرسة وهو رجل المستقبل وقد عرف ربه ووحده وعرف دينه ودنياه . ودرس قطنه وخلصه من الهلاك وعرف الصحة والمرض والداء والدواء وقد صار رجلا عظيما كبيراً وقد انذرت وحذرت وكررت مرارا ولئن سالت خاصة المسلمين وعامتهم

وعلماءهم وجهلاءهم عن سبب انحطاط هذه الامة لاجابوك بلسان واحد هي المعاصي هي المعاصي ثم تسألهم عن تعدادها فلا يجيبونك الا بالغيبة والنميمة والازبكية وما شاكل ذلك ويقرؤن (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا) فترى هذا الجواب منطبقا تماما على الآيات القرآنية وهذا حق وصدق يطابق القرآن والوجدان ولكن هل تفسير المعصية بما ذكر كاف كلا ثم كلا . هذه المعاصى المذكورة هى الظاهرة وهناك اخرى باطنة تربو على هذه فى العقاب الآف مرة كالامراض القلبية والاخلاق السيئة والجهل العظيم بل اكبر معاصي المسلمين الآن الجهل قبح الله الجهل قبحه . نادى القرآن على الجاهلين وعيرهم ووبخهم واندرهم بخراب مدنهم فقصرناها على امور قليلة وفاتنا العلم بما حولنا من الكائنات والمواليد الثلاثة حتى جهلنا النبات المحيط والحيوان والانسان فلم ننتفع بالاولين ولم ننج من خطر الاخير (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) الجهل بالنبات والحيوان اورث الامراض وهلاك الزرع لكل ذنب عقاب يخصه فليس عقاب اعضاء الجسم الانسانى

اكل الدودة للقطن كلا . وانما هو عقاب الجهل والتفريط وعدم
البحث من اهلها بالعلوم والمعارف (ولعذاب الآخرة اشد وابقى)
العلوم كلها والصنائع فرض كفاية على المسلمين عامة اقرأ
كتب الائمة الاربعة تر صدق هذه القضية يعذب المسلمون
اميرهم وصعلوكهم وكبيرهم وصغيرهم على تفريطهم في العلوم
والصناعات من القدوم والمسمار الى الكهرباء والبخار ومن
السكين والسيف الى المكسيم والدمدم واكبر صواعق العذاب
تنزل على اغنيائها اذا لم ينفقوا وعلمائها اذا لم ينذروا فيحق العذاب
على الامة فى الدنيا فيجعل عاليها سافلها واعزة اهلها اذلة ويختم
على الافواه فلا تنطق الا بما يوافق اهواء القابضين على الازمة
ويسامون فى الاخرة عذاب النار (قل ما اسالكم عليه من اجر
وما انا من المتكلفين ان هو الا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين)

﴿ باب المسائل العامة ﴾

حكم النسخ فى آيات القرآن والاحاديث ومامناسبته لهذه
الاحوال التي نحن عليها وما حكمته بالنسبة لنا الآن وما يجب
على المسلمين ان يفعلوه في تعليمهم وسياساتهم واحوالهم

لقد علمت ايها المطالع على كتابنا هذا ما طبع عليه هذا الكون من التغيير والتبديل والنسخ فترى الليل نسخ النهار والنهار نسخ الليل وتعاقب الفصول بالحر والبرد والرطوبة واليبوسة وبها يحصل خروج النبات ونمو الحيوان والانسان وكلها فى تغير دائم ونسخ مستمر وما من شمس الا وسيأتى لها أجل مسمى تمحي فيه من الوجود وهكذا الاقمار والسيارات والثوابت وذوات الاذناب وهكذا قرر علماء الفلك والطبيعة (كل يجرى لاجل مسمى) وهكذا كانت جميع المولدات على سطح الكرة الارضية كلما غرب نجم اشرق نجم ويموت الحيوان ويعقبه الآخر وهكذا انواعها فكم من انواع عثر عليها فى طبقات الارض انقطع وجودها الآن بالمرة وكم حيوان يتمتع بنسيم الهواء وروح الحياة ولم يكن من قبل شيئا مذكورا وهكذا سطح الارض فكم من عامر أضحى غامرا وغامر اضحى عامراً وجبل صار بحرا وبحر صار جبلا على هذا تطابقت آراء العلماء في كافة انحاء المعمورة واليه الرمز بحكاية الخضر عليه السلام انه رأي أرضا قفراء وبعد (٥٠٠) سنة رآها مدينة زاهرة وبعد ٥٠٠ سنة أخرى رآها بحرا وبعد مثلها شاهدها مدينة زاهرة. وماذكر الحكماء هذا الا رمزاً

لحال الارض على حسب ما طبعت عليه وما نظمها به مبدعها
وهذا كله نسخ حقيقي فى الطبائع الكونية والكائنات العلوية
والسفلية ولما كان هذا فعل صانع الكون وهو الحكيم في صنعه
(كل يوم هو في شأن) فلا بد أن يكون حكيما فى قوله وما
أنزل على رسله اذ الحكيم في قوله حكيم فى فعله ولذلك تراه
يغير الشرائع بتغير الزمان اذ لا جرم ان تغير الزمان وتتابع
الاجيال يحدث تغيرا فى الاخلاق وتباينا فى الطباع فيكون
بلا ريب للناس شرائع توافق المشارب على حسب ما يقتضيه
الزمان والمكان المتغيران فانزل آدم وشيثا ونوحا وابراهيم وموسى
وعيسي ابن مريم وجاء كل شرع يناسب اهل زمانه وكانت
هذه الديانات كلها كسلسلة واحدة تتصل كل حلقة منها بالحلقة
الاخرى والمتأخر يلهم بعض المتقدم ويزيد عليه بوحي من الله
وإلهام وتعليم وارشاد فتكون الشريعة متصلة بما قبلها من وجه
منفصلة من أوجه أخر وكلما جاء شرع كان أرقي مما قبله
واوفق منه بنوع الانسان وكانها سلسلة ترقى شخص فيكون
جنينا فطفلا فشابا فكهلا وهكذا أو سلسلة ترقى حيوان من
الحيوانات المكرسكوبية الصغيرة وتزيد شيئاً فشيئاً الى

الحيوانات العالية كالانسان الذى يليـه الملك فهكذا الديانات يظهر انها ابتدأت من الابسط الى البسيط الى المركب وهلم جرا فشريعة ابراهيم للتوحيد وموسي للتوحيد والامور العملية وشريعة عيسى أفرطت فى العلمية وجاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالعلمية والعملية بلا افراط ولا تفريط فدين الاسلام في الديانات كالانسان في الحيوانات ولذلك كان النبي خاتما والخاتم بالفتح ما ينقش به صور كثيرة وخاتم بكسر التاء أى آخر الديانات ولذلك ترى العلوم عمت الكرة الارضية وكثرت المواصلات وعم النشر وكل آخذ بما يلائمه من كفر وايمان ولا بد أن يأتى يوم تظهر فيه الديانات محقها ومبطلها لعموم البشر وبسرعة المواصلات فلا لزوم اذن لانبياء يبعثون ويرسلون اذ الكتاب موجود وها هى رسل البريد غير ممتنعة التوصيل الى جميع الاقطار وماأهل الكرة الارضية الا كاهل بيت واحد يتحادثون وهذا هو سر قوله خاتم النبيين ولم يحصل هذا بعد نبي من الانبياء قط نعم هذه هى المعجزة العجيبة . ثم لنرجع الى مانحن فيه فنقول

جاءت الشريعة الاسلامية ونزل الوحي بآيات وجاء

الرسول صلى الله عليه وسلم بأخرى نزل بها الوحي وسميت
سنة وحديثا ثم ترى الآية تنسخها آية والحديث ينسخه حديث
فعلمنا ان ناظم هذا الكون جعل نظامه واحدا فكأنه يقول ها انا
أغير خلقي بيدي (كل يوم هو في شأن) والا كان الوقوف
على نظام واحد قصوراً في الحكمة وجورا في الطبيعة وظلما فى
الحكم فلا بد من التغيير وكل يوم لنا شان فى افعالنا وليست
الاقوال تخالف الافعال في سيرها فهذه الديانات كل دين منها
يوافق ما قبله في بعض ويخالفه فى بعض على مقتضى الحكمة
ونواميسنا فهكذا انزلنا القرآن وجعلناه كالشرائع قد تنسخ الآية
الآية والحديث الحديث لتقلدونا في نظام مدنيتكم مما لا يخالف
آياتنا وسنتنا فنأتى بالحكم لما يوافق المصالح ثم نرفعه ونأتى بآخر
لتغير الاحوال (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو
مثلها ولما كان هذا السن يوافق سن نواميس الكون كما ذكرنا
اعقبه بقوله (ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير) واذا كان
كذلك فوقوفه عند شيء دون شيء هو الجور والظلم فى المادة
ومثلها الاحكام التى نستبدلها بخير منها أو مثلها (ألم تعلم أن
الله له ملك السموات والارض وما لكم من دون الله من ولى

ولا نصير) وقد آن ان نذكر جملا من الناسخ والمنسوخ لتعلم ان الله أراد ان ينبه أن أمة الاسلام التى انحط مجدها آن ان تغير نظام مدنيتها وتؤلف كتبا وتنشئ صنائع وتنسخ ماكانت تصنعه من قبل نسخا بلطف فتؤلف كتب قد حوت من علوم الامة والعلوم الحديثة لتبقى وحدتها بالاصل وتترقى مدنيتها وتساكن الامم المحيطة بها بالجديد كما اتفقت الشرائع السماوية في التوحيد (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) (وما أرسلنا من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون) فانظر كيف اتفقت الامم والديانات على نقطتين أصليتين وهما التوحيد ومكارم الاخلاق واختلفوا فى أمور عملية فهكذا ترى فيما سيأتى فنسخ الآية بآية أخري قد اشتركتا في العدل وموافقة الامة واختلفتا فى الكيفية والهيئة وقد يكون النسخ تدريجيا كتحريم الخمر فهكذا كتب العلوم ونظام المدنية يجب على علماء المسلمين وحكامهم ان يأخذوا فى تغييرها مع ملاحظة القديم والحديث ولتكن الهيئة الاجتماعية قسمين قسم يحافظ على القديم وآخر يولع بالحديث فتتوازن القوتان ويدوم الترقي وحفظ كيان الامة كما حفظت أمم الانبياء وترقت

شعوبهم وكما نرى في دولة انكلترا من المحافظة تارة والحرية أخرى
وماجاء الشرع الاسلامى بالنسخ الا ليرشدنا الى كثرة التروي
والتفكر وان ننظر فى القديم والحديث وقد أرشدنا القرآن
الى ذلك فقال (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب)
ولعمري ان الامة التى تقلد الشريعة الاسلامية فى ناسخها
ومنسوخها وتجرى على منوالها هى التى استمعت القول فاتبعت
احسنه وهم الذين هداهم الله وهم أولو الالباب سواء كان في
نظام دينهم أم دنياهم ولا يظن غِرٌّ انى أريد تغيير النظام مع
مخالفة الدين كلا وانما الدين قواعد كلية تحتها فروع كثيرة فهى
كمسئلة حسابية كثيرة الحل أو كحبة انبتت سبع سنابل في كل
سنبلة مائة حبة ولذلك كثرت المذاهب وكانت كلها صحيحة عجبا
لجاهل يظن منافاة النسخ في الشريعة لها وهو فى الحقيقة نظام
لا يجوز ان يهمل بل لا بد منه لكل عمل وعليه فلينظر علماء
الاسلام والحكام فى علوم الاحكام وليأخذوا ملخصا من المذاهب
المشهورة وغير المشهورة ويجعلوها قانونا تجرى عليه الاحكام
ويغيروها بقوانين أخرى مما يوافق مشارب علماء الاسلام

اذا رأى أهل ناحية من نواحي الاسلام انها اليق بهم واذا لم يعرفوا هذا فليبشروا بان تضرب عليهم الذلة والمسكنة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل له من ربه الوحى بالآية ثم يأتى وحى آخر باية أخرى فينسخها كذلك وكلاهما من عندالله يوافق الامة فهكذا يجب على علماء الاسلام وحكامهم ان ينظروا مايصلح للامة زمانا ومكانا وان يأخذوا من اقوال علماء الامةالتى لانهاية لها في الكثرة ما يليق بهم زمانا ومكانا ليوافقوا مصالح بلادهم اذالشريعة دواء واحوال الامم تعتريها الامراض فان لم يوافق الدواء الداء هلك المريض وهكذا هلكت الامة باستعمال ما لا ينطبق على حالها ومع ان الدين الاسلامى فيه جميع العقاقير التى تنطبق على عامة امراض الامم وحاجاتهم ولقدجعل من مبنى اصوله ان المشقة تجلب التيسير وان المضطر يأكل الميتة وغير ذلك مماهومذكور مسطر في الكتب ولعمرك لم يعطنا الله عقولنا الالنعمل بها ونتصرف على مقتضاها بشرط ان يكون لها رئيس وهو الدين فالعقل لقوى الانسان الشهوانية والغضبية كالدين لعقول افراد الامة ومتى تركت عقولها ولم تطبق احكام دينها على مصالحها واتكل اهل مصر على كلام

البغداديين وهم على الحجازيين وهم على الفرس ضاعت الامة وماتت بمرض الجهل وكانوا من الذين يستمعون القول فيتبعون ما يصادفهم منه ولم يتبعوا أحسنه اذ لم يفرقوا بين الاحسن والحسن حتى يختاروا ما ينفعهم ولقد هلكت أمة خالفت سنة ربها في كتابها من النظر للمصالح وتطبيق العلم عليها فمن الناسخ والمنسوخ (١) انه فرضت الصلاة بالتوجه لبيت المقدس ثم أمروا بالتوجه للكعبة (٢) وقد اخر النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء يوم الخندق حتى كفي الله المؤمنين القتال فدعا بلالا فأذن واقام الصلاة فصلى الصلوات الاربع بهيأتها كما كان يصليها فى اوقاتها فنسخ ذلك التأخير بقوله فان خفتم فرجالا او ركبانا وصارت صلاة الخوف مفصلة فى السنة (٣) وكان حد الزانيات الحبس والاذى بقوله (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن سبيلا ونسخ بما ورد عن عبادة ابن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد

مائة والرجم ثم جاء نسخ الجلد عمن زنى من الثيبين يرجم ماعز بلا جلد له (٤) ورد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انما جعل الامام ليؤتم به فاذا صلى قائما فصلوا قياما واذا ركع فاركعوا واذا رفع فارفعوا واذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد واذا صلى جالساً فصلوا جلوساً اجمعون فنسخ ذلك بما ورد انه صلى الله عليه وسلم خرج فى مرضه فاتى ابا بكر وهو قائم يصلى بالناس فاستأخر ابو بكر فاشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كما انت فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنب ابي بكر فكان ابو بكر يصلى بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الناس يصلون بصلاة ابى بكر قال الشافعي وبه تأخذو ورد التصريح في رواية عائشة بان ابا بكر والناس قيام والنبي عليه الصلاة والسلام جالس فى هذه الصلاة (٥) وفرض الله على العشرين ان يقاوموا مائتين وعلى المائة ان يغلبوا الصفا ولما علم ان فى القوم ضعفا جعل الواحد منهم باثنين فقال (خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا الآيه) (٦) نزل يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه اوانقص منه قليلا اوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا فعلم فرض قيام النصف أوالزيادة عليه أو النقص

عنه ثم نسخ بقوله فى السورة بعينها (ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم ان لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضا حسنا) فوجب بهذا النص ما تيسر من القرآن فى الصلاة فى الليل ثم نسخ هذا الوجوب ايضا بقوله (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسي ان يبعثك ربك مقاما محمودا ويدل له حديث طلحة ابن عبيد الله قال جاء عرابى من اهل نجد ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا فاذا هو يسأل عن الاسلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم خمس صلوات فى اليوم والليلة فقال هل على غيرها فقال لا الا ان تطوع فادبر الرجل وهو يقول والله لا ازيد على هذا شيئا ولا انقص منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افلح ان صدق وروي عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خمس صلوات كتبهن الله على خلقه فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئا استخفافا

بحقهن كان له عند الله عهد ان يدخله الجنة

(٧) ورد وجوب الوصية للوالدين والاقربين بآية (كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين) وللزوجة بقوله (والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصية لازواجهم الآية) فبهاتين الآيتين وجبت الوصية للوالدين والاقربين وللزوجة ثم نسخ هذا الحكم بآيات الميراث فبين فيها ميراث الوالدين والاقربين والزوج من الزوجة والزوجة من الزوج وامتنعت الوصية لمن ذكر وبقيت سنة فى الاقربين الوارثين فالاباعد واختصت بالثلث فلقد اعتق اعرابى فى مرض موته ستة مما ليك فاجاب صلى الله عليه وسلم عتق اثنين لانهما الثلث ولم يجز الباقى وجعل التصرف في المرض كالوصية

(٨) ومن عجائب النسخ ولطائفه مسئلة تحريم الخمر ولا ريب ان فيها نفعا من وجه وضرا من وجه آخر فهى من وجه نعمة ومن وجه آخر نقمة فذكرت من الوجه الاول فى مقام الامتنان جريا على ما يعلمون واخذا لهم بما نفعلون ومجاراة لافهامهم واستدراجا لعقولهم فقال تعالى فى تعداد النعم (ومن ثمرات النخيل

والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون) جعله في مقام الامتنان

ولما كان كل شيء في العالم له نفع وضر وكان التحريم والتحليل يرجع الى غلبة احدهما على الآخر فتى غلب الضر حرم ورد قوله تعالى بعد ذلك (يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما) فابان هنا بالحجة الاجمالية ان الضرا كثر من النفع ومتى كان كذلك فالعقول السليمة تتركه ولذلك روى ان الصحابة انقسموا بعدها قسمين فشربها قوم لنفعها وغادرها اخرون لضرها فاستعدوا اذن لقبول التحريم نصا فجاء قوله تعالى (ياءيها الذين امنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون) فحرمت عليهم في وقت الصلاة

فتركوها في الصلاة وشربوها خارجها ولما قبلوا ذلك وفهموه استعدوا للتحريم فجاء قوله تعالى (ياءيها الذين امنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون)

فتامل كيف جعل التحريم تدريجا ولم يذكره مرة الا مقرونا بذكر سببه معه ذكر في التحريم المطلق سبب تحريمه من العداوة والبغضاء اللذين هما بعض خبائثه لظهورهما بين الناس وشيوعهما في الشاربين حين الاسكار وفيما قبله ذكر العلم بما يقال في الصلاة وهكذا

(٩) ولما لاحظت هذا السيدة عائشة رضى الله عنها وعلمت ان كل شيء ينزل لمناسبة الاحوال قالت لو علم رسول الله ما احدثه النساء بعده لمنعهن الخروج الى المساجد فكانها قارنت منفعة العبادة بمضرة الفتن فرأت المضرة زادت في زمان هذا القول وكانت انقص في زمان النبوة لما علمت ان الوحي كان ينزل لمقتضيات الاحوال والحكم

فهذه ثمانية النبذ من الناسخ والمنسوب عرفت بها منع الله في شرعه وانه مطابق لقوله — الا ترى ان هذا الكون كله جار على نواميس وضعها مبدعها وقد علمت ان احوالها متغيرة في امور جزئية تتغير دائما مع حفظ النظام العمومي ولما كانت افعال العباد جزءا من ذلك الكون ومن فعل مبدعه (والله خلقكم وما تعملون) وكان لهم نوع اختيار خلق لهم عقولا وانزل لهم

وحيا فتراهم يستحسنون بعقولهم كل نظام يوافق الحالات الموافقة لازمانهم وهكذا الوحي جاء بهذا التغيير للتنبيه على انكم ملزمون بحسن الفهم والتبصر ووزن الضر والنفع بميزان العقل فتغيرون الجزئيات من زمن الى زمن ومن مكان الى مكان مع حفظ القواعد العمومية الشرعية كما تتغير النظامات الكونية الجزئية مع حفظ النظام العمومي والقواعد والنواميس العامة — الا ترون ان البحر قد ينقلب برا والبر بحرا والنظام ثابت فهكذا يجب ان تفعلوا كذلك فيما لا يخل بالشرع السماوي فيا ايها المسلمون اخواني ها هو فعل الله في ملكه وكلامه في تنزيله وفعل نبيه صلى الله عليه وسلم ونظام الدول الحالية جار على تلك النواميس بعينها كانهم درسوا (يقلب الله الليل والنهار) وكانهم فهموا (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) اتدرون ما الذى يفهمه الحكماء من هذه الحال يقرأون على صفحات الوجود خطابا من مديره يقول هذه العبارة (ايها المسلمون ان لم تغيروا نظام مدنيتكم التى شب الدهر وقد هدمت فلابد من ان اسلط عليكم من يغيرها وانتم ساهون لاهون فان لم تأتوا طوعا اخذناكم قهرا ولسنا نترك سنة التغيير وهى من اجل نواميس الكون

لجهالكم (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) الم تعلموا
ان فعلنا كله ونظامنا جميعه لا يبقى على حال واحد الا فى العموم
وتغير الجزئيات فالى كم تذهون فلا تزدجرون والى متى تقرأون
ولا تفهمون الم تقرأوا (وما منعنا ان نرسل بالآياب الا ان
كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما
نرسل بالآيات الا تخويفا) اعطيت صالحا أية الناقة لقوم ثمود
فكذبوا وظلموا ثم اعطيت موسى آية العصا اذا انقلبت حية
فآمنوا به ثم امنوا بالعجل حين رأوا له خوارا اذ من آمن بالعصا
حين انقلبت ثعبانا فهو احرى ان يومن بعجل يخور وهو مصنوع
من ذهب اذ هو اجمل من الحية وارق جسما ونفعا وهذه
الآيات المجسمة لا نرسل بها الا تخويفا للامم اذ لا تفيد اليقين
وهذه الامم التى ارسلت فيها تلك الرسل ليس عندهم استعداد
لفهم الحقائق العقلية لغلظ طباعهم وبلادة عقولهم فاعطيناهم من
الآيات ما يناسبها وان كانوا يرتدون بسرعة لضعف الايمان
بالمشاهدات المحسوسة والمعجزات المشاهدة التى لا نرسل بها
الا تخويفا والتخويف ادنى الدرجات فى الارشاد ويليه الترغيب
فالاقناع فالحجة ولذلك جعلنا كم امة وسطا معجزتكم هو القرآن

تفهمون حججه فتكون هى المعجزة التي هى ارقي من المعجزات المشاهدة بالبصر اذ هذه انما هى بالبصيرة ولذلك لما طلب كفار مكة معجزات محسوسة (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتى بالله والملائكة قبيلا او يكون لك بيت من زخرف او ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرءه) فلنا لنبيكم (قل سبحان ربى هل كنت الا بشراً رسولا لان هذا نبي وليس كاولئك الانبياء الذين اتوا بمعجزات محسوسة لا تثبت فلذلك كانت تلك الامم تضل سريعا واما نبيكم فانه آخر الانبياء فوجب ان تكون معجزته عقلية ثابتة مدى الازمان ولذلك قال فى آية اخرى (وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا) هذا هو الذى يقوله الحكماء فى لحادث الوجود واشارات الوحي وتتابع الديانات ويعلمون ان الله ارانا التدريج فى المعجزات والترقى فيها من المحسوس الى المعقول شيئا فشيئا حسب ترقى عقول الامم المتتابعة فكل امة جاء لها نبي تكون

معجزاته على مقدار استعدادهم — ولا جرم ان التعليم يكون بالحجة فالوعظ فالجدل فالتهديد والتخويف فالهلاك فمعجزات الانبياء الاولين كانت للمرتبتين المتاخرتين ولذلك كان يعقب هذا هلاكهم كما في قوم عاد وثمود والذين من قبلهم ومن بعدهم فقد جاءت شرائعهم ولم تدم اما نبينا صلى الله عليه وسلم فجاء بالثلاثة الاولى غالبا لان شريعته دائمة الى آخر الزمان ولن تدوم الا بالحجة والبرهان الذى هو القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة فهكذا فليكن نظام المدنية الاسلامية لتطابق فعل الخالق في الكون والديانات ونفس ديننا القويم

ولعلك تقول ما الذى تريد بهذا التغيير — أتريد ان تحلل الحرام وتحرم الحلال أقول كلا فانه كفر ومناف للشريعة التى نتمدح بها وانما أقول اعلم ان هذا الدين اصبح محجوباً عن أهله بغواش غشيته وجهل طمس على القلوب ان هذا القرآن الذى هو أساس الدين أصبح الناس فى غطاء عن فهمه حتى انطبق علينا الآن معنى هذه الآية (الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً) وها هو الآن والحق يقال اننا لا نستطيع سمع القرآن ولا فهمه لدواع تبدت وامور حدثت

فأحدثت تقلب القلوب والابصار فترى العالم اذا قرأ التفسير يجعل جلّ عنايته في تطبيقه على النحو والصرف ولو الفت ذهنه الى المعنى لم يجد مساعداً من نفسه للتلاوة لما ركز في نفسه من الصغر واعتاد عليه ان يقرأ ولا يفهم بقصد الثواب كما يقرأ العامه وغوغاء الناس (كأنهم لا يعقلون) . ومما زاد الامة بلاء وجهلاً انه ركز في عقولهم تقليداً ان الاحكام الفقهيه هي ثمرات القرآن مع انها ثمرة نحو (١٥٠) آيه لا غير ونحو (١٥٠) حديث وبقية القرآن وهو ينوف عن ستة آلاف آيه ما بين عظة واعتبار وأمثال وقصص الامم وسياساتها ومنذرات هلاكها ونظام الكون وحكمه لينظروا فيه فيفقهوا لم خلقوا وما هي نظام المدن ويعيشوا عيشة الاحرار فالاقتصار على جزء من ثلاثين من الدين وترك الباقي اماتة للعقول واضعاف للهمم وزاد الطين بلة ما تلقفه الاصاغر عن الاكابر ان المدار على فهم تلك الشراح والحواشي المعماة نعم صدقوا فانها تشحذ الاذهان ولكن في امور عرضيه لا جوهريه ويا حبذا لو كانت هذه القوى في نفس القرآن والحديث والعلوم الكونيه والصنائع البشريه والنظامات والسياسات لأصبحت معالم المدينه واضحة

وأعلامها منشورة على ارجاء الاسلام ولقد زادهم بهذا عشقا
أحاديث جاءت فى فضائل السور موضوعة لجلب الرزق وصرف
الضر مما جعل القوم يقرأون غاضين الطرف عن المعنى مع انه
انما جاء للذكر والايقاظ قال تعالى (كتاب أنزلناه اليك مبارك
ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب) فتأمل كيف جعل
نتائج البركات هى تدبر العقلاء وتذكر خواصهم لمعانيه ولقد
شغل كثير من القراء بان يجعل القراءة وسيلة الى قضاء الحوائج
وأما المعنى فانه مهجور حتى يحق لنا ان يقول الرسول نبينا عليه
عليه الصلاة والسلام ما قصه الله (وقال الرسول يا رب ان
قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) اذ الالفاظ وحدها ليست
مقصودة فتى هجر المعنى فسيان الالفاظ وعدمها عند التحقيق
نعم نحن لا ننكر ان القراءة بلا معنى لها فوائد وثمرات وثواب
ولكن تكون كما قال الله تعالى (أتستبدلون الذى هو أدنى
بالذى هو خير) فمن ترك الأعلى وهو المعانى هنا واستبدلها
بالادني وهو مجرد التبرك مع الغباوة في الفهم فقد استبدل
الادنى بالاعلى بل الجواد الذي يوضع عليه الاكاف ويحمل
حمل الحمار فيه نفع ولكن ساء مثلا القوم الجاهلون ويكفى هذا

مقتاً وغضباً وتقريعاً وذما قول الله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين)

فتأمل هذا المثال لتعلم كيف جعل من قرأ الالفاظ بدون معنى كالحمار يحمل الكتب وهو لا يقرؤها لانه غير عاقل ثم لم يقتصر على ذلك بل قال بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله

ثم انظر كيف ذكر الحمار هنا وذكر الكلب فى مسئلة بلعام بن باعورا الذى علم ولم يعمل اذ الكلب أقرب الى الفهم من الحمار ولكنه لا يرجع عن طبعه ويجرى على شهواته ولا ينفعه معاشرة للانسان وذوقه فضرب الحمار مثلا للجاهل والكلب مثلا للعالم غير العامل فما أرق هذا التعبير وما الطفه

ولقد سألنى شاب من ذوى الفهم قائلا أهذه العتاقة التى يقرأها الناس تنفع الميت فقلت له اعلم ان احاديث كثيرة وضعت لمثل هذه الأمور وولع بها الناس وانظر كتاب الاتقان في علوم القرآن وماذكره الشيخ السيوطي هناك من أولئك المتصوفين الذين وضعوا هذه الأحاديث قائلين نحن قصدنا بها صرف الناس عن الفقه الذى شغلهم الى القرآن

ولقد أرادوا خيراً لصلاحهم فوقعوا في خطاء بجهلهم إذ أصبح الناس يأخذون القرآن لمجرد لفظه لامعناه فيكررون سورة قل هو الله احد مائة الف مره وهم لم يفهموا حكمة عالية ولا علماً نعم فى هذا ثواب كما قلنا ولكن أين الثريا وأين الثرى . فقال لى لقد ثبطت همتى عن اكمال عتاقة بالصمديه فقلت له هل أدلك على عتاقة تنجيك من عذاب اليم فقال بسرور نعم فقلت امسك المصحف واقرأ الجزء الأخير من القرآن أى من سورة النباء الى الفاتحة وافهم معناه بتفسير سهل وكرره مراراً مع استعمال المعنى حتى يرتسم في ذهنك ثم هب ثواب ذلك الى الميت فذلك خير من القراءة بلا معنى ويكون نوراً لك ولقريبك فى الدارين فرأيته سر بهذا سروراً ظاهراً وانشرح قلبه وشرع في العمل. ولقد جاءت بعض أهل العلم وقال ذكر القرآن وبركته فى مجلس فقال بعض العلماء الحاضرين كيف تنكر البركة والله تعالى يقول كتاب انزلناه اليك مبارك وكان القائل اكبرهم مقاماً واعظمهم قدراً فصفق له الحاضرون وطربوا

فقلت له قال بعدها ليدبروا آياته وليتذكرو أولوا الالباب مع ظنهم ان البركة انما تكون بالتمائم والرقى وهذه العادة زادت

رسوخا بكتب الروحانيات فقد ادخلت كثيراً من الآيات فى علوم الطلاسم وحساب الجمل ونحو ذلك مما دخل به الصائبون علينا وجعلوا يس تقرأ أربعين مره مع شروط وأحوال ليست هى المقصودة بالذات من انزال القرآن

وكما اقتصر القراء على الفاظ القرآن تراه اكثر مايقرأ على الاموات وفى الطرقات كأنه قيل ان القرآن يقرأ على الاموات الذين لايفهمون فنحن وهم سيان حتى ان العامة يحملون قوله عليه الصلاة والسلام — اقرا واعلى موتاكم يس على القراءة على القبور مع ان مراده عليه الصلاة والسلام القراءة على المحتضر ليتذكر ما فيها من الحكم والعجائب ويتفكر في خالقه فيموت موحداً . وعلى هذا اصار القرآن حرفة الارتزاق ولما انغلق معناه على الافهام اصبح لا يسمع الا بصوت حسن اذ هو المقصود لا معناه فانا لله

ولقد سرى الوقوف على الالفاظ والظواهر في كل شيء فترى قواعد العلوم العربية معتنى بها واذا قرأ متعلم اتى لاحد اهل العلم قصيدة وطالبته بفهما اوحلها لعجز وانما يأخذ فى الاعراب ويضيع زمانه ويخرج صفر اليدين وبالجملة فالالفاظ هى التى لها

حتى انك تري الحريرى جل مقاماته كانها كتاب غريب اللغة لا يفيد الامة كيف تكون الافكار

ومما يقرب من هذا ان الشعراء كان جل قصدهم مدح الملوك ولم يعولوا على القصائدالتى ترفع الهمم الا قليلا وماالانشاء والشعر الا ما خرج من وجدان القلب فيؤثر على القارىء والسامع كما كان مؤثراً على المتكلم كما ترى في تأليف الجاحظ فى الادب والسكاكي في العلوم العربية والغزالى فى الاحياء اما هذه الحواشي والشراح والمتون فهى مغلقة صعبة يجب استبدالها باخرى اسهل منها لفهم القواعد ثم يتعمق فى البحث لا سيما فى العلوم العالية فهذا الذى ذكرته في الكتب وفهم القرآن من اجل ما يجب ان يغير ومن ذلك الصنائع والعلوم المهجورة التى هى غذاء الامة فلم تترك هذه ولا ريب ان علوم الدين دواء فلم نقتصر على قشر الدواء مع غفلتنا عن لبه (ان فى ذلك لآ ية لكم ان كنتم مؤمنين)

ولما صعبت الكتب فهما وتعاصت العبارات اصبحت ترى اهل العلم يظنون ان الانسان متى قدر على فهم العبارات فقد اضحى عالماً مع ان القدرة على فهم العبارات شيء والفهم

والتضلع من جميع العلوم النافعة شيء آخر حتى كان يتخيل
للانسان ان العرب الجاهلية يفهمون العلوم اقرب من غيرهم
بسرعة فائقة مع ان اللغة شيء والعلوم شيء آخر وماا اللغات
الا طرق لتوصيل المعاني الى الاذهان ويا ليت شعري كيف تصبح
الكتب التي هي معبرة عن احكام القرآن والحديث اصعب
منهما بكثير مع ان الاصعب لا يفسر الاسهل بل الامر بالعكس
والاعجب من هذا ان المؤلفين يتنافسون في تصعيب العبارات
حتى استغلقت العلوم ولم يظهر من معاني القرآن واشاراته
في الكتب الا كما ظهر من جرم الفلك على جسم السمك فاذا
قرأت حديثا او آية وجدتهما في غاية السهولة واذا قرأت عبارات
المؤلفين وجدتها على الضد من ذلك . ولما تمادى اهل العلوم
على هذا الفكر وتوارثوه ظنوا ان صعوبة العبارة هي اعظم ما
يقصده القاصدون فتراهم يتركون الحديث لسهولته ولا تلتفت
اذهانهم الى ما فيه من حسن الاسلوب وذوق المعنى اذ ليس
مما طبعوا عليه من العبارات بل ربما ظنوا المؤلفين اكثر
تدقيقاً واقدر وان كانوا يتحاشون النطق بذلك فبهذا تراكم
السديين اهل العلم والقرآن والحديث وان حضروهما مراراً ولم

يحثوا الا على العبارات المستصعبة ونبذوا كل سهل وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون

ولما تمادوا فى هذا احبوا ان يعموا الحكم فى جميع احوال الدين فقالوا أن القرآن لا يفهم ولا يفسر الا بعد المشقة وعليه حرمت جميع الطبقات من فهمه مع انه تعالى يقول (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) .

ويا ليت شعرى كيف تقرأ الجغرافية وتفهم باللغة الانكليزية والفرنساوية فى المدارس الاميرية ويصعب القرآن ويتعاصي عن الفهم ام كيف تكون اللغة الفرنساوية والانكليزية اسهل من اللغة العربية التى جاء القرآن اسهل مما فيها حتي قال (ولقد يسرنا القران للذكر) بهذا وامثاله ضاع الاسلام وتفرق ايدى سبا وذهبت الدولة يا قوم رعاكم الله اليس النصارى يقرءون انجيلهم ويفهمونه فيأخذون المعنى من العبارات بلغاتهم فتهذب الاخلاق وتنمو العقول اليس القرآن احق بذلك .

نعم ان فى القرآن اشارات لعلوم كثيرة مثلا قوله تعالى له (والشمس تجرى لمستقر لها) لا تفهم حق الفهم الا بعلم الفلك ولكن هل هذا يمنع فهمها على طريق الاجمال حتى تحث

القارىء على تعلم هذا العلم. ومن العجيب ان كثيرا من اهل العلم الى الآن يظنون ان مثل هذا العلم لا لزوم له فان قيل له ان هذا يحث عليه القرآن تراه يتلعثم في الجواب ولعمرى ان القوم فى اطوارهم جميعها متناقضون متشاكون افمن هذا الحديث يعجبون ويضحكون ولا يبكون وهم ساجدون

ومما يزيد العين بكى والقلب حزنا ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يذكرون الا مقرونين بالتواضع المفرط وأما تلك الحروب والشهامة العربية فلا ذكر لها الا عند تدريسها بعد ان تتمكن صبغة الضعف فى النفس ويذهب منها رونق الشجاعة وعلو النفس واحترامها واعتبار الحياة اعتباراً حقيقياً مع ان هذا الدين ما جاء الا بالتوسط فى كل شيء (أشداء على الكفار رحماء بينهم) (وكذلك جعلناكم امة وسطا) فاين نحن من هذه المعالى والاخلاق والحكم والنصائح وعلو النفس وليس لهذا دواء الا ان يذكر النبي صلى الله عليه وسلم دائماً هو وأصحابه بصفة الحماسه وعلو النفس والمحافظة على الامة وانا نقتدى به في اعلائها وتشريفها

والادهى من هذا كله والامرّ انه دخل على علمائها

وثبت فى اذهان كل متعلم ان النظر في شؤون الامة من الفضول وانه ليس على الانسان الا شخصه مع ان شرف الانسان فى الدنيا والآخره موقوف على نفعه العام لقومه والذى أراه ان هذه الدسيسة بثت في الامة أيام تفرقها بعد صدر الدولة العباسية ورأى الملوك ان العلماء بنصائحهم يفسدون عليهم ملكهم فتحاشي العلماء عن النصائح وانزووا فى الزوايا والمساجد والتكايا واضحوا لا تري الا أجسامهم وتركوا الأمر في يد الحكام يديرونه كيف شاؤا ومن آثار هذا انك ترى الخطب المؤلفة فى تلك الازمان التى لم تزل معمولاً بها الى الآن مقتصرة على ذكر الجنة والنار ويتركون كل مابه اعلاء الامة واتحاد كلمتها فياقوم الى متي هذا الانحطاط الم يأن لنا ان نغير هذه الخطب وهؤلاء الخطباء وتستبدلهم بقوم عالمين يعلمون ما يقولون انما الخطباء قوم لهم شعور يقولون مايه يشعرون

أصل الخطب انما تكون للامراء والملوك يسوقون الناس الى مابه صلاحهم فى الحياة الدنيا والدين فيسعدون فى الدارين ويقولون (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)

هذا اجمال ما يجب تغييره ونسخه من الامة على التدريج كما جاء النسخ فى الآيات والاحاديث والشرائع السماويه مع بقاء العدل والتوحيد وهذه كلها تنسخ مع المحافظة على آداب الدين وحفظ نظامه

﴿ محاورات لطيفة فى الاسلام ونظامه وأسباب انحطاطه وسبيل ارتقاعه[1] ﴾

اجتمع رجال من ذوي الفضل يوما فى عالم العجائب وكنت أسمع ما يقولون فنقلت مادار بينهم وكان فيهم الحكيم والشجاع والمجتهد والواعظ والمحتسب والمقتصد والعالم والصوفي والمتبحر فى العلوم والصانع والتاجر والغنى والاخلاقى والصائغ والسائح والرياضي اذ الامة كالجسم فلتمثل الامة الاسلامية به والحكيم رأسه (١) والشجاع بأسه (٢) والمجتهد فكره (٣) والواعظ لسانه (٤) والمحتسب سمعه وبصره (٥) والمقتصد اعتداله (٦)

١ تنبيه هذا الكتاب ألف من نحو سبعة سنين أى سنه ١٩٠١ ولقد كنا ازمعنا اذ ذاك ان نلخص ام القرى ونضمنها هذه المحاورات التى نراها الآن وبعد ان لخصنا شذرات منها رأينا العدول عنها لاسباب لا محل لذكرها وقصدنا الى مباحث أخري هى أهم وأولى فاثبتنا ذلك النزر اليسير منها والكثير الذي وضعناه ليكون تذكرة لاولى الالباب اه مؤلف

والعالم عظمه (٧) والعامة لحمه (٨) والصوفية دهنه (٩) والاديب المتبحر فى العلوم والصنائع قلبه (١٠) والتاجر عروقه (١١) والغنى معدته (١٢) والاخلاقى جماله (١٣) والصانع يداه (١٤) والسائح (١٥) رجلاه وبعضهم قرأ مقالات في الجرائد والكتب الحديثة ولما رأيتهم جالسين وقد اخذ كل مكانه خيل لى هيئة الامة الاسلامية مجتمعة وقلت فى نفسي ياليت شعرى ماالذى يتفاوضون فيه وجال فكرى قبل ان يتكلموا فى حال الامة الاسلامية وقلت على بعض اني اخاف ان يقبل بعضهم يتلاومون وذلك انه جرت عادة الله فى خلقه ان كل اسرة او امة دك شامخ مجدها وذهب عزها تلاوم اعضاؤها وتقاطع رؤساؤها وكل منهم يحمل الاخر تبعته وهذه سنة الله فى الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا وذلك عام فى حال الحياة وبعد الموت ومنه ما نص الله بقوله حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقالت اولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ولما تلوت هذه الاية فى ضميرى قلت وهذه وان كانت في الآخرة فهى

حاصل نظيرها في الدنيا عند كل اجتماع على غير كمال ونظام
اذ للامة موتتان موتة ادبية عند الانحطاط في الدنيا وموته
جسمانية عند انتقالهم الى الدار الآخرة فاذا ذهب مجدها فى
الدنيا فهذا هو المسمى عذاب الخزى في الحياة الدنيا واذا ماتوا
ردوا الى عذاب اليم وفى كل من الموتتين يتلاومون كاصحاب
الجنة الذين اقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستسنون فطاف
عليها طائف من ربك وهم نائمون فاصبحت كالصريم فتنادوا
مصبحين ان اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين فانطلقوا وهم
يتخافتون الا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد
قادرين فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون قال
أوسطهم الم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا انا كنا
ظالمين فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا ان كنا
طاغين وهكذا الرؤساء والمرءوسون وهكذا آيات كثيرات
في الجدال والملاومة بين الرؤساء والمرءوسين والذين اتبعوا
وان كلا يبرأ من الآخر ويود عذابه حتي رد عليهم بقوله تعالى
(ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم فى العذاب مشتركون وهكذا
نرى كثيراً من الآيات ذاكرة هذه المحاورات بين الفريقين

ولقد علمت علم اليقين ان الكون متشابه وان احوال الدارين متشابهة ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمي وأضل سبيلا وما الاخرى الا نتيجة الدنيا او ثمرتها والثمرة تكون على حسب الشجرة ولذلك ترى هذه المجادلات والمحاورات جارية بين علماء الاسلام وحكامهم وعامتهم ان لم يكن علانية فهو سر يجرى على القلوب ولا يظهر على الشفاه وهكذا افراد كل امة وكل جيل من الناس عند وقوعهم فى عذاب ناشىء عن تقصير منهم يلوم بعضهم بعضا مع انهم في الحقيقة متضامنون فلذلك يشتركون فى العذاب فى الدارين . ومن العجب ان الله تعالى ذكر ان أعضاء الانسان تشهد عليه يوم القيامه وقد قلنا ان الامة كالجسم فانظر كيف تري انها تشبهه فى ذلك فترى كلا من رجال الامة بعد انحلالها يحمل التبعة على سواه مع ان الجميع مسؤول فينحتم على فم الرؤساء اذ لا وجود لهم بعد انحلالها وينطق أعضاؤها بما فعلوا من الشرور التى أوجبت الهلاك فمن العجيب ان هذا مع ذكره لاعضاء الجسم الواحد يوم القيامة تراه بعينه حاصلا للامة حين انحطاطها ليتحقق معنى قوله تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقد علمت ان النفس

الواحدة تشهد عليها أعضاؤها اذا ماتت فهكذا الامة اذا خمدت
أنفاس حياتها نطقت أعضاؤها المتفرقون المتشاكسون المتنافرون
فتأمل فى التشابه بين هذا العالم وموافقته لحسن النظام العام
فى السموات والارض وسيره على أحسن نظام ونسق بديع
وبينما أنا تائه في بحر عميق من هذه السوانح العجيبه وقد ظننت
ان هؤلاء الاعضاء سيجرون على هذه القاعده اذ رأيت منهم
أمراً عجيبا وأروني مالم أر وعلمت منهم اننا امة لم تزل حية
ولم يمت والحمد لله جسمها نعم رأيت منهم بعض التلاوم ولكن
لتلافي مافرط. وظهر لى من كلامهم ان في المستقبل أملا وطيداً
وان من اصولهم التى بنوا عليها (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت
اقدامكم * (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) فنسخت شمس
أملهم ظلام يأسى وهاك ما سمعته منهم ونقلته عنهم
لما انعقد المجلس قام الحكيم وقال مقتطفاً بعض اقواله من ام القري
يجب على كل منا ان يصرح برأيه ولا يخاف في الحق لومة لائم
ولا يخاف انتقاداً وليس من يبدى رأيا ملزما به بل قد يبديه من
لا يعتقده لينظر الجماعة هل يستحسنون وله ان يرجع عنه اذا
شاء لانها خطرات وآراء تعرض للبحث والانتقاد والاستدلال

كلكم تعلمون أيها الاخوان ان مسئلة انحطاط الاسلام بنت الف سنة او تزيد واذا استحكم وطال عليه الامد استحق مزيد عناية في البحث عن الدواء ووصف العلاج الوافي واعلموا ان هذه المسئلة اجل من ان يقوم بها انسان واحد وكيف يقوم الواحد بما بناه الالوف الملايين اذن لا بد من رجال وجمعيات ينظرون ويتفكرون وقد جرت سنة الكون ان العمل يحتاج الى زمان مناسب له اذ كل شيء بمقدار فالنخل لكثرة منافعها وجزيل خيراتها لا تثمر الا اذا مرت عليها سنون بخلاف الحشائش والنباتات المعروشات والممتدات كالبطيخ والقثاء فانها تمتد سريعاً وتفنى سريعاً وعلى هذه القاعده ليس ينفع هذه الامة مجرد عصبيات تفور فتفور سريعاً او جمعيات غير ثابتة تقوم فتسقط أو ثورات حضريه حمقاء لا تلبث ان ينقلب بها الزمان ويحطها الحدثان وانما لا بد من التناسب بين الشيء ومقدماته . وهذا الاسلام تفرق شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض من قرون فقاموا آمنين مطمئنين وكانت الامم المجاورة لهم أحط منهم فاخذوا يجارونهم حتى ساووهم في القرن التاسع من الهجرة ثم ازدادوا عليهم في هذه الاربعة قرون بمراحل

وأخذوا المسلمين من كل جانب فهب من كل جهة جماعه واستيقظوا لما حلّ بهم وحاق بهم من المكروه فاخذوا يصفون الحال الحاضرة واعراضها بوجه عام وصفاً بديعاً يفيد التأثير ثم سبب الخلل النازل والجهل الشامل مع الاجمال والتلميح مع ان المقام يأبى الا التشريح والتفصيل ثم أخذوا ينذرون قومهم ويصفون هول المطلع وسوء المنقلب فى هذه النوازل ثم يلقون التبعة على الامراء والعلماء والعقلاء والكافة لتقاعد الجميع عن استعمال قوة الاتفاق على النهضة ومع كل هذا لم يحصل نتيجة معهم الى الآن وقد آن استثمار تلك الاقوال ولا ييئسنكم ما ترون من انحلال جمعياتنا الشرقيه سريعا فان هذه الجمعيات الصغيره مقدمات للجمعيات الكبيره الثابتة والشرق مشرق العظائم ولا تيأسوا من روح الله فانه ما أضر هذه الامة فى هذه الايام الا اليأس ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم

وما مثل الجمعيات المنحلة في الشرق الا كمثل الارهاص للنبوة فترى الارهاص للانبياء منبئات عما سيجرى على أيديهم فتستعد النفوس للتلقي عنهم

ولا يغرنكم الكلمة المشهوره ان الامة اذا سقطت وكسرت

لا نرجع شابة فهذه القاعدة لا ثبات لها وها نحن نري الطليان واليونان والامريكان واليابان كل هؤلاء استرجعوا مجدهم بعد ان فقدوا معدات الحياة وسقطوا فى الهوة فاستعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عبادة والعاقبة للمتقين .

وليس بيننا وبين غيرنا فرق الا فى العلم والاخلاق وامد العلم عشرون عاما والاخلاق أربعون . وهوءلاء قوم موسى لم يرجعوا لمجدهم بعد خروجهم من مصر الا بعد الاربعين استعملوا فيها الاخلاق وعلا شأنهم

فهلموا للبحث عن داء هذه الامة ودوائها ولا يغرنكم اختلاف المذاهب فاننا كلنا تابعون للسنة والقرآن والمجتهد المصيب له أجران والمخطىء له أجر واحد ولم تنقطع هذه الامة الا بتفرقها مذاهب وشيعا كل حزب بما لديهم فرحون مع تركهم مقاصد ذلك الاصل وهو الدين الجامع لجميع المذاهب الموجب لاتحادهم وتصالحهم ضد كل من ناداهم وعاداهم . ولتعلموا ان ظواهر الاسباب تبشر بنيل المأمول وحسن المستقبل فان الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الوحى ونزل جبريل بالقرآن ونجم في هذه الآية رجال في أقطار متعددة يعد الواحد منهم بألف

ثم قال انى جبت البلاد شرقا وغربا وعرفت أهل الملل وجبت الهند والصين وبلاد أوروبا وآسيا وأمريكا وافريقيا فوجدت ان المسلمين أينما كانوا أحط من غيرهم صناعة ونشاطاً وانتظاما فى أمورهم الخاصة والعامة والدينية والسياسية حتى انك لترى بيتين متجاورين احدهما فيه مسلمون والآخر فيه غيرهم فيظهر لك الفرق بينهما في لمح البصر فياليت شعري ما السبب الذى دعا لذلك حتى قال بعض السواس ان الاسلام والتمدين لا يجتمعان ومع هذا ترى المسلمين فى كل بلدة محافظين كل المحافظة على أمهات الاخلاق من الشيم والرفعة والكرم وحسن الاخلاق والعفة والامانة وليس ينحط عنهم فى النشاط وجميع الاعمال الا اهل الديانات المتشددة المغالية فى التشديد كالصائبين حول دجلة الذين يضيعون اوقاتهم منغمسين فى الماء تعبداً وكالكنغو من الزنوج وكالبوذية من الهنود المعتقدين ان كل مصائبهم حتى الموت الطبيعى من السحر فهؤلاء أكثر فتوراً من المسلمين ويلحق بهؤلاء الدهريون والطبيعيون الذين يدينون في نفوسهم الى قوة عظيمة وسموها الدهر والطبيعة ويقولون نحن اشقى الناس لما يرون من مستقبل مظلم وحياة رديئة

فالناس كما قال علماء الاخلاق لهم نوع دين ولا يصح ان نسمى انساناً لا دين له بالمرة وهذه اوضحت معنى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فانى يؤفكون) وهذا آثار اخذ العهود على البشر بالتوحيد والايمان فالفطرة عليه اشترك فيها الناس ثم ان الدين الصحيح ان عمل به ساق الى نظام ونجاح في الدارين وقد يدخل الفساد على عقول اهله فلا يفهمون معناه كما هو فينقصون أو يزيدون عليه شيئاً او يجمعون بينهما فان كان الاول فقد ينجحون فى الدنيا ويكونون ناقصي الدين وان كان الآخران فسدت المدنية وخسروا الدنيا والآخرة

وكل دين باطل قد ينشأ عنه فاسد بزيادة او بها مع نقص عنه وهاتان توجبان خسران الحياتين أما اذا نشأ فاسد مع النقص فقد يرون مدنيـة زاهرة اذاهم نظروا بالعقل فى احوالهم المعاشية وبنوا على اساس علم العمران فى الاعمال وهكذا اذا بقى كما هو باطلا فتلخص ان الصحيح يقود الى العمران بنفسه والباطل لا يعطل عن المدنية وهكذا الفاسدان منهما ينقص اذ لا تعطيل فى اعمال الحياة أما الفاسدان بزيادة أو بهامع نقص فانه بهما تتشوش أعمال الحياة فلا دنيا ولا دين

وهذه الاسلامية محجة بيضاء قامت بها هذه الامة الفا وثلاثمائة سنة مع ما طرأ من النقص فى الفهم تارة والزيادة فى الخرافات اخرى ومع ذلك حفظت الى هذا الزمان وما ذلك الا لقوة المتانة فى اصولها

فالمسلمون ليسوا الآن أحط اهل الديانات جميعا ولا ارفعهم وانما هم ارفع من كثير منهم ولقد عرفنا ان دينهم صحيح فياليت شعرى ما الذى طرأ على الافكار حتى شوشها وعلى القلوب حتى فرقها فهذا هو الذى يجب البحث عنه

فقال العالم الذى اراه أنه طرأ عليه بعض قواعد اعتقادية واخرى اخلاقية كمسئلة الجبر والتزهيد فى الدنيا والحث على اماتة المطالب وترك المفاخر والزينة وعظائم الامور ولعمرى ان الاولى بعد كل تحوير وتهذيب جعلت الامة قدرية باطناً مختارة ظاهراً والثانية منافية لما كان عليه الصدر والسلف الصالح من اعتلائهم قمم المجد والشرف في المطالب ولهذا لو نفى سيدنا عمر بن الخطاب أبا ذر الغفارى الى الربذة

فقال السياسى ما نزل دين من السماء الا وجاء مضاداً للطبيعة البشرية فاذا رآها مالت لجهة عدل هو الى الاخرى

ليقف الانسان في الوسط ويكون على الصراط المستقيم وهاك مسئلتا القضاء والقدر والتزهيد لم يختص بهما الاسلام بل هما في كل دين لتسلي العاجز ولا ييأس الطالب بالاولى ويقف شره الطبيعة حينئذ في الوسط بالثانية لان الديانات ادوية بها يرجع الى الصحة ولا صحة الا بالتوسط وبهاتين العقيدتين تكون الاعمال من الانسان بنشاط وتتقدم المدنية والحضارة اذ كل يسعى بلا قنوط فيوجه همته الى نفع أمته أو لا يرى ان كل الاديان على اعتقاد القدر خيره وشره من الله او خيره منه وشره من الشيطان أو من النفس ولكن قتل الانسان ما أكفره فانه لا يلبث ان يعكس القضية فان جاء له خير افتخر وشمخ بانفه وقال هو من عندى وان جاء له الشر نسبه لله ولذلك لا ينسب البشر امراً الى القدر الا عند الجهل بسببه ستراً لجهلهم او عند العجز عن نيل الخير أو دفع الشر ستراً للعجز . ولما غلب اخيراً على المسلمين جهل اسباب المسببات الكونية والعجز عن كل عمل التجأوا الى القدر والتزهد تمويها لا تدينا . والمشاق والعظائم التي اقتحمها الصحابة والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم لنيل الغنى والرئاسة والفخار فضلا

عن الثواب كفاية برهان مع ان الامة كانت زاهدة فعلا لا كالزهد الذي تدعيه الا ن كذبا ورياء

فليس القصد من التزهد التعطيل والفقر بل توجيه الهمم الى النفع العام الذي عليه يبنى الاسلام اما اذا تعطلت الاعمال فلا اسلام ولا ايمان . والسعى في النفع العام هو المعبر عنه بالجهاد الذى يشمل جميع الاعمال العامة لا خصوص جهاد الكفار كما تظنه العامة والجهاديكون لاعزاز الجامعة الاسلامية اولا والجامعة البشرية ثانياً اذ الامة الراقية دينا وعلما ومدنية يجب عليها رعاية الامم المنحطة كالاب يربى اولاده ومثل الامم المنحطة كالطفل يتربى بين ابويه حتى يصير مشابها لهما . ثم قال والذى أراه أن سبب هذا الفتور العام تحول مجرى السياسة العام فانها كانت بعد زمن الوحى نيابية اشتراكية أى (دمقراطية) تماما في زمن الخلفاء الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع الاساسية بعدهم بسبب الحروب والانقسامات بين أكابر الامة ثم صارت أشبه بالمطلقة وذلك ان الاحكام لم تكن مدونة فى زمن الخلفاء بل كانوا مجتهدين بما وقر فى صدورهم ولما تفرق الصحابة فى البلاد قيدوا الاحكام في زمن الامويين ومن بعدهم

فتشعب الخلاف وبنى على تشعب السياسات فأصبح بأس الامة بينها شديداً وقلوبهم شتى واصبحت الامة جندية محضة وسارت فى تيار المحاربات الداخلية والخارجية وآل الامر الى ان صارت أمة جندية صفة واخلاقا بعيدة عن الكسب بالوجوه الطبيعية نعم قد كانت تصادف فى سيرها فترات قليلة يقف فيها دولاب الحرب فتترقى العلوم والمعارف ثم تذهب فى تيار حرب آخر ولا زالت تعثر تارة وتقوم اخرى الى ان سبقنا الامم من حولنا بان صارت الجنديه عندهم صناعة ذات قواعد مقررة مفقودة عندنا وذلك من نحو قرنين تقريباً فكانت اولا داخليه وخارجية للمدافعة تارة والفتوحات أخري ثم صارت للمدافعة فحسب ثم صارت فى القرنين الاخيرين داخلية لاغير وتركت المدافعة لجهلنا بالصناعة الحربية واصبح بأسنا بيننا شديدا نعيش بالتحايل على الكسب من وجوهه الطبيعيه وهذا أجل ما يميت النشاط ويولد الخمول

فقال الاديب: ان غيرنا من الامم قد وجدوا فى انقسامات سياسية وتباينات مذهبيه وحكومات مطلقة وفى حروب مستمرة ولم يشملهم الفتور بوجه عام كجرمانيا ثم قال والذى أراه ان

هذا الفتور العام انما جاء من تأصل الجهل في غالب الحكام المترقين. الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا حتى بلغ جهل هؤلاء الى منزله أحط من منزلة العجاوات التى لها طبائع ونواميس فمنها ما تحمى ذمارها وتمنع عن حدودها وتدافع عما استحفظت عليه وهؤلاء ليس لهم طبائع ونواميس يخربون بيوتهم بايديهم وهم لا يشعرون. ومنهم البعض ضالون على علم وهم الذين يشتكون ويبكون حتى يظن انهم مغلوبون على أمرهم ويتشدقون بالاصلاح السياسى مع انهم وأيم الحق يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم يظهرون رغبة الاصلاح وهم يبطنون الاصرار على ما هم عليه من افساد دينهم ودنياهم وهدم مبانى مجدهم واذلال أنفسهم والمسلمين. وهذا داء عياء لا يقر صاحبه لفاضل بفضله لانه داء الغرور ولا يجارى حازماً فى مضمار وقد سرى من الامراء الى العلماء الى الكافة فلا يرجي معه شفاء فاجابه الشجاع الحر وقال :

من هم الحكام اليسوا منا ونحن منهم فما الحاكم الا فرد من القوم ترأس عليهم وطبعه من طباعهم ولذلك ورد كما تكونوا يولى عليكم فلو لم نكن نحن مرضى فمن أين يأتى المرض لامرائنا

والحكام أبناء الامة تسربوا في حجرها والابن يرث غالباً صفات أبيه فتحميل التبعة على الامراء وحدهم غير سديد

ثم قال والذى أراه ان سبب هذا الفتور العام هو فقدنا الحريه وما أدراناما الحرية هي ماحرمنا معناه حتى نسيناه وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه

والحرية هى ان يكون الانسان مختاراً في قوله وفعله ومن فروع الحريه تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار انهم وكلاء وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات والمباحثات العلميه . ومنها العدالة باسرها حتى لا يخشى انسان من ظالم أو غاصب أو غدار مغتال

ومنها الأمن على الدين والارواح والامن على الشرف والاعراض والأمن على العلم واستثماره فالحرية هى روح الدين ولا يمكن ان يقوم بدونها وكيف يقوم الدين بدون النصيحة المتوقفة على الحريه وقد روى البخارى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الدين النصيحة لله ورسوله ولائمة المسلمين وعامتهم وروى البخارى أيضاً ان صحابياً قال :

أتيت النبي صلى الله عليه وسلم قلت ابايعك على الاسلام

فشرط على" والنصح لكل مؤمن مسلم فالنصيحة مما تجب المبايعة عليه وانها من اصول الدين العليا الكايه وهـذا النصح لا يتم الا بالحريه ومما يحسن ذكره فى فروع الحريه قول سيدنا حسان بن ثابت الشاعر الصحابى

وما الدين الا أن تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب

فانظر كيف حصر الدين فى اقامة الشرائع وتأمين الناس ولعمرك ان الحرية بفقدها يعم الكسل افراد الامة ويتمادى فيهم ويرثه عنهم ابناؤهم لما يرون من ذهاب آراء سديده وأموال واعراض ونفوس وشرف ومقتنياب فتقبض الايدى عن العمل والارجل عن السعى والقلوب عن الامل والافكار عن التفكر والاستنباط وعليه تتدهور الامم تدهوراً فى أسفل سافلين . أجابه الفاضل المحتسب ان هذا الداء وهو نزع الحرية من الافراد غير عام مع عموم الفتور وكيف ينتج العام عما ليس بعام هذا مما لا يمكن

والذى أراه فى سبب عدم التنور اننا كنا خير امة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونعبد الله وحده أى نتذلل ونخضع له أمرنا شورى بيننا نتعاون على البر والتقوى ولا نتعاون

على الاثم والعدوان فتركنا ذلك كله ما صعب منه وما هان .

وقد يظن ان أصعب هذه الامور النهى عن المنكر مع ان ازالة المنكر فى شرعنا تكون بالفعل فان لم يكن فباللسان فان لم يكن فبالقلب وهذه المرتبة الثالثة متيسرة وذلك بالاعراض عن الخائن والفاسق والفاجر وعدم تجنب مجاملته ومعاملته ولاشك ان اتياء هذا الواجب الدينى كاف للردع . ولا يتصور العجز عنه مع انه أعظم ما يقوم المهالك قال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) وقال (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واؤلئك هم المفلحون) وقال صلى الله عليه وسلم لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومنكم سوء العذاب) وبالجملة فترك هذه الخصله منذر بانقراض الامم التاركة له من الوجود ولقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في زمن الصحابة والخلفاء الراشدين صادرين من كل مسلم ومسلمة وكانت معيشتهم بسيطة فخلف من بعدهم خلف توسعوا في الحاجيات والكماليات فشغلوا بنفوسهم فاقاموا محتسبين ثم زاد تفرق الدولة تفرقاً عظيما فبطل الاحتساب كما بطل التناصح

العام فاصبح بأسنا بيننا شديداً وأصبح الاكتساب مقام الاحتساب وصارت الامة أشبه بالجنديه المحضه .

فقال الحكيم ان هذا يصلح ان يكون سبباً من جملة الاسباب ولكنه لا يكفي وحده لايراث ما نحن فيه من الفتور والذى أراه ان أعظم مادها هذه الامة وأوقعها في فتورها اعتقادها ان الساعة على وشك القيام كانهم ظنوا انها تقوم علينا وحدنا وتترك الامم مع ان علم الساعة عند الله

فقاطع الغنى الحكيم قائلا : هذه المسئلة تجول في اذهان عامة الناس وخاصتهم ولم يوضحها لنا أحد ولم يكشف عنها حجاب الخفاء ولذاك أصبح كثير من مريدى الاصلاح يثنون عزائمهم عما قصدوا لا سيما اننا نسمع كثيراً من أهل العلم يقول فيها قولا اجمالياً وان هذه علامات صغرى وهناك علامات كبرى قد آن وقتها مع ان هذا شيء مضي عليه الف سنة ونيف وثلثمائة وهذا أورث القوم فتوراً عظيما مع اننا نري نشاط الامم وتسابقهم الى الخيرات ونظام المدنية فارجوك بلسان الاخوان ان توضح لنا هذا الاشكال فقد غمض معناه وأبهم على الجميع فاننا نراك من المحسنين المحققين

فقال الحكيم. من الحكم العجيبة هذه العقيدة عقيدة قرب قيام الساعة مع الجهل .... وهكذا القضا والقدر وزمان الموت فكل هـذه انبهمت على الناس مع علمهم بها ليدوم الخوف والرجاء وجميع أعمال الانسان في الحياة دائرة على محورين هما الخوف والرجاء كالأكل والتزوج فألم الجوع سائق ولذة الطعام قائدة وهكذا الم الشهوة للتزوج سائق ولذة التزوج قائد وهكذا جميع أعمال الانسان لا بد لهـا من لذة مطلوبة والم منفور عنه حتى يعمل الاعمال بنظام فلولا خوف الفقر ورجاء الغنى ماباع التاجر ولا اشتري وهكذا الملوك والأمراء كل يخاف الزوال ويرجو المزيد وهذه سياسة لابد منها .

ولما علم مدير الكون ان لنا أرواحا ستبقى بعد خلاصها من الابدان وبعد خروج الامم من أسر الطبيعة أراد ان يعلمنا بلذة الجنان وخوف النيران لنعمل للرجاء ونتقى للخوف ومع هذا العلم أبهم الوقت ليتمكن الرجاء والخوف ولو علمنا الوقت بعينه لغلب اليأس على الناس فلم يكن هناك رجاء البته ولو ترك اعلامنا بالمرة لم يبق هناك خوف قط فهذى هى الطريقة الوسطى التى تدعو الى قيام الأمم وافرادها وترقيها الى أوج الفلاح والعلا

والسعادة وقد فهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمر على حقيقته
هو واصحابه والصدر الاول من الامة فاسس دولة وشيد ملكا
عظيماً وبنى عليه من بعده من الخلفاء الراشدين وبنو أمية وصدر
العباسيين ثم خلف من بعدهم خلف وملوك ودول صغيرة استبدوا
بالملك وعزلوا العلماء جانباً عن تنبيه الأمة لما ينفعها وتدهورت
الافهام كلما تدهورت الأمة (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا
ما بانفسهم واذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من
دونه من وال هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعاً) فلم يكن
ظهور البرق فى السماء ليعتقد الانسان انه سيحرقه وان المطر
سيملأ الفضاء بدون رجاء نفع والا كان البرق عذابا واجباً وانما
جاء للخوف مع رجاء ان ينزل المطر فيحيي الارض بعد موتها
فجاء البرق للخوف والرجاء معاً وما مثل يوم القيامة الى كمثل
البرق فاذا قصر على الخوف دون الرجاء احدث اليأس والقنوط
فاذا تغير ما في النفوس من الامل ولم يبق الا القنوط انحطت
الأمة (انا عند ظن عبدي بى) ونرى ان أمتنا غلب على عامتها
وكثير من خاصتها هذا اليأس لاعتقادهم ان قرب الساعة زاد
جداً حتى انه ليس للاسلام قائمة تقوم مع انه ورب الكعبة لا بد

من بقائه الى آخر الدنيا بحيث تقوم القيامة على مسلمين وغيرهم كما ورد فى حديث البخارى عن معاوية بن أبى سفيان وهو يخطب على المنبر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وانما انا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الامة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله) فهذا نص فى بقاء هذه الامة

ومن المبكيات ان الامة كلما تقهقرت اعتقدت اشتداد القرب مع ان هذا لا يخطر فى بال السواس الذين شيدوا مدنهم وحصنوا بلادهم ورفعوا أعلام المدينة

ثم سكت الحكيم فقال له أحدهم أشبع لنا هذا الموضوع فانه جدير بالبحث فقال قسم العلماء اشراط الساعة الى قسمين صغرى وكبرى وقالوا أن الصغرى تأتى مقدمة للكبرى وايضاحه ان هذه الامم على سطح الكرة الارضيه يتلو بعضها بعضاً وكلما ذهبت امة اتبعتها اخري (ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما انشأكم من ذرية قوم آخرين انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) وكما أن الشخص الواحد ينذر بالهلاك وهو الشيب والهرم والامراض المتنوعة فكل هذه تنذره بالاستعداد

للرحيل (وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) ويجيء البرق ليستعد الناس للمطر فهكذا الامم لكل امة عند ارادة خرابها نذير ينذر بانقراضها وتلاشيها من الوجود أو دخولها في عناصر امة اخرى وجميع الامم على سطح الكرة الارضية ينقرضون ويذهبون من الوجود وتمزق الارض كل ممزق باجماع الشرعيين والفلكيين والطبيعين وجميع علماء الارض قاطبة فى هذا العصر من الافرنج والشرقيين. ونذير الامة عند انقراضها حلول الامراض فيها أى أمراض الاجتماع وداء الشقاق (وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) ذلك امور

(١) عموم الترف فيها وتطاولهم فى البنيان حتى يعم الطبقة السفلى من الامة

(٢) اختلاط الانساب وان يتزوج الشريف وضيعة النسب فمتى تمادوا عليه حصل الانقسام وذهب التناسب واستحكم الشقاق

(٣) ظهور الزنا وانتشاره جداً فمتي طال أمده كثر قتل الاجنة فذهبت الامة من الوجود

(٤) قلة العلم وظهور الجهل فيتولى الجهلاء الرئاسة فيظلمون الناس فتضيع الامة

(٥) شرب الخمر وكثرته والادمان عليه فانه كما قاله علماء العصر الحاضر سبب لتلاشى الامم الشرقية ولذلك قال هنري فى كتاب خواطر وسوانح انه الطريقة الوحيدة في ابادة الشرقيين فهى حرب حقيقة معنويه

(٦) ان يكثر الرجل من النساء عنده كما كان عند الشيخ المهدى السودانى والتعايشى

(٧) ان يتولى أحكام الناس الذين لا قدرة لهم على ضبط الملك من لا عصبة لهم ولا قوة ولا بأس ولا شجاعة ولا علم فهذا من أعظم النذر فكل امة غلبت عليها هذه الصفات أو اغلبها غلبت على أمرها ودخلت فى جسم امة اخرى وحكمها الاقوى منها فانقرضت من الوجود حقيقة كما في عاد وثمود والذين من قبلهم وبعدهم ولو حكما كما فى الامم التى احتلتها امم اخري وتسلطوا عليها (وان من قرية الانحن مهلكوها قبل يوم القيامة وهذا كعاد وثمود ومن قبلهم وبعدهم (أو معذبوها عذابا شديداً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً) وهذا كالامم الباقية فى حكم غيرها وهذه هى التى عملت عملا صالحا وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم ويخرجون من الاستعباد الى الحرية

فهذه الصفات السبع التى ذكرناها علامات لانقراض الامة واضمحلالها وهى بلا ريب علامات أجمع عليها جميع العمرانيين الشرقيين والاوروبيين وما من نبي أو حكيم أو سياسى الا وانذر قومه وأعظم الناس الحكماء وأجل منهم الانبياء وأعظمهم نبينا صلى الله عليه وسلم وهو الذى ظهر وبرع فى علوم العمران فان هذه الاسباب السبع ذكرت فى الاحاديث مفرقة فاشار ألاول والثانى في حديث البخارى وهو سؤال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والايمان والاحسان والساعة وهذا نصه عن أبي هريرة قال كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا للناس فأتاه رجل فقال له ما الايمان قال الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث قال ما الاسلام قال الاسلام ان تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاه وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال ما الاحسان قال ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال متى الساعة قال ما المسئول عنها باعلم من السائل وسأخبرك عن اشراطها اذا ولدت الامة ربها (أى سيدها) واذا تطاول رعاة الابل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن الا الله ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ان الله عنده

علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام ثم أدبر فقال ردوه فلم يروا شيئاً فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم اهـ

فقوله اذا ولدت الامة ربها اشارة الى ما احدثه بنو العباس وملوك الاسلام قاطبة وامراؤهم وأغنياؤهم من اتخاذ نساء السبي المباحات لهم شرعاً وخرج منهن أولاد صاروا ملوكا وامراء سادة على هؤلاء النساء وغيرهن فلما تمادى الامر على ذلك زالت العصبية وذلك حاصل في بلاد المغرب والشام وجميع أقطار الاسلام الا جزيرة العرب فانهم ما زال بينهم النسب محفوظاً الى الآن. فالقصد من هذه العباره ترك الجنسيه وعدم الرابطة القوميه فانها من امهات النذر للانقراض اذ الرابطة تكون بالجنسيه والدين واللغة والوطن والصفات المشتركه والجنسيه من أقواها.

وقوله واذا تطاول رعاة الابل الخ فالقصد منه عموم الترف في الامة فتنقطع الاعمال وتكثر الجبايات ويجتنبون الحرب كما حصل فى أمة الرومان ودولة العرب (واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها). فقلدهم العامة فتطاولوا فى البنيان وزخرفوا منازلهم وشيدوا قصورهم واكثروا من المعاصي (فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ثم اشار الى ان هذا عام بقوله

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً) والذنوب هنا كل مايخل باصلاح الامة كعموم الترف والزنا وغيرها من الامور السبعة المذكورة واشار للثالث والرابع والخامس في حديث البخارى عن انس قال — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من اشراط الساعة ان يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا) وليس رفع العلم الا ما ورد فى حديث البخارى أيضاً يسنده الى عبد الله بن عمرو الدبن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا واضلوا .

فمن هذا تبين معنى رفع العلم ولا يظن اخواننا ان علم الفقه وحده كاف فى نظام الامة فلقد سمعت من مشائخنا انهم يقولون ان قضاة هذا العصر قضاة ضرورة وذلك لانهم لم يستوفوا شروط القضاء الشرعى ومن لنا بقضاة كعلى رضي الله تعالى عنه وشريح ومن بعدهم فهذا اعتراف بان القضاء عندنا اصبح ركنه مهدداً وهو تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك لما

ضعفنا فى غالب الاقطار عن ضبط العامة اغتالتنا الامم واصبحنا معرضين لاخطار كثيرة وانتزعت بلاد وخربت أمم ودخلت أخرى فى جسم غيرها من الامم ولقد حل بنا ماحل بعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وذلك فى بلاد الأندلس اجلوا عن بلادهم واهلكوا . وهكذا الامم الاخرى اصبحت فى الاختلال فاخذها الاختلال جزاء وفاقا (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) فانه عزّ وجل يحب البقاء والسعادة لا الشقاء والدمار فان لم تصلح الامة بنفسها ارسل لها من يصلحها وما كان الله ليضيع العباد فيريح الضالة باحدى أمرين أما الهلاك من الوجود او تحكمها أمة أخرى وهذا هو سر هذا الوجود . ومن اسباب هذا الجهل ان اهل العلم يظنون ان المدار على تعلم قواعد العلوم العربية والاصول وان تحصل للانسان ملكة الفهم في العلوم الشرعية وبها يصلح ان يكون قاضياً مع انه قد أضاع حياته فيما لا يكفيه ولا يغنيه فترك فهم القرآن والحديث وتهذيب النفس فاصبح من الضالين المضلين فالاقتدار على الفهم شيء والفهم شيء آخر والعمل هو النتيجه فاذا ترك هذا كله لم يبق الا علم الفتاوى وهو لا يهذب النفوس

وانما جعل سلاحاً لاصلاح منازعات العامة واشار الى السادس والثالث والرابع بحديث البخارى : قال انس الا احدثكم حديثاً لا يحدثكم أحد بعدى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اشراط الساعة ان يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء وتقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد. وهذا نراه حاصلا فى كل أمة كثرت حروبها حتى قربت من الاضمحلال فى كثير من امراء الشرق الذين يكثرون من الترف وهو علامة على الاضمحلال ودمار الامة واشار الى السابع في حديث البخاري بسنده عن ابى هريرة قال بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاء اعرابي قال متى الساعة فمضي رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعضهم سمع ماقال فكره ماقال وقال بعضهم بل لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال اين اراه السائل عن الساعة قال ها أنا يا رسول قال فاذا اضيعت الامانة فانتظر الساعة قال كيف اضاعتها قال اذا وسد الامر الى غير اهله فانتظر الساعة . ولما اتم الحكيم كلامه قال له التاجر انا نسمع في هذه الاحاديث التى تقصها علينا ذكر الساعة ولقد حصل لنا ريب فى هذا فان الساعة هى القيامة وأين

القيامة واين خراب امة مخصوصة نحن علمنا من هذا التقرير
الذي أوضحته لنا ان هذه الأمور توجب دمار الأمم وخرابها
لا خراب الكرة الارضية كلها إذ هي أمور ترجع الى صلاح
العمران وفساده واذا فسدت أمة لم يلزم منها فساد أمة أخرى
بل الذي دلت عليه التواريخ وجميع التجارب والعلوم انه كلما
هلكت أمة احدث الله بعدها أخرى كما انه كلما هلك انسان
اخلفه آخر في الوجود ليدوم العمران مع أننا نسمع عن اشراط
الساعة عن كل نبي من الانبياء فلقد اشكل علينا الامر وزاد
اشكاله فازل الريب عن قلوبنا فقد قرب ان نصل الى فهم هذا
الموضوع من حسن بيانك فان نظرنا لا يضاحك وجدنا هذه
منذرات بخراب الامة التي تقع فيها فقط وان نظرنا لالفاظ
الاحاديث وجدناها تذكر الساعة مع ان الامم كلها لا تمحى من
الوجود الا اذا جاءلها نذير عام وهو المعبر عنه بالاشتراط الكبرى
كان تطلع الشمس من مغربها وهذا بلا ريب عند اختلال سير
الشمس واضطرابها في سيرها بحصول تصادم او نحوه من
الامور السماوية التي يعلمها الله تعالى ويجهلها العلماء كافة وبعد
ان تأخذ الارض زخرفها وتتزين وتظن أهلها انهم قادرون

عليها ولا يبقى حرب فى الارض ويظهر جميع اهل الارض بمظهر
الجمال في الاخلاق والآداب وذلك عند ظهور عيسى كما في
الحديث ويزول الضلال والدجل من الارض ولا يبقى سوى
السلام وهذه الاشراط لا وجود لها الآن البته فان المدنية التى
تراها الآن ملأت الكرة الارضية ظلماً وحربا فأين الهدى
وأين السلم وما البهتان والزور الا من الامم الحاضرة الذين هم
اساس كل ظلم وعتوفا وضح لنا هذا الموضوع تنل الثواب الجميل
فقال الحكيم. ان اشراط الساعة ذكرت على لسان كل نبي ينذرون
قومهم بها وكلهم كانوا يأتون بالقسمين فلنقدر ان الامم التى
قدر الله وجودها على سطح الكرة الارضية من آدم الى خراب
الارض ألف أمة مثلاً فاذا قدرنا الامم التى مضت من قبلنا
تسعمائة وخمسين وبقى الآن ٥٠ ونحن لا نعلمها فكلما هلكت أمة
من الخمسين الباقين وهم بلا ريب أقل من التسع ماية والخمسين
انذرت بانقراض الدنيا إذ هذه الأمة واحدة من الخمسين الباقية
فكلما غرب نجم واحدة قربت القيامة بمقدارها ولذلك سميت
السبعة العلامات الصغرى وذلك انها تنذر بامرين بهلاك أمة
عاجلا وبقرب الساعة فبعد ان كانت بقى عليها خمسون أمة يبقى

٤٩ تسعة واربعون . فهنا أمران هلاك لجزء من الناس وانذار لقرب خراب الارض كلها فاذا بقيت الدنيا بعد هلاك أمة آلافاً مؤلفة من السنين فيقال ان علامات انقراضها من اشراط الساعة فاذا تتابعت الامم واحدة بعد الاخرى حتي جاء أمر الله جاءت العلامات الكبرى وتحطمت الارض والسماء وانقلب هذا الوضع الذى نراه. وفائدة هذا الانذار ان الامة قد يكون بها رمق الحياة فتستعد للرجوع ويخلفهم اقوام يجددون مجداً جديداً ويسابقون الناس وربما فاقوا آباءهم الاولين وها نحن نرى الآن اليابان والطليان والامريكان واليونان استرجعوا مجدهم بعد خروجهم من الاستعباد وهكذا بنوا اسرائيل ارجعوا مجدهم لما استكملوا العلم والاخلاق فى أربعين سنة حتى مات الجيل الجبان واخلفه أهل الشجاعة والبأس (قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض فلا يأس على القوم الفاسقين) وهذا هو الدواء الذى تستعمله الامم لرجوع مجدها وعظمتها . ولعمرك لم يقصه الله فى القرآن الا ليرينا كيف نسترجع مجدها القديم

وأما الاحتجاج بقرب الساعة فجهل عظيم فانه من تدلى الفهم الدال على تفاقم الخطب ولذلك قال العزيزي فى شرح الجامع

الصغير نقلا عن بعض العلماء حديث (الدنيا سبعة آلاف وأنا في سابعها ألفا) ما معناه انه حديث مكذوب لا أصل له بل هو قلق التركيب سخيف العبارة سنده فيه وضاع .

أظن ان هذه الفكرة جاءت من أمة اليهود التي شاع فيها هذا الكلام تسلية عما فاتهم من الملك ولما ضعف المسلمون ورثوا هذا الكلام عنهم وهذه طبيعة في النوع الانساني كلما ضعف عن شيء أحب التسلي كما يتسلى العاجزون بالقضاء والقدر والبطالون بلعب الطاولة والنرد والسكر يسلون نفسهم عما أصابهم من هموم الدنيا واحزانها غاية الامر ان هذا سكر ظاهر وذلك خفي يأخذ بالعقول عن النظر في الشؤون وكما يتسلى العاجزون عن الفتك بالعدو بتمني زوال النعم والحسد وما يفتكون الا بانفسهم وما يشعرون فالامة التي تتكل على قيام الساعة تدل بذلك على دنو اجلها وموتها وهلاكها ما لم يتداركها حكماء علماء ويأخذوا بيدها من وهدة الضيق والهلاك

ومن طبق هذا على أحوال الامم جميعها رآها مطابقة تمام المطابقة وهذه الامة العربية لما شاعت هذه الأمور السبعة فيها الى القرن التاسع من الهجرة ابتدأ الدمار فيها تنبيهاً من الله لاهلها

ليأخذوا حذرهم ويرحبوا مجدهم وقد ورد في الحديث ان فتح القسطنطنيه من اشراط الساعة وقد جاء مصداقه حين فتح احد الاسبانيين بلاد الاندلس وقتلوا أهلها وسبوهم فأخذوا وهم لا يشعرون ولما ذهبت تلك الدولة شرع الافرنج فى احتلال الجهات الأخري وامتلاكها من الغرب والهند وغيرها (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطوراً) فقوله مهلكوها كخراب للاندلس وقوله او معذبوها عذاباً سديداً كالبلاد التى أهلكها اوملكها غيرهم كالغرب والهند ومصر والجاوه وكل على حسب جريمته في الابتعاد عن نظام البلاد وادارتها المعبر عنها بالنواميس الشرعية والقوانين السياسية المطابقة لها وليس هذا كله مانعا من الترقى مرة أخرى بل جرت سنة الله ان الأيام يداولها الله بين الناس (وتلك الايام نداولها بين الناس) وهذا الدين لا يزول من الارض بل آية أمة اضاعته حملته أخرى تقدر على حمله (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله

يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ولما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية وكان سلمان الفارسى جالساً قال مشيراً اليه هم قوم هذا وقد ظهر هذا فان الفرس هم الذين ابرزوا علوم الاسلام واغلب حملة العلم منهم كما قرره العلامة ابن خلدون ها نحن ان لم نقم بهذا الدين فربما يأتى المستر والمسيو الانكليزى والفرنساوى فيسلم فيغلبون على أمرنا ونحن الآن فينا بقية من رمق الحياة فهلموا للعمل وثقوا بالله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) ويرجع مجدكم وربما فقتم الاولين وهنا يظهر سر التوكل على الله تعالى فلما سمع القوم منه ذلك قالوا :

لقد شفيت قلوبنا والحمد لله الذى جعل فى الاسلام رجلاً حكيما مثلك يبين للناس مانزل اليهم واكثر فيه من امثالك

فقال المجتهد ان بيان أخينا الحكيم الفاضل كافٍ شاف فى هذا الموضوع ولقد بدا لى فهم انتخبته من فحوى كلامه ومرامي اغراضه وذلك ان القيامة قسمان صغرى وكبرى فاذا مات انسان فهي قيامة صغرى له والقيامة الكبرى هى عند خراب الارض وبين موت الشخص وخراب الارض يموت أنفس كثيرون وكلما ماتت نفس قربت الساعة الكبرى بمقدارها

اذ النفوس الانسانية معدودة محدودة وما مثل النفوس بالنسبة للأرض الا كمثل الانفاس بالنسبة للنفس الواحدة فكلما تنفس الانسان مرة ذهب من حياته جزء وقرب موته بمقدار ذلك النفس فاذا ذهب نفس آخر ازداد القرب وهكذا اذا مات شخص ممن قدر وجودهم على سطح الكرة الارضية قربت القيامة بمقداره وهكذا كلما هلكت امة دلت على قرب الساعة أو اشتداد قربها وعلى ذلك نفهم قوله تعالى في عيسى وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها وقوله صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين وقوله (أنا النذير العريان) وكان اذا ذكر الساعة أو خطب يظهر الغضب فى وجهه عليه الصلاة والسلام وقد ورد فى حديث ان جماعة جاءوا الى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن الساعة فقال (اذا مات هذا فقد قامت قيامتكم) وأشار الى أصغرهم فيفهم منه أنها اسم جنس وهذا هو الذى فهم من الاحاديث وهو المطابق للاخبار ولكن هذا غير مايفهم عامة الامة في هذا الزمان. ولقد كان النبيون ينذرون بالامرين الاشراط الصغرى والكبرى وكان اكثر عنايتهم بالصغرى لانها هى المهمة القريبة وعلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ويل للعرب من شر قد

اقترب ماذا أنزل الليلة من الفتن لقد فتح الليله من سد يأجوج ومأجوج كذا وحلق بالسبابة والوسطى) مشيراً الى فتح مسئلة التتار وذلك ان الاسلام كان آخذاً فى الانتشار ولما انتشر جهة فارس وخراسان قربوا من بلاد التتار وهم يأجوج ومأجوج فعبر عن مقدمات فتح السد بفتحه كما يقال الصحة مفتاح المرض والشباب مفتاح الشيب والحياة مقدمة الموت اذ كل من التوالى نتايج فهكذا ظهور التتار وهم يأجوج ومأجوج نتائج اتساع الفتوحات ومناخمة بلادهم لبلاد التتار وانظروا كيف ظهر أثر هذا الكلام بعد ٦٠٠ سنة وخرجوا ودوخوا الاسلام كما اوضحناه في هذا الكتاب

ثم ان كلام الانبياء عام لايخص امة بعينها فمتى حق القول على امة هلكت واضمحلت وقد تكون لها بقية فترجع كما كانت ولذلك كانوا يعلمون العلامات الصغرى والكبرى لان أحوالهم عمومية وكان الكون كله أمامهم ينظرونه بمتظار الكشف فيعبرون عنه بما يوحي اليهم والوحي أمر سماوى عمومي فاذا جاء للامة أخذ كل بما يناسب قواه العقلية فاذا أراد الله هلاك امة فهمت أن القيامة ستقوم عليهم وقفت حركتها واذا أراد

اعزازها كان هذا سبباً في نشاطها وعلمت أن هذه المنذرات يقصد بها الاخذ في أسباب السعادة مرة ثانية أو تكون عقولهم ارتقت ويقارنونها بقوله تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون)

والامة اذا يئست من روح الله عدت كافرة ولكنه كفر دون كفر لان هذا يوجب عذاب الدنيا والكفر الآخر يوجب عذاب الآخرة فقال آخر .

هذا السبب لا يصح أن يكون سبباً لاحداث هذا الفتور العام فى الامة اذ فكرة قرب الساعة كما قلنا شائعة في جميع الامم فلم تختص بامة دون امة على أن فهمها على غير وجهها جاء من انتكاس القرائح والافهام على الرأي الناشيء من الخمول العظيم المستولى على الكافة وهذا ما نبحث عنه والذى أراه يصلح أن يكون سبباً عاماً انقطاع سلسلة الولاء فى الامة بين الحاضرين والماضين فلم تتطلع الانفس لمجدها القديم وذلك أن غيرنا من الامم اذا مات عظيم من عظمائهم نصبوا له التماثيل والفوا الكتب في تقريظه وذكر اعماله ونشروا أخباره حتى يعرفه الناشئون فى المدارس والمنازل وعلى ألسنة الناس في المجالس حتى ينسج

الناشئون على منواله ويتبعونه اقتداء بما فعل لما يتولد من روح النشاط وحب التقليد فاذا جاؤا عند تمثاله وقفوا أمامه لم يروا شخصاً أمامهم الا تذكرة لجميع أعماله فى حياته ويتمثل لهم ان هذا الهيكل رمز لتلك السجايا الحميدة والصفات العديدة الجميلة فيشب الناشئون على سير الآباء ومحبتهم والاقتداء بهم ويحبون أوطانهم أما نحن فان عظماءنا وهم الاولياء والملوك والعلماء لا تقرأ فى سير الكثير منهم الا الكرامات وخوارق العادات ونترك كل عمل جليل عملوه مما ينفع الامة حتى اذا وقفنا عند الاضرحة لم نعمل بما صرح به علماؤنا من اننا نقف معتبرين فى أحوال دنيانا وآخرتنا ونقارن بيننا وبين صاحب ذلك الضريح. وكيف كانت حياته ونفعه للناس واقتداؤه بالانبياء ونطلب له الرحمة مكافأة على احسانه (فهل جزاء الاحسان الا الاحسان) ونقتدي فى أفعالنا (فبهداهم اقتده) وعلى ذلك تخطينا كل الاعمال الشريفة ووقعنا فى هاوية لا مردلها الا اذا عقلنا وفهمنا كتاب الله على وجهته

ولذلك لا نرى انتشار سيرة سيدنا عمر وعثمان وعلى وغيرهم من اكابر الصحابة ولا التابعين ولا الملوك العادلين من العباسيين والامويين وانما المنتشر على الالسنة بين العامة والخاصة بعض

كرامات للأولياء والصالحين والاقتصار عليها مع ترك ذكر
الاعمال العظيمة لنفع الامة وهذه قصة سيدنا الحسين وعلى
ومعاويه نراها شائعة ولا تذكر فضائلهم الا تبعا وانما المذكور في
الغالب المشاجرة التي أمر العلماء الا تذكر وكان الواجب أن تنشر
فضائلهم بين الامة ليقتدى الناس بهداهم . ونرى أن المؤرخين
يجمعون الحوادث من حيث هى يقطع النظر عن تأثيرها فى
النفوس وانما يأتون بكل ماسمعوا مع ان التاريخ حدث في الامم
للاعتبار والاقتداء ولم نجد منهم من ألف تاريخاً بقصد النفع
والتأثير على الافئدة والنفوس بفضائل الاعمال العمومية فيرون
التاريخ من حيث مصدره لا من حيث نفعه وتأثيره مع أن
الامم الغربية عرفت تأثير ذلك فبحثوا عن سير جهالهم ولخصوا
الحوادث تلخيصاً يولد في الناشئة رغبة صالحة . ولعمرى أن
الناشئة متى سمعوا قصص أسلافهم مشحونة بالحرب والضرب
والقتال والخداع قلدوهم في اعمالهم وعلى ذلك نرى قصة ابى زيد
الهلالى والزناتى خليفه وعنترة العبسي وعبلة شائعة بين عامتنا .
فياليت شعرى كيف يفلح قوم شاعت هذه القصص الجاهلية
بينهم حتى اننا نرى العامة فى القرى والامصار عندنا بالبلاد

المصرية مولعين بهاتين القصتين شبانهم وشيوخهم وصغارهم وكبارهم فانا لله وانا اليه راجعون .

وما قصص الغابرين من الامة مع الحاضرين الا كسلسلة اتصل اولها بآخرها فاذا قطع ذكرهم انقطعت السلسلة من الاذهان فتدهورت الامة وضلت تائهة حتي تأخذها امة اخرى وتلحمها وتحفظ انسابها واشعارها وتاريخها وتنسي سلسلة قومها

ولقد عرف الانكليز ذلك فجعلوا قومهم قسمين محافظين واحرار فالمحافظون يدرسون الماضى ويبقون كل قديم على قدمه ليبقى نظام الامة متصلا كما كان أولا ويتصل اولها بآخرها وتبقى رابطتها قوية والاحرار يأتون لكل جديد فيمزجونه بالقديم فيأتون بكل اختراع حادث علماً منهم انهم ان انقطع نسبهم عن الامم المجاورة لهم فى المعمورة تألبوا عليهم وغلبوهم في الصنائع والمعاملات فأخذوهم فكل أمة تركت مجدها القديم أو لم تنظر للجديد ولم تجار جيرانها هبطت وانحلت واختلت فبالاول تذهب قوتها وجيشها وبالثانى تنقض عليها الامم وتنقطع عن سابقتها فتتدهور فى الهاوية وبئس المصير فوجب علينا ان نسلك الطريقتين ونعمل بالامرين ونقرأ سير الاولين منا ونؤلف

تأليفاً نافعاً مؤثراً وان نجاري الامم حولنا ونستعين بالله ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)

فقال الاديب اننا نري في الامة جزءاً صالحا من شعائر القومية وارتباط السلسله ولكنه يحتاج الى اصلاح وتفليح فلا يصلح هذا ان يكون سبباً بل هو من العوارض والذى أراه يصلح سبباً عاماً جهلنا بأساليب الروايات وهى من الفنون الجميلة أضاعته الامـة وحفظه الغربيون والفنون الجميلة كلها مشوقة للنفوس الى مايراد منها والخياليات والروايات أعظم ما يقود الامم للترقى والنجاح وما تركنا هذا الا لجهلنا بمقصود القرآن والحديث فاننا قصرنا افكارنا واضعنا اعمارنا فى استنباط الاحكام الفقهيه التى بها نعبد وبها نحكم بين الناس مع ان كلا من العبادة الفقهية والاحكام بين الناس انما هي ظواهر ومقدمات ولها نتائج ونهايات فالعبادات لتفريغ النفوس عن الشواغل الى المعبود وهذا هو المقصود واذا لم يحصل فهى قاصرة وهكذا الاحكام بين الناس ماشرعت الا لفساد الاخلاق والمنازعات بين الافراد وأرقى منها تهذيب اخلاقهم التى لايحتاج معها الى تلك الاحكام ولا ريب ان فن الخياليات والروايات كما قيل يسوق النفوس

بالوعظ الى الخالق يشووقها الى الكمال والآداب التى هى الثمرة المطلوبة فلا يكون هناك دعاوى ولا بينات فهذا الفن يوصل للقرب من الخالق والخلق وهما نتائج جميع الديانات اذ الكون مؤسس على الحب وهو أرقى من الخوف والعبادات والاحكام السلطانيه أقرب الى الخوف وصلاح النفوس وكمالها بالحب وهما النهاية والحب اقوم الامرين وافضل الطريقين واعدل الحكمين.

ولهاتين الغايتين جاء القرآن بقصص الانبياء والصالحين والملوك والفراعنة والجبابره وذكرها فيه اكثر من ذكر الاحكام والعبادات اشارة الى ماقلناه والروايات اما على السنة الحيوانات او الجمادات أو الانسان وهذه الاخيرة تارة عن رجال معروفين وتارة عن مجهولين والاولى اما ان تكون حقيقيه او غير حقيقيه ومن الحقيقيه قصص القرآن ومن غير الحقيقيه مقامات الحريرى وبعض فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ومما جمع بينهما الف ليله وليله ومما جاء على السنة الحيوانات كتاب كليله ودمنه وكثير من الكتب توضع على هيئة محاورة بين الجمادات ولكل وجهة هو موليها فما وضع على السنة الحيوانات والجمادات اسلم عاقبة وانفع مما وضع على لسان الانسان بدون اصل لالتباس الحق

بالباطل ولذلك كثر الخلط في التاريخ بشيوع الف ليله وليلة ونحوه من كتب الروايات ماعلمنا ومالم نعلم فلكونها على السنة الانسان اشتبه الحق بالباطل وفسدت العقول بعلم التاريخ لما يوردون عن هارون الرشيد وخلفاء العباسيين مما لا يجوز فاقتدى بهم كثير من امراء الاندلس والشرق فضاعت الدول الاسلاميه ولم يكن مثل هذا من كتاب كليله ودمنه الذى وصفه الهنود وترجمه الفرس فالعرب بوصفه على السنة الحيوانات ولا خلط فيه فمثل رواياتنا جعلت لترقية العقول ولكنه نعم السير على بئس العير اماقصص القرآن فقد جاءت حكاية عن الانبياء ولم يكن فيها الا الحث على كمال النفوس الانسانيه

ولعمرى ان الناظر فيها يعجب جداً من اقتناص مارق وراق من تواريخ اولئك الانبياء مما يلائم التوحيد وتهذيب الاخلاق والعدل وحسن النظام مع ان حياة كل منهم فيها أمور متفرقه لا تحصر فواعجباً لحسن هذا النظام البديع المبهج الجميل ولقد عرف من نزل عليه الناموس مغزى تلك القصص وهو الاعتبار فاباح الروايات على اختلاف انواعها وقال عليه الصلاة والسلام حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج فالمقصود من

الحكايات مصادرها لا مواردها لان فى النفوس البشريه ميلاً الى الكمال والمحاسن بفطرتها وتلك الاقاصيص المرويه عن بني اسرائيل التى كان يحدثهم بها في اغلب الليالى ولم يجعل عليهم حرجاً فيها اذ هى تحرك ما فى النفوس من التحسين والتقبيح بالفطرة واباح عليه الصلاة والسلام للامة ان تأخذ الروايات من حيث هي حكم ومواعظ بقطع النظر عن موردها وانما المعتبر مضاربها كما قاله علماء البيان من انها جميعها استعارات تمثيليه وقال تعالى ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار ولهذا شحنت كتب التفسير بروايات بني اسرائيل وكان الصدر الاول يعرفون ماقلنا فخلف من بعدهم خلف غيروا ما بأنفسهم من العلم فتغيرت الاوضاع فظنوا ما نقل عن سليمان وايوب ويوسف مما ذكر خارج القرآن في الروايات اموراً محققه فضلل البعض فيها والبعض كذبها وقال لا أصل لها ثم خلف آخرون وصاروا يقولون ان الامة العربيه قوم يجمعون الخرافات ويؤلفون المقتربات وهذه كلها من الانتكاس على الرأس واتيان البيوت من غير ابوابها حتى زاد بعضهم فى الطين بلة ورجع الى قصص القرآن وأخذ يطبقها على التاريخ وتارة يثبت واخري ينفي .

ولعمري ان قصص القرآن لم يكن القصد منها ان تأتى لتراجع على التاريخ وانما القصد نتائجها والنظر في عجائبها والانتفاع بها وأما النظر الى أصل القضية فهو جهل وشك وان كانت نفسها حقيقه ومتى عدل بالشيء عن قصده كان ضره اكثر من نفعه فساء مثلا القوم الجاهلون ولقد أشار عليه السلام الى ذلك بقوله لا تضربوا القرآن بعضه ببعض .

النظر في الروايات أمر طبيعى فى البشر هو مبنى قوامهم وعليه يدور رحا مجدهم فمهما عرفت الامة ان القصد منها غاياتها فهى بخير ومهما رجعت الى أصلها فهى ضالة وشاهدنا على ذلك ما كان من الصدر الاول من المسلمين فانا لم نسمع منهم غير الفهم والتفهم والتعقل وها هى امة الافرنج الآن لا يزالون يؤلفون الروايات وهم يعلمون انها خياليه ولعلها اذا مضت فترة من الزمن يأتى قوم آخرون فلا يفهمون ويقولون انهم مخرفون كما جاء متأخروا الاسلام فظنوا ان اسلافهم مخرفون فى كتاب الف ليله وليله وغيره

ومن جهلنا بالقصد من قصص القرآن ان الكثير من المتعلمين اصبحوا لا يعلون على الاعتبار بها ولا تذكرها بل

علماء الفقه انفسهم والمحدثون لم نرهم يستيقظون قط اليها لظنهم ان الفقه هو المقصود والمهم من القرآن فضيعنا جزءاً عظيما من ديننا

وبعض الناظرين فى تلك القصص يقول مالنا نراها مكررة وهلا ذكرت مرة واحدة ساء ما يفهمون أو ما علموا ان القصة تذكر تارة تفصيلاً واخرى اجمالاً واخري بين ذلك بحسب المقامات واختلاف الاحوال وتباين الاغراض فيستشهد في كل مقام بحسبه بحال من احوال صاحب القصة ولنوضح هذا الاجمال بقصة ابراهيم اذ ذكرت في سورة الانعام لمجرد الاستدلال على الله تعالى

فذكر ذم الاصنام ثم البرهان بافول الكواكب والقمر والشمس على مدبر الكون كله وفى سورة الانبياء ذكر محاورة بينه وبين قومه فى الاصنام وتكسيرها وادخالهم له في النار ونجاته منها ونعم الله عليه بعد ذلك فقال

ولقد آتينا ابراهيم رشده الآيات .

وذكرها في سورة الشعراء فشرح كيفية دعائه فقال وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم فذكر محاورة بسيطة في الاصنام ثم شرع يصف الخالق وتدبيره فقال الذي خلقني فهو

يهديني والذي هو الى ان قال رب هب لى حكماً والحقني بالصالحين
وضمن دعاءه ذكر الجنة والنار والتعريض بقومه انهم غاوون
ففي المرة الاولى أرانا الحجج العقليه وفى الثانيه كيف يكون
أنعام الله على من نصب نفسه لنفع الامة وكيف يؤيده متى
صدق فى نيته ولذلك صدرها بقوله ولقد آتينا ابراهيم رشده
من قبل وكنابه عالمين فاشار الى ان الخالق متى علم من عبد صدق
نيته في نفع امة نجاه من الاعتداء ونصره وفي الثالثه أرانا كيف
يكون الاخلاص لمدبر الكون وكيف يكون الدعاء والتعريض
فى الكلام لجلب الخصوم ومقامنا هذا لا يسع تفصيل القصص
وانتم ايها السادة خلاصة من الامة فمثلكم من يكتفي بالقليل عن
الكثير وجميع قصص القرآن على هذا النمط على ان فى تكرارها
فوائد تعلم الامة كيف تؤلف الكتب ومثل القصة فى القرآن
كمثل كتب تؤلف فى موضوع والنفس كثيرة السآمة فلا تكاد
تثبت على حالة واحده فاذا قرأت القصة فى موضوعين او
مواضع في كتابين أو كتب كان لها أشوق واثبت ولقد نعلم ان
الامم الغربية والشرقيه يحيلون على المؤلفات فى تأليفاتهم فينشط
القراء لها وهى من أجمل الحيل في التعلم

ولما غفلنا عن تلك القصص هدمنا كثيرا من بنيان مجدنا وسبقنا
اليه الغربيون وتفرقنا شيعاً وذاق بعضنا بأس بعض ولو عقلنا بعضها لم
نتفرق ومن لنا بحكيم يجمعنا على كلمة واحده ويقص علينا موضعاً
رائقاً من قصة ابراهيم وهو قوله واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات الى
قوله تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون
عما كانو يعملون فان هذه الآيات تعلمنا كيف تجتمع الامة وهى
متفرقة فقد ذكر فيها اخلاص ابراهيم واسماعيل فى ابناء البيت
ودعائهما وانه لما مات وصى بنيه وذكر ان من المعاصرين للنبي
صلى الله عليه وسلم من يأمر بالنصرانيه ومنهم من يأمر باليهودية
وتغالى بعضهم فادعي ان أولاد ابراهيم كانوا يهوداً أو نصارى
فامرهم بالرجوع الى ملة ابراهيم وهو أصل هذا الدين وهو
التوحيد بالبرهان وان النصرانيه واليهودية أشبه بالفروع من
الاصل وبينها فرق في الاعمال والاحكام لا في التوحيد والاعمال
والاحكام تتغير بتغير الزمان وقد ذهب الزمان المناسبة له تلك
الاحكام فبطلت ببطلانه فلنرجع الى أصل دين ابراهيم وهو
التوحيد ولا جرم ان كل امة من الامم راضية عنه فالمرجع
اليه أولى من الشقاق والانقسام .

هذا هو مغزى تلك الآيات .

ولعمر الله انها لم توضع فى القرآن لمجرد سرد حكاية وانما علم الله اننا سنقع فى هذا الانقسام فذكرها ليأتى قوم حكماء فيقلدون سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ويجددون شريعته التى مزقتها الخلافات وصاروا فرقاً شتي ويقولون ان علماء الامة كانبياء بنى اسرائيل ومثلهم بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم كمثل اؤلئك الأنبياء لابراهيم وكلهم مصدق بربه ونبيه وكتابه فوجب ان نترك المنافسة فى أمر الصحابة والخلفاء لان هذا ليس من الدين في شيء وانما هى امور عارضة ليس لها دخل البتة ونتحد فى الامر العام وهو الخالق والقرآن والنبي وكل يعمل على شاكلته ولا ندخل الاشخاص والتشيع فى ديننا ونقول لمن يتعرض لاحد الأئمة رضوان الله عليهم من آل البيت أو غيرهم من العلماء واكابر الامة . تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ويترك كل واحد التعصب لمذهبه فمثل الحكيم منا كمثل النبي صلى الله عليه وسلم والعلماء كالانبياء وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كابراهيم ودعوة نبينا اتابعى الامم بتوحيد العقيدة مع الامر باحترام جميع الانبياء كدعوة

حكيمنا باتباع القرآن والخالق والنبي ونبذ الشقاق واحترام كل مذهب بدون تعصب لاحدهم من آل البيت أو غيرهم وتعظيم كل عظيم من عظماء الامة فيقول آمنا بما انزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد فلم هذا الشقاق

ولقد علمت ان قصص ابراهيم جاءت لامور كثيره

(١) برهان التوحيد (٢) كيفية المحاجه وبيان صنع الله بمن صبر على الجهاد (٣) كيفية الدعوى وادخال النصيحه فى قالب الدعاء (٤) كيف تجتمع العناصر المختلفه من الديانات المتفرقه وغير ذلك مما لم نذكره واذا كان النبى صلى الله عليه وسلم دعا لوحدة الدين مع اختلاف الانبياء فما بالك بمن يدعو لاتحاد أجزاء دين واحد فهو أسهل ولذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم الى ملوك الآفاق ككسرى وقيصر وغيرهما ومما كتبه الى هرقل عظيم الروم . ويا أهل الكتاب تعالو الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ومما يشير الى ان هذه الطريقه قوله تعالى ملة أبيكم ابرهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا كأننا مأمورون بالدعوة لاصل

الدين عند الانشقاق كما دعا صلى الله عليه وسلم اتباع الانبياء له عند اختلاف الديانات

﴿ مقاصد علم التاريخ ﴾

ومما يفيده تلك القصص من حيث الاسلوب ان يكون تأليف علم التاريخ لمقاصد وغايات ينتحلها المؤلفون كما يفعل مؤلفو الامم الاخرى فاننا ما رأينا قصة فى القرآن ذكرت الا لغاية مطلوبة اختلفت طرقها واتحدت وجهتها وعندي ان هذا أعظم معجزة اذ كيف يستخلص من قصص كثيرة متفرقة متباينة نبذ مخصوصة لمعان متقاربة تنحصر في الله والرسل والمحاجات وتهذيب الاخلاق والبعث والحشر والميعاد من الثواب والعقاب فعلينا ان نتحرى هذه الطرق ونسلك عند تأليفنا مسلك الارشاد لا الاخبار واذا كان المقصود من القصص الحث على الفضائل والعقائد فمن قارنها بالتاريخ فقد رجع بها عن أصلها وضل سواء السبيل ومثل من يقرأ هذه القصص يرجعها الى التاريخ الاصلى كمثل من يقرأ القرآن والتفسير ويطبقه على النحو والصرف وعلوم البلاغة مقتصراً على ذلك فهؤلاء قوم ماعلموا المقصود

منه بل خرجوا به عن موضوعه وأتوا البيوت من غير ابوابها فلم يفلحوا فباب القرآن ليس هو التعمق في العلوم العربية ونحوها ولا التطبيق على التاريخ ساء مثلا القوم الغافلون ولسنا بهذا نذم هذه العلوم فاننا ما عرفنا الا بها وانما قلنا ان المقصود وراءها لا هي فمن وقف عليها فهو الضال لانه سواء السبيل .

وبالجملة ففن الروايات فن جميل جهله المسلمون فى كتابهم فجهلوا ثمرته وغفلوا عن افهام اسلافهم فيه وضلوا ما فى كتب التفسير من تلك الروايات عن الانبياء ظناً منهم انها حقيقيه مع انها خياليه وليس الحقيق الا ماجاء به لفظ القرآن منها فحسب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدث بهذا الحديث الليل كله لعلمه ان القصد ثمرة الحديث لا هو وفرق بين ما يراد لنفسه وما يراد لغيره وان هذه كلها استعارات تمثيليه ولقد سبقنا الغربيون اليه وضللناه على هذا أصبح الناس يقرءون سورة يوسف فى القاهره كسماع قصة عشق وما علموا انها مقصودة للعفة والصبر والاحسان الى العشيرة والعفو عن المذنب عن القدرة وحسن السياسة وترك الزنا وحبس النفس عن السر واكرام الاخوة وعدم مؤاخذتهم وغير ذلك ولقد خصت

قراءة القرآن باوقات الافراح والمآتم وما علموا انها انما تكون لنفوس تحيا حياة طيبة بالفهم والعلم .

﴿ البرهان والتقليد ﴾

فقال السائح هذا أقرب الى الدواء منه الى الداء اذ هو جاء لبيان طريقة الاصلاح ونحن الآن نبحث عن الداء والذى أراه ان هذه الأمة لم تتعمق الا فى مسائل الاولياء والكرامات وخوارق العادات فقال له الصانع اتنكر كرامات الاولياء فقال لا ولكنى اقرر ماخطر بنفسي فيها وما حكمتها فقالوا امض هذا الحديث فقال ان هذا الكون مؤسس على نظام وحكمة علية فائقة ومنها أمر الدين فانه أمة كان فكرها راقياً عرفت دينها بالبرهان وان سقطت افكار افرادها وتفرقت اهواء عقلائها فانهم لا يعرفونها الا بخوارق العادات وقد ارسل صلى الله عليه وسلم والقرآن أعظم معجز له لانه راجع الى العقل والفكر وهو الباقى لآخر الزمان أما تلك الخوارق فاذا توقف عليها ايمان الامة دل على انحطاط افكارهم ونكوصهم وضعفهم عن فهم دينهم كما نص على ذلك الشعرانى وكان الله لما رأى سرعة شكهم اتى

لهم بتلك الكرامات ليطمئنوا علماً منه بانهم ليسوا مستعدين للتصديق والاذعان بنفوسهم وهذه الاسلامية فى صدرها لم تكن فيها تلك الكرامات الا قليلا مما وقع لعمرو ابي بكر ونحوهما رضي الله عنهما والايمان المبنى على الخوارق وحدها ضعيف كما حققه الغزالى فى قوم موسي اذ ارتدوا حين رأوا عجلا من ذهب جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى وذلك لان عالم الشهادة والحس يكثر فيه الخطأ والغرور وعلى هذا ورد قوله تعالى وما منعنا ان نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفاً ولقد علم الناس ناقة صالح وكيف شاهدها قومه فكفروا فأراد الله ان يجعل معجزات نبيه في أفكارهم وعقولهم لا في حسهم الذى يقع فيه الغلط وكان ارسال الآيات الحسية لمجرد الاخذ بحسب الظاهر اوالتخويف ولا ريب ان الخوف لا يدوم الاتعاظ والانزجار به إنما الذى يدوم الاعتبار بالعقل والفهم والحكمة والموعظة الحسنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (اناجيلهم فى صدورهم) كسحرة فرعون الذين آمنوا ايمانا ولم تتغير عقيدتهم بعد بخلاف قوم موسى وبالجملة فأمتنا الآن تحتاج الى زيادة

تور في الايمان وتثبت في العقيدة وفهم للقرآن كما كنا زمن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم اجمعين وينبني على ذلك علو الفكر فيسمو من البسائط الى المركبات ويعلمون ان التوحيد ليس امراً بسيطاً فاذا بقي التوحيد في القلب ولم يصل للعمل فهو ناقص وما الدين الا قول واعتقاد وعمل فاذا اعتقدنا ولم نقل أو قلنا ولم نفعل فنحن لم نزل في البسائط ولم نخرج منها الى المركبات ونبقى عبرة للامم وأول الدين امر بسيط ونهايته سياسة

﴿ العلوم الرياضيه والطبيعيه ﴾

فقال العالم المتبحر في العلوم ان هذا يصلح ان يكون من الاسباب الداعيه لموت الشعور اذ الناس تبقى أفكارهم منحصرة في امور جزئية ولا ينظرون للكليات ولكنه لا يكفي وحده لعموم هذا الفتور.

والذي يصلح أن يكون سبباً في عموم هذا الفتور أهمالنا العلوم الرياضية والطبيعية مع أنها أصبحت لازمة للحياة لزوم الجسد للروح وأصبحنا نحتاج اليها في أصغر الصنائع وادقها واكبرها وأعظمها. وليس احتياج الخياط لها أقل من مسيس

حاجة مدير الكهرباء والبخار في سير القطار وليس لزومها للماديات باقل من لزومها للعقليات .

وهاهو القرآن الكريم يقص علينا قصص الامم الغابرة تارة ويذكر حكم الكون اخرى وهذه العلوم قد أبانت في الاكتشافات الحديثة ما يدهش الحكماء من أعاجيب الخلقة وبدائع الحكمة في الطبيعة والكيمياء وما فيهما من مقادير معينة في المركبات وتناسب المقادير تناسباً عجيباً حتى انها سارية بقوانين لا تتعداها فاتضح بها قوله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار وقوله وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وقوله وهو أسرع الحاسبين وقوله ان الله سريع الحساب وقوله والذى خلق كل شيء فقدره تقديراً وقوله الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى وقوله انا كل شيء خلقناه بقدر وقوله الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وقوله والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة وقوله وأنزلنا من السماء ماء بقدر وقوله وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وقوله الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد أحاط بكل

شيء علما وقوله وكفى بنا حاسبين وقوله أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد وقوله شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم وقوله انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو في السموات أو فى الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير وهذه الآيات كثيرة يطول شرحها منتشرة فى القرآن كأنها جواهر منتثرة فلنقتصر على ما ذكرنا وكفانا هذا الاجمال فقال له الاديب .

﴿ ايضاح فى العلوم الطبيعيه ﴾

أيها الفاضل أفض فى هذا الموضوع وفصل الكلام تفصيلا فان الاخوان كلهم آذان صاغية وانى طالما كنت اقرأ فى كتب الاقدمين أن جميع الموجودات وضعت بمقادير هندسية وحسابية وكنت أراهم يسمونها نسبا تأليفيه ويقولون انها افضل النسب لجمعها بين الهندسية والحسابية وهذه العلوم المكتشفة حديثا قد أوضحت الاشياء ايضاحا تاما وأنت بها خبير فاوضح المقام وغرابته . فانه من ملحقات البحث فى الاسلامية وما آل اليه أمرها وعلاقة هذه العلوم بها فان المسلمين اذا علموا أنها

تفسر القرآن وتجعل معناه ظاهراً في الطبيعيات نشطت عقولهم من عقال الجهل الى حرية العلم

فقال ان العالم مركب من اجسام كثيرة وعناصر متباينة تزيد عن سبعين عنصراً وهذه العناصر هي التي وصل اليها الاستكشاف الآن وقد كان الاقدمون يعتبرون البسائط أربعة فقط وهي الماء والتراب والهواء والنار فأصبح ما كان بسيطاً عندهم مركباً عند الغربيين والمراد بالعنصر ما لا يمكن تحليله الى جسمين آخرين وهذه العناصر منقسمة الى قسمين معادن وغير معادن تسمى أيضاً فلزات والمعادن أجسام صلبة كلها الا الزئبق وهي موصلة للحرارة والكهربائية بحيث أن الكهربائية والحرارة اذا وصلت اليها أسرعت فيها كما تسرع النار الاشتعال في الحطب وهي تلمع متى صقلت كما هو مشاهد في النحاس والحديد والذهب والفضة والخارصين والرصاص وغيرها حتى أن الاقدمين كانوا يتخذون المراءات من الحديد فيصقلونها حتى تصير كالزجاج .

والعناصر التي ليست معدنية وتسمى لافلزية تكون على الاحوال الثلاثة للمادة وهي الغازية والسيولة والصلابة كالهواء وكالماء وكالاحجار ومنها عنصر يسمى الاكسوجين وآخر يسمى

الادورجين وهما يتكون منهما الماء ومتى حلل بالآلات انفرد
كل عنصر بنفسه كما يحلل الماء الى اكسوجين وادروجين ومن
عجيب الاتقان ان كل عنصر له هيئة مخصوصة فالاكسوجين
الذى هو أحد ركنى الماء جسم كثير الوجود فى الكون داخل
فى الهواء والماء والصخور والاحجار فاذا انفصل منها صار جسما
غازياً كالهواء عديم اللون والطعم والرائحة يقبل السيولة بضغطه
ضغطاً عظيما أو تبريده تبريدا شديداً وهو أثقل من الهواء قليل
الذوبان فى الماء وليس الاشتعال الذى نراه في غاز الاستصباح
والبترول والزيت الا من اتحاد عناصر هذه الاجسام واذا اتحد
معه الاودورجين صار ماء طهورا والاودورجين اسم مشتق
من كلمتين يونانيتين معناهما المولد للماء وجوده على حالة الانفراد
نارد جداً ولكنه كثير الوجود فى الكون على حالة الاتحاد فى
الماء والمواد العضوية الحوانية والنباتية وهو غاز يسيل بضغطه
ضغطا قوياً وبتبريده تبريداً شديداً وهو أخف الاجسام المعروفة
يلتهب بلهيب باهت قليل النور شديد الحرارة واذا وضع فيه
جسم متقد ناراً ينطفىء بسرعة فهذا الغاز غير صالح للاحتراق
ولا للتنفس فاذا وضع فيه حيوان مات مختنقاً لعدم وجود

اكسوجين معه وهذه الصفات بلا ريب تخالف صفات الاكسوجين وذلك انه اذا وضع فيه سلك من حديد ملتف لفاً حلزونياً وفي طرفه قطعة من الصوفان منقده فان السلك يلتهب وينتشر منه قطع صغيرة وصلت حرارتها الى درجة الاحمرار وهذا الاحتراق حاد جداً يدوم بدوام الاكسوجين

وبالجملة فالاكسوجين والادروجين مختلفا الصفة فالاول يحرق والثاني يطفي والاول حار جداً والثاني بارد جداً والاول يتجه عند تحليله الى القطب الموجب فتكون كهربائيته سالبة والثاني الى القطب السالب فتكون كهربائيته موجبة فان الاجسام المكهربة تطلب اضدادها دائماً

فتأملوا ايها الاخوان كيف وضع صانع هذا الكون هذين الجسمين مع بعضهما وهما متنافران متضادان في الصفات فكونا شيئاً واحداً آخذاً صفات متوسطة وهي الماء الذي جعله الله حياة كل حي وما أشبه هذا التركيب بتركيب نوع الحيوان من ذكر وأنثى وباتحادها دام الوجود

وماذكرت هذا الا مثالاً واحداً لتعلموا ان كل جسم في الكون سار على هذا النسق افراداً وتركيباً واختلافاً وائتلافاً.

ولاذكر لكم كيف اتحد هذان الجسمان وما مقاديرهما وكيف ظهر هذا السر ووافق المعقول المنقول لتقيسوا عليه جميع المقادير في الكمياء فان جميع التراكيب في الكيمياء تنقاد لقانونين القانون الاول قانون (المقادير المحدودة) وهو ان نسبة مقادير الاجسام المركبة لبعضها تكون ثابتة لاتتغير وبعبارة أخرى ان اتحاد الاجسام ببعضهما يكون بمقادير محدودة ثابتة في كل حركة.

القانون الثاني قانون النسب المتضاعفة ويسمى قانون دالتون وهو (اذا اتحد جسمان ببعضهما وتكون عنهما عدة مركبات فلو بقيت كمية احدهما ثابتة فكمية الآخر تتغير على حسب نسب مضاعفة بسيطة).

ولنوضح القانون الاول في مثالنا وهو الماء فنقول.

ان الماء مركب من ذرة واحدة من الاكسوجين وذرتين من الادوروجين فاذا حللنا الماء نجد الذرات الداخلة في تركيبه من الاكسوجين نصف الذرات الداخلة فيه من الادروجين فاى مقدار من الماء حللناه وجدناه هكذا الثلث في الحجم اكسوجين والثلثان ادروجين وفي الوزن نجد ان ذرة الاكسوجين (الذرة عندهم هي أصغر جزء وصل اليه العنصر) قدر ذرة

الاودروجين ست عشرة مرة والذرة الواحدة من الاكسوجين معها ذرتان من الادروجين وحينئذ يكون نسبة الاكسوجين الى الادروجين كنسبة ثمانية الى واحد

وحينئذ يقال

١ : ٨ : : ٢ : ١٦ : : ٣ : ٢٤ : : ٤ : ٣٢ : : ٥ : ٤٠ وهكذا الى ما لا يتناهى من مياه الارض جميعها وهذه نسبة هندسية وبالنظر لمقادير احدهما وحده تكون نسبة عدديه فكأن العنصرين لم يتحدا الا على نسبة عدديه ونسبة هندسيه معاً وهذه القاعده كما قلنا سارية في الماء كله

وهذا بعض الحساب والميزان وغيرهما الذى ذكره الله فى القرآن حتى ان الماء لو دخل فيه ذرة من الاودروچين مثلا زائدة عن هذه النسبة فانه لا يقبله كما يشاهد فى العمليات الكيماويه فى تحليل المواد وبهذه نفهم قوله تعالى (يابنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو فى الارض يأت بها الله)

فانظروا كيف عبر بالذرة التى عبر بها الكيماويون وفهموا ان جميع الذرات فى الصخر وجميع الاجسام لا يمكن ان تختل عن

مقاديرها المعينة ثم أعقبه بقوله (ان الله لطيف خبير) مشيراً الى اللطف في التدبير ومعرفة بواطن الاشياء فبهذا وأمثاله يفهم آيات القران. وقال تعالى (وما من غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين وقال وماتكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً اذ تفيضون فيه ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين فتأملوا كيف ظهر وزن الذرة المذكورة وكأن الناس أصبحوا بهذه العلوم يشاهدون هذا الحساب المتقن الذى هو كتاب مبين وانما قال ولا أصغر من ذلك ولا اكبر مع ان الذرة لم يمكنهم تحليلها الى أقل منها لان علماء الغرب لا يزالون يقولون ان الذرة تقبل التحليل الذى لم تصل اليه .

فبهذا هو الميزان السارى فى الكون كله وبهذا وأمثاله نفهم قول قدمائنا ان الحب سار في الموجودات كلها وقولهم ان بين الكائنات نسبة محفوظة وهذه النسب بعينها كنسب الحروف السواكن والمتحركات فى علم الشعر وعلم الموسيقى فانهما من واد واحد كالمقادير الكيماويه فان بحر الوافر مثلا وزنه مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن نسبة عدد

الاسباب فيه الى الاوتاد كنسبة ١٠ الى ٦ وفي نصفه كنسبة ٥ الى ٣ فهى نسبة هندسية منفصلة وما فيه من العلل والزحافات فهى كمرض في جسم الحيوان

واذا نسبنا الاسباب لبعضها والاوتاد كذلك كانت نسبة عددية . ٣ : ٦ : ٩ : ١٢ وهكذا اوه الى ١٠ الى ١٥ الى ٢٠ وهكذا أى فى شطر وشطرين وثلاثة وهكذا ونسبه السواكن الى المتحركات كنسبة ٦ الى ١٣ فنقول الشطر فيه ستة حروف سواكن و١٣ حرفاً متحركا وتقول ٦ : ١٣ : : ١٢ : ٢٦ : : ٢٤ : ٥٢ فهى هندسية واذا نسبنا السواكن الى بعضها والمتحركات كذلك كانت نسبة عدديه وهكذا جميع اوزان الشعر .

فيظهر ان مقادير الكيمياء هندسية حسابية كمقادير أوزان الشعر ومثلها الموسيقى أيضاً واكتفينا عن الكلام فيها بالشعر لانهما من أوزان متقاربة جداً موضوعة على هذه النسب المحدده وما اشبه هذه المقادير المتناسبة بمقادير حساب الكواكب الجارية فانها كلها تجرى بحساب متقن .

وكل هذا الكون جار على مثل هذه النواميس . وكم من عاقل ينظر فى ميزان القبان ولا يعلم انه موضوع بنسبة هندسية

حسابية عرفها أهل تلك الصناعة حتى ان نسبة الذراع القصير الى الذراع الطويل كنسبة الرمانة الى مايوزن معادلا لها وهكذا السفينتان العائمتان على وجه الماء نسبة وزن احداهما الي وزن الأخرى كنسبة الفراغ الذى شغلته احداهما فى الماء الى الفراغ الذى شغلته الأخرى أو كنسبة وزن الماء الذى ازاحته احداهما الى الذي ازاحته الأخرى وهكذا الحجر النازل والنسبة التربيعية التى يتوالي تضعيفها بقانون محدود كلما نزل الحجر فكل هذه تعرفنا ما ذكر من الآيات وقوله تعالى والسماء رفعها ووضع الميزان .

فها نحن من هذه العلوم اصبحنا نعرف معنى هذا الميزان الذى سرى فى الكون كانه مشاهد بالبصر من شدة وضوحه وهذا هو القسط والوزن والحق .

ولما كان فن الكيمياء مبنياً على نسب هندسية وحسابية وضعوا معادلات كمعادلات الجبر حتى اصبح معنى هذه الآيات محسوساً وحق علينا قوله تعالى .

(وكم من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون)

وانى أعوذ بالله ان نقول اذ قلوبنا غلف كما قال اليهود

لصاحب شرعنا فحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والأنس انهم كانوا خاسرين ولقد عرف علماء الغرب ان جميع هذه الذرات المكونة منها العوالم متحركة دائما حركة سريعة كحركات الكواكب وهذا غامض جداً على من لم يقرأ علوم الطبيعة واذا كانت كلها متحركة وهى على تلك النسب المذكورة فحركاتها موسيقية طبعاً وتكون اصواتها لذيذة اذا صفت النفوس وخلصت من عالمنا الذى نحن فيه وبهذا عرفنا معنى قول فيثاغورث ان العالم مركب من موسيقي وهناك تفسير آخر لهذا القول وهو ان الموسيقى لا يقصد بها الا النسب المحدودة المذكورة آنفا وانما ذكرت الموسيقي لانها اظهر منها واسهل واوضح وأما المركبات العنصرية فهي صعبة الفهم على غير المتعلمين واذ فرغنا من ذكر القانون الاول فلنبين الثانى وهو قانون النسب المتضاعفة ومثاله اتحاد الاوزوت بالاكسوجين فانه يكون خمس مركبات الاول يحتوى على ١٤ من الاوزوت و١٦ من الاكسوجين والثاني على ١٤ من الاوزوت و١٦ × ٢ من الاكسوجين والثالث على ١٤ من الاوزوت و١٦ × ٣ والرابع على ١٤ من الاوزوت و١٦ × ٤ من الاكسوجين والخامس على

١٤ من الاوزوت و١٦×٥ من الاكسوجين فنسبة مقادير الاوزوت لبعضها المساواة ونسبة مقادير الاكسوجين لبعضها عددية لانه يزيد ١٦ دائما ونسبة مقادير الاوزوت في كل واحد من المركبات الى الاكسوجين تكون هندسية ولا اكتفى بهذا القدر فاني اطنبت فيه لما ارى من تخاذل عقلائنا وخاصتنا وعامتنا في العلوم وظنهم انها تخالف الشريعة مع انها هي سرها وخلاصتها اذ بهذه المقادير والنسب المحفوظة ذقنا الطعم وشممنا الريح وسمعنا الصوت وابصرنا الكون ولمسنا النعومة مثلا فما كان على النسبة الجميلة قبلته تلك الحواس وما ليس عليها لا تقبله فالسمع انما يلتذ بما كان على تلك النسبة في الشعر وبقية الحواس لا يلذ لها الا ما كان بتلك المقادير المتناسبة في تركيب المركبات (ان ربك هو الخلاق العليم) وليس القبول وعدمه الا الحب او البغض ومنه ثبت ان العشق سار في الكون كله وانه تابع للحساب والهندسة بل اضحى المسلمون محتاجين الى الحكمة العقلية التي كادت تجعل الغربيين ادرى منا بكل حسي حتى ديننا كاستدلالهم بالمقايسة على ان نبينا صلى الله عليه وسلم افضل العالمين عقلا واخلاقاً وكاثباتهم بالمقابلة ان ديننا اسمى الديانات حكمة ومزية

وعندى انه لولا هذا القصور ما وقع المسلمون فى هذا الفتور

والامـل بعناية الله تعالى بعد زمان قصير او طويل ان يلتفتوا لهذه العلوم النافعة فيستعيدوا نشأتهم بـل يجلبوا الى دينهم العالم المتمدين لان نور المعارف بقدر ابعاده العقلاء عن دياناتهم يقربهم من الاسلامية لان الدين المملوء بالخرافات والعقل المتنور لايجتمعان فى دماغ واحد ثم ان تبعة التقصير تشمل علماء الأمة المتقدمين والمتأخرين وهؤلاء الذين عاصروا الاورباويين اكثر اثما وأشد عذاباً بتقصيرهم واقتصارهم على تدريس شيء من اللغة والفقه وقطع من المنطق مظلمة ملتبسة غير مستعملة وشيء من الحساب إكمالا للفرائض والمواريث تدريسا غـير مرتب قلما يفيد فهؤلاء العلماء المتأخرون هم المسئولون يوم القيامة عن هذه الامة وضياعها ووقوعها فى شرك الردى والهوان لتركهم البحث في الاحوال الحاضرة والعلوم النافعة في هذا العصر .

وكما شمل التأخر علماءنا شمل الوعاظ والزهاد فالاولون مقتصرون على حكايات الزهاد من صحيح وموضوع ورواية كرامة الانجاب والاقطاب والنقباء والابدال وعلى بعض الاناشيد في الحفلات والترنمات ولا تنس خطباءنا واقتصارهم على تكرار عبارات في

الدعاء للغزاة والمجاهدين وتمداد فضائل العبادات وبالاجمال فابتعادنا عن العلوم النافعة وانحيازنا فى جانب عظيم من الجهل هو الذي جعلنا أحط الأمم ولو بقينا على هذا خمسين سنة بعدت النسبة بيننا وبين جيراننا كبعدها بين الانسان الحيوان والنتيجة ان ناموس الارتقاء هو الذى سبب هذا الفتور العام كما قال تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون

فقال المجتهد هذا يعد سببا فى الانحطاط ولكنه لا يكفى وحده لهذا الانحطاط العام وفقد الاحساس الملى والاخلاق الفاضلة والذى أراه يصلح سببا لذلك اننا كنا قادة للامم سادة هداة فاغتررنا ونمنا آمنين مطمئنين وتنبه غيرنا ونحن لا نشعر وسبقونا ونحن لا ندرى حتى اذا تيقظنا من كهفنا رأينا الشوط بعيدا فيئسنا من المباراة واليأس أعظم مسقط للامم قال تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) فما أخرنا الا يأسنا من المباراة واللحاق للامم الراقية واليأس فى الحقيقة كفر بالمواهب التى أفرغها الله عزّ وجل فى الوجود وجهل به واى كفر اطم واعم من جهل الوجود وماحواه فقال السائح هذه شكاية حال ولا تفى بالغرض ولا توضح السبب.

وما المسلمون بالابعدين كأهل الصين ولا المتوحشين المريقين فى التوحش كاهل امريكا الاصليين .

والذى عندى اننا فقدنا الهداة المرشدين والاكابر المصلحين فلم نجد أميراً يدخل الامة فى حكمه آخذا بخطام الرغبة أو سائقا بسوط الرهبة ولا حكيما معترفا بفضله ولا تربية متحدة المبادئ فيشيب الولدان ويشبون وهم بها متحدون ولا جمعيات منتظمة تسعى للخير ولذلك حل فينا الفتور والى الله ترجع الامور فقال التاجر ان ماذكرته من الآمر المطاع والحكيم المتبع لا يكونان في الامم المنحطة الا اتفاقا واما الرأى العام والجمعيات فلا يفقدان الا بفقد الاحساس العام وهذا ما نتساءل عنه

ثم قال والذى أراه ان الداء العام هو فقد المال والفقر الآخذ بالزمام فالفقر هو السبب الاكبر فى جهلنا وفساد أخلاقنا وتشتت آرائنا حتى في ديننا وفقد احساسنا وهكذا من كل ما حلّ بنا

هذه فطرنا لا نقص فيها عن غيرنا وعددنا كثير وبلادنا متواصلة وأرضنا خصبة ومعادننا غنية وشرعنا قويم وفخارنا قديم فلا ينقصنا من الامم الحيه غير القوة الماليه التى أصبحت

لا تحصل الا بالمال الطائل فوقعنا في مشكل الدور فنحن نحتاج للعلوم وهى لا تحصل الا بالمال والمال لا يكون الا بالعلوم وهذا الدور ان لم نهتد لحله دخلنا في قانون فناء الضعيف في جانب القوى من قانون الارتقاء

﴿ تنازع البقاء ﴾

فقال الفقيه اشرح لنا تنازع البقاء واقص فيه أيها الفاضل فانك مفوار فى البحث فقال . اعلموا اخوانى ان هذا الكون مؤسس على ان الاقوى يغلب الأضعف وليس هذا خاصاً بالانسان بل هذا حكم سار في النبات والحيوان والصنائع فالنبات الاقوى يغلب الأضعف متى تجاورا فمتى زرعت بذور من أنواع مختلفة منه وتمت في تربة واحدة ثم حصدت معاً وزرعت كرة اخرى وهكذا مراراً لا يبقى منها الا أقواها وأوفقها للارض واكثرها تحملا للحوادث الجويه ولو تنازع نباتان فى قفر لما بقى الا أقواهما على احتمال القيظ كما لا يفوز بالبقاء في زمن القحط الا من كان أشد صبراً على الجوع كما ذكره بن خلدون . وأما الحيوانات المتفردة بالبقاء المنازعة لغيرها فامثلتهما كثيرة اذ رأوا

ان الخيل والبقر الوحشية التى تسرح قطعانا لا يحصى عددها
في سهول أمريكا الجنوبيه الواسعة انما أصلها عدد قليل أتاها
من اوروبا يوم غزوة الاسبانيول وقد قدر بعضهم عدد الخيل
الوحشية في سهول بلادها الواسعه بنحو ثلاثة ملايين ثم النباتات
والحيوانات التي ادخلت من اوروبا الى استراليا المكتشفة حديثاً
قد تكاثرت حتى كادت تغطي الارض هناك وفازت فى الارض
بالبقاء ولا يخفى ان الذى يفوز بالبقاء على ماسواه انما هو ما تميز
بصفات جسديه أو عقليه تجعل له هذا الفوز . وهذه الصفات
كثيرة جداً فقد تكون فى الاقدام او القوة أو كبر القد أو
صغره أو وسائط الهجوم والدفاع أو الجمال أو السرعة أو الصبر
على الجوع أو حسن الكساء أو الحيلة أو حسن التدبير فى تحصيل
القوت او الحكمة فى اتقاء الشر وبعض الحيوان يفيده لونه
كالجمل الابيض والدب الابيض اللذين يقطنان فى الجهات
القطبيه المغطاة بالثلج دائما وكذلك الذباب الاخضر الذى يعيش
على أوراق النبات وبعضها بفروه الذى يتلبد اذا أقبل الشتاء
وبعضها بسرعته في الهرب أو شدته فى القتال .

ثم لتعلموا أيها الاخوان ان التنازع انما يكون بين الانواع

الاقرب بعضها الى بعض لاشتراكها فى المتنازع عليه ويقل كلما
ابتعدت بعضها عن بعض حتى يفقد وكلما كانت الصورة قديمة
ضعفت عن مقاومة اخصامها الاحداث لاتخاذ الاحداث في
التنازع صوراً تناسب التغييرات الحاصلة فى أحوال الحياة فتجعلها
أقوى وكل صورة غلبت لا تعود أبداً اذ لا تعود قادرة على
الثبات في التنازع واذا أردت مثالا زيادة عما تقدم فهناك بلاد
هولاندا الجديده (استراليا) فان هذا القسم لانعزاله عن العالم
مرة واحدة وعن كل منازعة بقيت نباتاته وحيواناته متأخرة
جداً فاعلى حيواناته رتبة ذى الجراب الذى عاش في اوروبا
فى الدور الثانى وتلاشي لتغلب أنواع اخرى عليه أقوى واكمل
وانما بقي مثل هذا الحيوان فى استراليا الى يومنا هذا ولم يضمحل
لعدم وجود منازع شديد البأس ولكن من يوم دخلها الانكايز
اخذ كل ما فيها فى التلاشي حتى كاد يضمحل لعدم صبره على
منازعة ما أدخلوه معهم ولم يسمع قط ضد ذلك فلم يسمع ان
حيوانات ونباتات استراليا امكنها ان تتأصل فى اوروبا .

فمن هذه الامثله التى رأيتها فى كتاب اويز نجز الالمانى
المترجم الى اللغة العربيه تعلمون أيها الاخوان كيف تغلبت نباتات

اوروبا وحيواناتها على نبات وحيوان قارتى استراليا وأمريكا ولم يمكن تلك الحيوانات والنباتات ان تقف أمام هذه التي دخلت عليها

﴿ غلبة الرجال ﴾

وليست الغلبة خاصة بنوع الحيوان والنبات بل سرت الى نوع الانسان فاصبح الاوربي هو العنصر الوحيد فى أمريكا. أما أهلها الاصليون فاصبحوا آلافاً معدودة بعد ان كانوا ملايين فانقرض جُلهم ودخل بعضهم فى العنصر الاقوى وتناسلوا وهكذا أصبح العنصر الاسود فى استراليا يقل أمام الجيش الجارف من اوروبا وهكذا أهل جنوب افريقيا كل ذلك جار على الناموس العام من فناء الاضعف فى الاقوى

كما فنى المسلمون السابقون فى الامم التتاريه الآتين لهم من الجنوب ففرقوهم شذر مذر واحتلوا بلادهم واخربوها وملكوا ديارهم واموالهم واعتنقوا دينهم وصاروا هم اغلب المسلمين اليوم فى الهند والصين ومنهم تكونت اغلب امم اوروبا الآن فقد تكاثر دخولهم اليها حين اختلطوا بالمسلمين وحاربوهم في القرن السابع من الهجرة واغتالوا الروسيا وقد تغلبوا من

قبل ذلك مراراً عليها قبل زمن النبوة فنهم هذا العنصر كما اثبتناه في كتابنا هذا .

فهم بقايا يأجوج ومأجوج الذين كانوا من كل حدب ينسلون

﴿ غلبة الآلات والصنائع ﴾

ومن العجيب ان الغلبة لم تقتصر على الحيوانات والنباتات والانسان بل سرت ايضاً الى الآلات فها نحن نشاهد فى بلادنا كيف غلب وابورهم طواحيننا وسواقينا ونواعيرنا وشادوفنا تلك الآلات القديمه الضعيفه وكيف تقاوم هذا السيل الجارف وكيف يسامى الخبيث الطيب وكيف يقف الضعيف امام القوى ام كيف يقوى الضار على مقاومة النافع قال تعالى واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض وقال تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقال تعالى قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث وهكذا غلب وابور حرثهم محراثنا

بل مخض اللبن واخراج الزبد منه وتربية الخيل والبهائم كل ذلك تقدموا فيه تقدماً باهراً ولا دليل أقوى من العيان

وما عليكم الا ان تنظروا نظرة واحدة تروا الامر واضحا

جلياً فى مراعينا وبيوتنا وأحوالنا المعاشية كلها وفى الزراعة وتربية المواشى وهكذا غلبت منسوجاتهم وخبزهم وطبخهم منسوجاتنا ومطبوخنا ومخبوزنا واضحي تجارهم أقوى من تجارنا ومربيهم أقوى من مربيتنا وسياويهم أقدر من سياوينا وسواسهم أقدر من سواسنا ورؤساء دينهم أقوى تأثيرا على النفوس في دينهم من رؤساء ديننا فى نفوسنا وجمعياتهم المؤلفة ثابتة لها نتائج مهمه دينيه وسياسيه وتجاريه وصناعيه حتى جهالهم ارقى من جهالنا فغلبوا ذاتاً وصفة وتجارة ورئاسة وجمعية ان في ذلك لعبرة لمن يري وما سبقونا الى ذلك حتى تقدموا فى الصفات النفيسة كالصدق والامانة وغيرها بل متدينهم أصدق من متديننا في دينه كما اخبرنا به غير واحد ممن جابوا تلك الاقطار

فهذا ياقوم معنى فناء الضعيف فى جانب القوى وهذه سنة في الكون سارية فيه لاتتجاوزه. فكل امة تمسكت بالقديم جداً من الاعمال ولم تحسنه ولم تبادر الى الاعمال دخل الجديد عليه فاباده

وهذا مصداق قوله تعالى كل يوم هو فى شأن فاية امت وقفت على قديمها ولم تعبأ بما طرأ ولم تغير الاساليب حسب الزمان اهلكها الله وهذا هو السر فى أمره تعالى بالسير فى

الارض لنعلم ان الكون متغير دائما

والسير فى الارض يهدى الانسان الى كل ما حدث وعندي أن السير فى الارض الآن ومعرفة الصنائع الحديثة فرض وتركهما اثم كبير بل هو أضر على الامه من كل معصية هذا هو اجمال مانعلمه من الكلام على فناء الضعيف فى جانب القوى وناموس الارتقاء وهذا وان لم يكن من موضوعنا الآن ولكن شرحته اجابة لطلب حضرة الفاضل الفقيه .

ولنرجع الى مبحثنا الاصلى في أن السبب فى ضعف الامة هو فقرها وهو أصل كل تأخر ماديًا وأدبيًا فقد سبقونا فى كل ماسمعتم من الصنائع والتجارات والزراعات بالمال والغنى وهما حاصلان بالعلم والعلم متوقف على المال فمن لنا بحل هذا الدور المشكل حتى نسير على صراط مستقيم

فأجابه الفاضل الفقيه فقال أن المسلمين من حيث مجموعهم أغنياء لم يعوزهم المال للتدرج فى العلوم حتى للسياحات البحرية الى الجهات القطبية لان فريضة الزكاة على مالكي النصاب والكفارات جاعلة لفقراء الامة وبعض المصاريف العمومية نصيبًا غير قليل فى مال الاغنياء بحيث اذا عاش المسلمون مسلمين حقيقة امنوا

الفقر. وعاشوا عيشة الاشتراك العمومى الذي يسمى لامثاله كثيرون من الجمعيات كطائفة السوسيالست (الاجتماعيون) والنيهليست (العدميون) وهم يريدون اعدام البشر لانه أصبح في نظرهم شروراً وقبائح نجب أبادته والكومونولست (الاشتراكيون) فكل هؤلاء يسعون لغرض واحد وهو الاشتراك العمومي فى المال وهم وان اختلفت أغراضهم ظاهراً فباطنهم ارادة ذلك وهذه الجمعيات مكونة من ملايين يريدون التساوي أو التقارب فى الاموال وملوكهم وأغنياؤهم احبوا الاختصاص والشرع الاسلامي جاء طريقاً وسطاً بين هذا وذاك (وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً)

فتعطيل الزكاة والكفارات أوجب بعض هذا الفتور المبحوث عنه كما أوجب ترك الزكاة فقد ثمرات عظيمة بين المسلمين وهي أن يعرف المسلم مقدار دخله وخرجه عند الحصاد أو حولان الحول فى السوائم فتعلمه كيف يقتصد وبالجملة فليس المسلمون فقراء وانما هم لم يحسنوا التصرف فى المال.

﴿ الاجتماعات ﴾

والذى أراه يصلح سبباً حقيقيا لهذا الفتور العام جهل المسلمين بما فرض الله عليهم من الاجتماعات الدينية التى هى أساس كل مفاوضه سياسيه فعدموا حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج وترك خطباؤهم ووعاظهم الوعظ والارشاد والتعرض للشؤون العامة كما ان علماءهم صاروا يسترون جهلهم بجعلهم التحدث في الامور العامة والخوض فيها من اللغو لذى لايجوز وربما اعتبروه من التجسس أو السعي بالفساد فترى ذلك من الخاصة والعلماء الى العامة والجهلاء . وصار كل واحد لا يهمه الا حظ نفسه وحفظ حياته في يومه كانه خلق مة واحده ويموت غداً جاهلا ان له على الجامعة الاسلامية والجامعة البشرية حقوقا وان لهما عليه مثلها ذاهلا عن ا مدنى بالطبع لا يعيش الا بالاشتراك ناسيا اوامر الكتاب والسنة

ولما مضت قرون وتوالت عصور على الامة وهى بتلك الحال تأصل فقد الاحساس فى الافراد وتبعثرت الجامعة تبعثراً لم يبق معه اصلاح

والعجب من شريعة هذا شأنها من الحكمة قررت اجتماعات متكررة وجعلتها فرضا دينيا لازما ومضي زمان طويل فنسوا المقصود منها . ولعمري ان هذه الامة محتاجة الى رجال مجددين للنهضة مقررين ومشوقين الى علوم القرآن في قلوب الناشئة الحديثة ليشوقوهم الى المعالى والشرف والاجتماع ونحن الآن كما ذكر الله ولا تكونوا كالذين أتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

قست قلوبنا وما قسوتها الا من عدم معرفة الحكمة في المشروع لنعمل للغرض المطلوب

اما الغربيون المعاصرون لنا فلما لم يكن لديهم من الدين اجتماعات كافية استدعوا طرقا واحتالوا بحيل للاجتماعات استرعاء للاسماع بوسائل شتى. فيخصصون اياما لذكرى مهمات الاعمال لاعاظم رجالهم الماضين لينسج على منوالهم الحاضرون ويعدون في مدنهم ساحات ومنتديات ليسهل الاجتماع ويكثر القاء الخطب وابداء المظاهرات.

ويكثرون من المتنزهات الزاهية العمومية ويجرون فيها الاحتفالات الرسمية والمهرجانات بقصد السوق للاجتماعات

ومنها اعدادهم فى التشخيص اماكن بقصد اراءة العبر واسترعاء الاسماع للحكم او لوقائع واستسهلوا ما تضمنته الخلاعة المتخذة شباكا لمقاصد الجمع ويعتبرون نفعها اكثر من ضرها ويعتنون غاية الاعتناء بتعميم معرفة تواريخهم المليه المفصلة المدمجة بالعلل والاسباب تمكينا لحب الجنسية

ويحرصون على حفظ العاديات المنبهة وادخار الآثار القديمة المنوهة واقتناء النفائس المشعرة بالمفاخر . ويقيمون النصب المذكرة بما نصبت له من مهمات الوقائع القديمة وينشرون في الجرائد اليومية كل الوقائع والمطالعات الفكرية وينشدون الاغانى الوطنية المبهجة للشعب الى الحمية الوطنية فهذه عشرة أنواع من أهم اجتماعات الغربيين جعلوها شباكا للاجتماعات وأما المسلمون فلهم من الاجتماعات ما يغنيهم عن مثل هذه وترانا فى مصر لم نصل الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فقد اصبحت أماكن اجتماعنا للفجور والفسق لاغير والابرة الخديوية بات ضرها اكثر من نفعها وهذه تواريخنا مصمتة مقفله ولقد حفظنا الآثار العربية ولكن ليس في القوم شعور بانها آثار ابائهم الاولين واقمنا تمثال المرحوم ابراهيم باشا ولكن ما ذكرنا الا بوقوع

بأسنا بيننا وان قلوبنا شتى. أما الجرائد فعندنا منها جملة صالحة والاغانى الوطنية قليلة

وبالجملة فنحن أضعنا ثمرة الاجتماعات الدينية وقلدنا في اجتماعات الغربيين ولم نصن الاول ولم نعرف الثانى فخسرنا الصفقتين ورجعنا بخفي حنين

فاجابه الحكيم ان هذا با لدواء أشبه منه بالداء وهو المبحوث عنه

ثم قال والذى أراه أوجب هذا الفتور العام اننا فقدنا الحكماء المسيطرين على العلماء والعامة وذلك انه ما من امة من الامم الا وجرت العادة ان يكون فيها حكماء يرشدون العلماء فالامراء فالعامة وهم الوارثون حقاً للانبياء وهم المسمون باهل الحل والعقد وهم الذين كانت تنعقد بهم الامامة وأمر صلى الله عليه وسلم بمشاورتهم فقال (وشاورهم فى الامر) وشاورهم أول خلفائه الراشدين رضي الله عنهم واقتدى به الثانى حتى ترك أمر الخلافة لهم وهكذا كان معاوية وتبعه خلفاء بنى امية فكانوا يتبعون مشورة سراة المؤمنين لا سيما بنى امية وهكذا صدر دولة العباسيين كانوا مذعنين لسيطرة رؤساء بنى هاشم ولما

استبدوا بالرأى ولم يكن أمرهم شورى بينهم ذهب الملك منهم وتفرقوا أيدى سبا .

وهكذا كل فرع من فروع الاسلام بل هى حال كل فرد من نوع الانسان يستقيم أمره بالاستشارة ويعوج ويضل بالاستبداد

وما مثل أهل الحل والعقد في المسلمين الا كمثل الاشراف ومجالس النواب في الحكومات المقيدة ومقام الاسرة الملوكيه التى لها حق السيطرة على الملوك في الحكومات المطلقه كالروسيا والصين ومقام شيوخ الانخاذ في امراء العشائر الغربية فاولئك الامراء ليس لهم من الامر غير تنفيذ ما يبرمه الشيوخ وبالجملة ففقد الحكماء في الملة الاسلاميه هو السبب الاعظم فى هذا الفتور

والمسلمون من حيث الحكماء الان ينقسمون ثلاثة اقسام فيهم حكماء ينصحون وهى الصين وقسم فيه حكماء مسيطرون وهى فارس وقسم ليس فيه حكماء أو فيه وهم متروكون وهى بقية البلاد ماعدا القليل منها كبعض من نبغوا في مصر .

فاجابه السائح قائلاً

ان فقد الحكماء لا يصلح سبباً عاما وهذه الصين كم فيها

من الحكماء وهم لا يخافون سطوة الجبارين ومع ذلك لا تزال ترى الفتور شاملا لهم

والذى أراه يصلح سببا عاما أمران ترك امور كثيرة فى الدن وزيادات بدع فيه فالزيادة والنقص هما اللذان أوجبا هذا الفتور العام .

الم تروا ان اخراج الزكاة واعداد القوة مااستطعنا صارتا منبوذتين الآن اليس غلاة الصوفيه وجهلاؤهم اخترعوا اناشيد لم ينزل بها سلطان واعتنوا بما زادوه وتهاونوا بالغروض الاصليه فلم يوفوها حقها ثم صار التشديد حتما لازما وأصبح المؤمن يلتبس عليه كثير من امور دينه ويضل فى الفروع الكثيره فاجابه العالم قائلا وما للدين والانحطاط في شؤون الحياة الدنيا فاذا حصل تشديد في الدين أو تنويع فى طرق العبادات أو بدع مستحدثه فكيف تؤثر على شوءون الحياة الدنيا مع ان الدين غير الدنيا وكيف يعقل ذلك وهوءلاء معاصرونا من الغربيين بالغوا فى هذا حتى ظن بعض حكمائهم ان مدنيتهم لم يستتم أمرها الا بعد عزل الدين عن شؤون الحياة الدنيا .

فقال السائح

اعلموا ان سير نوع الانسان فى اعمال الحياة الدنيا كله
تعاريج وضرر وآلام ونصب اذ الحياة جارية على تنازع البقاء
والاضرار بالغير ومحبة النفس وحب الغلبة مع مرّ العيش وكدر
الحياة وهذه كلها آلام عظيمة فلا بد لها من ناموس يخفف
وطأتها ولا يكون ذلك الا الاعتقاد بامر عام شريف لمم سكان
سطح الكرة كلها كما ان الانسانية مشتركة بينهم وهكذا المادة
تتنوع الى صور كثيره وهى فى الحقيقة واحده فهكذا نوع الانسان
مهما تنوعت أصنافه فلا بد له من اعتقاد واحد يلم شعثه وهو
الاعتقاد بقوة غالبة عالية تتصرف فى الكائنات بنظام محدود
يعبر عنها الجاهل بلفظ (الطبيعه) والمهتدى الراشد بلفظ (الله)

وكما ان كل قوم اشتركوا فى المعيشة لا بد لهم من قانون
يجمعهم ودستور يشملهم حتى يرجعوا اليه عند التنازع يناسب
أحوالهم المعاشيه وكل فرد من أفراد ذلك الشعب لا بد ان
يجرى على مقتضاه والا كان وحشياً منفورا منه .

فهكذا كل امة مع الامم المجاورة لها على سطح الكرة
الارضية لا بد من عموم أمر بينهم يجمعهم كلهم يكون أعم مما
اشترك فيه الافراد وأبسط الا وهو الاعتقاد بالغالب القاهر

المتصرف فى العالم على أبدع نظام والا كانت شريرة متوحشة تنفر منها جيرانها .

ثم ان هـذا الاعتقاد لا بد منه للافراد والامم ليخفف مرارة الحياة ويدفع الناس الى التساوى والانصاف فى الحقوق والرجوع الى الحق والا هلكوا أو ضلوا وصارت الحياة اشق شيء (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون) وكلام الله حق وصدق لا مبدل لكلماته فكل فرد وامة اعرضت عن ذكر ربها ضلت سواء السبيل فى الحياة الدنيا وساءت عقباها

واذا دققنا فى حال جميع الديانات التي ينزل بها الرسل الكرام نجدها فى مبدأ امرها بسيطة سهلة تقود الى الخير فاذا تمادى الزمان دخلها كثير من الشرك الخفى والتشديد وهما مطية الدمار والخراب فاما ان تبقى على ما هى عليه فتصير الى الخراب والدمار واما ان يرسل الله لها حكماء يهدون الناس

ويجددون ما اندرس ويجترفون ما ابتدع فترجع الى مجدها وسابق عزها فاذا لم يتداركها هلكت أو اندمجت فى امة اخرى

وذلك كما حصل فى كنعان وبنى اسرائيل فقدكانت تتوالى فيهم الرسل المنذرون والمبشرون كما قصه الله فى القرآن فترجع مدنيتهم زاهية زاهرة

وكما حصل في عاذ وثمود وقوم نوح وغيرهم . فانهم بادوا بالاهلاك العام.

وبالجملة فقد وضح ان الامم كما انه يجمعها نوع واحد وهو الانسان جمعها فكر واحد فى الدين وهو مدبر الكون المعبر عنه بالعبارات المختلفه وكما انهم أصناف مختلفون فمنهم الساميون والحاميون والياقيثيون فهكذا تنوعت طرق الديانات باختلاف الانبياء والازمان والامكنة فتطابق الخلق والامر (الاله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين)

واعلم ان الايمان بالله والملائكة واليوم الآخر والروح والنفس من أعظم داع لنمو المدنية وتقدم الحضارة اذ هذه مع غموضها على العقول كاف العقلاء بمعرفتها بالبراهين وهى صعبة المرام جداً فكأنهم الزموا ان يدرسوا هذا العالم درساً صحيحاً

ويخرجوا من الماديات الى المجردات وهذا لا يتسنى لهم الا بعد
فحص الكون من علويات وسفليات وينتفعون بذلك في دنياهم
فانظروا كيف كانت علوم التوحيد مبدأ للترقى في المدنية
والحضارة داعية الى التقدم السريع في الماديات والادبيات بل
مثل البحث عن المجردات كمثل بحث علماء المتقدمين عن علم
الكيمياء ليصنعوا منه الذهب فكان القليل منهم يصل الي
المطلوب والكثير يعثرون على أشياء كثيرة نافعة في الطب
والزراعة والبيطرة وغيرها أيها الاخوان ماذا ترون فى هذه
العجائب فلولا بحث الاقدمين عن الذهب ما وصل المتأخرون
الى هذه العلوم الناجمة عن علم الكيمياء واليه الرمز بحكاية آدم
وشيث في كلام الاقدمين وانه علمه الكيمياء فمن هنا عرفنا
كيف كان البحث بالبراهين العقلية فى الله واليوم الآخر هو
السبب الوحيد فى ترقى الافكار وتمدين الامم واثارة الخواطر
وقيام الناس من رقدة الجهالة ولذلك لا نرى امة إلا ودرست
الرياضيات ثم الطبيعيات واعقبت ذلك كله بالالهيات وأدخلت
فيها الملائكة والارواح واعقبت ذلك كله بالسياسة والاخلاق
فتأملوا كيف احتاج نوع الانسان فى تمدينه الى الايمان

بالمجردات ليرتبط بعضه ببعض أولا ويبحث عن الحقائق ثانيا ولقد حملوا العلوم جميعها أنواعا واصنافا متفرقة مختلفة المشارب والاذواق وكل علم يبحث عن شيء مخصوص من هذا العالم وكل علم تحته فروع ترجع اليه وهذه العلوم يرجعونها الى أصل واحد وهي الالهيات عند اليونان والتوحيد عند المسلمين واللاهوت عند الاوروباويين كما رجعت الدول لنوع الانسان ورجعت العقائد الى مدبر الكون المحرك له ورجعت العلويات والسفليات لاصل واحد وهي المادة .

والذى يهمنا من ذلك كله ملوك الاسلام وامراؤه ان لم ينسجوا على هذه الحكمة الباهرة فيكون لكل قوم منهم امور خصوصية ومدنية تناسبهم كما هي طبيعة الكون ولكن تكون بينهم جامعة عامة تشمل الامم الاسلامية في جميع الكرة الارضية فيتناقل العلماء الكتب فيترجم المصرى كتب الفارسي والفارسي كتب المصرى وهم جميعا كتب التركى والثلاثة تأليف الهندى وبالعكس وهكذا ويتعارف العلماء بالافكار والآراء ويتزاورون وهذه اللغة العربية هي السر الوحيد والترجمان العام فان لم يتواصل ملوك الاسلام ونام العلماء ولم يتعارفوا باخوانهم فى

أقطار المسكونة فليبشروا بخراب عام وقيامة تقوم عليهم وحدهم ويخلون الارض لله يورثها من يشاء من عباده قال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدهم ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم)

وهذا العذاب ليس خاصاً بالآخرة بل هو في الدنيا وكفى بما فيه المسلمون عذابا فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم منه شيئا.

وكل فرد من أفراد علماء الاسلام وملوكهم مطالب بهذا التواصل فان ابوا فجزاؤهم ما حل بنا اليوم فليجتهد العلماء فى التواصل وليتحدوا على التعاون والا عوقب كل فرد بالاثم وحده فاذا فعلوا ذلك فقد ساروا على الناموس الالهى في الكون ونهجوا منهج القرآن المطابق تمام المطابقة للحكمة الالهيه وهذه هى حدود الله (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه)

فتكون امم الاسلام راجعة لاصل واحد وهو التواصل بين الملوك والعلماء بوجه عام فيكون الهندي مع الصينى مع المصرى كالالمانى مع الفرنساوى مع الانكليزى كرجوع العقائد والعلوم والاجسام وامم نوع الانسان واسرات المملكه وفروع الشجرة وأوراقها الى اعتقاد واحد وعلم الالهيات والعنصر البسيط وهو

الاثير والانسان ورب المنزل والملك المدبر العام والشجرة فان هـذا الملك كله متشابه يشبه بعضه بعضا والوحدة هي السر السارى فيه فبقدر ظهورها يتم وبقدر اختفائها يكون نقصه.

وها أنا أيها الاخوان أوضحت هذا المقام وهو حكمة الايمان بما غاب عنا من الإله وملائكته والى هذا المبحث أشار الله فى أول مرة من الكتاب المبين وهى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون.

فانظروا اخوانى كيف كانت آية في القرآن من حيث التلاوة نهاية ما تصل اليه المدنية في كل امة.

فالايمان بالله والمجردات أول العلوم ومنتهاها ومبدؤها ونهايتها (هو الاول والاخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)

لا غنى للمدنية عنه وان تظاهر قوم بضد هذا امام المسلمين السياسيين فذلك ليرجعوكم الى التفرق وهم متحدون فليتدبر المسلمون ان كانوا يعقلون.

فقال الحكيم ان هذا من أهم الاسباب وبواعث الانحطاط ولكنه وحده ليس سبباً لكل ما نحن فيه من هذا السقوط السبب الوحيد فى ذلك قصر نظر الافراد وضعف الهمم والبعد عن المفاخر والتزهد عن المطالب والانقباض عن المكاسب والرضي بالذل والهوان

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت ايلام

فالامم اذا هانت ونبذت شرف النفس لم يقدموا على عمل واستكبروا كل ما يرونه وأعظموا الامور التى يشاهدونها وعجزوا عجزاً صراحا واضحوا في انحطاط وخمود وفى الحديث القدسى أنا عند ظن عبدى بى وفي التنزيل (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وفى الحديث النبوى ومن أراد الخير يعطه ومن توق الشر يوقه فكل من كان اقدم على الامور وأقل تهيباً فاز بالمرغوب وسعد فى الدنيا ويشير لذلك قصة زكريا ومريم وانه رآها تأكل فاكهة الشتاء صيفاً وبالعكس فتمنى ان يكون له ولد له صفات كصفاتها وكان في المحراب فجاءته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب كما كان وقت دخوله على مريم فبشر بيحيي مصدقا بكلمة من الله وهى أيضاً صدقت بكلمات ربها

(وسيداً) ومريم سيدة نساء العالمين (وحصوراً) لا يأتي النساء
وهي أيضاً كذلك لا يقربها الرجال (ونبياً من الصالحين) وهي
كانت من الصالحين وقيل بنبوتها فانظروا كيف جاء المتمنى
حين صوره في نفسه جازماً به وبالجملة فمعرفة أفراد الامة اقدار
أنفسهم وشرفهم هو الذى يعلى شأنهم ولا يصل بالامة اوج
المعالي سوى تثبيت هذه الفكرة في أذهانهم ولذلك لما كان بنو
اسرائيل مستعبدين بين المصريين وأسل الله سيدنا موسى لهم
فاول فكرة بثها فيهم انهم أفضل العالمين فقال (واني فضلتكم على
العالمين) ولما لم تكن هذه الفكرة كافية وحدها بل لا بد من
العمل التابع أردف هذا بان أضلهم في التيه حتى باد الجبل المستعبد
المتمرن على الذل والانقياد وجاء آخرون تربوا على شظف العيش
في مدة الاربعين التي مضت في التيه فامكنهم فتح قرية الجبارين
فهذه سنة الله في الامم التي يريد ارتقاءها وما من امة حية الا
وتجد هذه الفكرة منبثة فيهم ويرون ان سواهم أحق بأن
يكونوا عبيداً لهم الا ترى ان أمة انكلترا ذكر في قانونهم ان
الدم الانكليزي اشرف الدماء فلا يراق الا لاشرف المطالب .
وقام بسمارك في المانيا خطيباً وقال نحن الالمانيين لا نخشى الا

الله وجاء في القرآن قوله تعالى . وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وقال كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون

فاذن يجب على علماء الامة وشعرائها ان يوقدوا في نفوس افرادها نار الغيرة وشرف النفس

فأجابه العالم قائلاً ان المتعلم الذى قرأ علوم الاسلام يرى من اساتذته ومحادثتهم ومحاورتهم في تقطيب جباههم ماينفره ويصغر في عينه كل أمة من الامم عند ذكر أمتنا فنحن من هذا الوجه آمنون ولم يبق علينا الا ان يعرف الشبان وجوه المطالب وتترقى فيهم ملكة الاستعلاء وها هو القرآن بين أيدينا فيه آيات لكل خلق من اخلاق الانسانية كالكرم والشجاعة والمحبة والاحتراس من الاعداء والاعتقاد وطلب التفكر وحوز العلوم والجهاد والصلاة والصيام والحج والزكاة والمبايعات وغير ذلك .

فلو ان كل فريق من الناس كالشجعان في الحروب والاطباء في المستشفيات والاغنياء حفظوا آيات في النوع الذى هم بصدده

لكان ذلك داعياً للاقدام على الاعمال فيقرأ المجاهد وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم والغنى وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والطبيب كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين والعالم المتفكر قل انظروا ماذا في السموات والارض وهكذا مما لا يحتمله المقام

ولقد ألف الشيخ الغزالى كتابا فى بعض ذلك سماه علوم القرآن وذكر نحو ٧٠٠ آية فى تهذيب الاخلاق ومثلها في النظر فى ملكوت السموات والارض .

ولقد علمت ان أهل أوربا نهجوا هذا المنهج فذكروا آيات من كل نوع من هذا على حدته ليقف كل قوم على ما هم بصدده .

ولقد سمعت ممن أثق به أن احد مدرسى مدرسة الطب بمصر قال له عند ذكر أمراض العيون ان أهل مصر لا يلزم لهم قانون صحة قانونهم كتابهم . ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) حكيم باشا اذ الوضوء فى الاوقات الخمس والمحافظة على النظافة في هذا الدين تنبذ جميع الامراض بالكلية وتستأصلها منهم ولكن عدم المحافظة على ذلك هو الذى اوجب الامراض

ومن العجيب ان الله يأمر بالنظافة لاجل الصلاة وقد

أراد ان تكون صحة لنا جهلناها وعرفها الغربيون وما جاء ذلك الا من معرفة كل قوم الآيات الدالة على ماهم بصدده وهكذا قال بنتام الانكليزى ان المحافظة على نظام الدين الاسلامى توجب عدم ارتكاب الذنوب بالكلية وهذا أيضاً لاطلاعه على الآيات الدالة على النظافة كما هو مقرر ان النظافة سبب للصحة الجسمية ولقلة الذنوب والرذائل فلله شريعة سمحاء جهلها الاقربون وعرفها الابعدون

ومع هذا فيجب على كل طائفة ان تتعلم القدر الضرورى المشترك بين الجميع . كآيات العبادات بانواعها ويكون ذلك بفهم وعلم وبعقل لا كالقراءات الآن ويمنع الحكام قراءة القرآن فى الاماكن التى لا تليق وعلى المقابر ويعظمونه ويجلونه ثم يلقى في اذهان القارئين وجوب فهم المعنى ويعرفون قوله عليه الصلاة والسلام اقرأ القرآن مانهاك فان لم ينهك فلست تقرأه وهكذا حتى تشب الامة على مبادىء الدين .

﴿ خاتمة ﴾

وحينئذ قام فاضل من فضلاء الجمع وقال ياقوم انى تأملت مادار بينكم فألفيته جمع شتات المسائل وخلاصة الاسباب ونموذج الرقى وظواهر الاصلاح وبهجة السعادات ونظام الحكومات فلتدرسوا العلوم وتنشئوا الصناعات ولتبشروا بالنجاح ولا تفرطوا فى صغير او كبير مما أفضتم في شرحه اليوم واصبروا على الاعمال صبر أولى العزم يايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه والتابعين

(تم الجزء الثانى من كتاب نظام العالم والامم وهو نهاية الكتاب)

﴿ تقريظ ﴾

وردت للمؤلف قصيدتان غراوان مرتبتان على مقتضى رويهما واول اسمى منشئيهما الفاضلين

الاولى مدبجة بقلم الأديب الفاضل العلامة الشيخ حسين والى من أجلاء علماء الازهر الشريف فاستحسنا نشرها لاشتمالها على أقسام الكتاب التسعة ولصدورها من صديق المؤلف حميم قال حفظه الله

اذا قيل من أذكى فؤادا ... وأدرى بالحقائق في الرجال

وأصغى جوهراً وأعز نفسا ... أقول الجوهرى ولا أبالى

تزكت نفسه فعلت علوا ... فجاءتها الحقائق بامتثال

على جثمانها غليت فكانت ... لهـا أحكامها لا للخيالـــ

رأى بالجسم مبدأ كل شيء ... وبالنفس اجتلى غيب المـآل

وحظ النفس عند الجسم نزر ... وعند تغلب حظ الكمالـــ

وان الله برهن للبرايا ... بآيات تدوم على التوالى

ولكن عميت زمنا لامر ... وصار قريبها صعب المنال

وغشى وجهها مركوم سحب ... فصاروا فى ظلام أو ضلال

وظنوا الشمس اذ زالت اتاها ... من الرحمن تكوير الزوال

وما علموا بأن الشأو ناء ... وان الشمس صاحبة انتقال

فأن هي لم تكن طلعت بشرق تكن طلعت بغرب غير آل
لها الطوران في الدنيا جميعاً كما الخصمين كانا في سجال
بدت بالغرب دهراً فاستبانوا اعاديهم ففازوا في القتال
فلمـا أثروا فينا انتبهنا وأودى الضعف بالاسل الطوال
وليس لنا من الضوء المزجى سوى سم الخياط لدى النضال
أصاب الجوهري به فأنى كما ينمي المصيد لدى الحبال
هو النظارة الكبرى تريه ال أمور بعينها لا بالمثـال
فادرك وحده الغرب ابتغاء فعقل الغرب منه في شقال
ولولا آية فيـه لشرق لدام مجهلا في شر حال
كأنـ الله آثره فأضحى وما وافت بمشبهه الليالى
درى سر الكتاب وكان غيبا فباح بسره قبل السؤال
وبوح السر اقبح ما نراه اذا لم يلف في شرف الخصال
فشوق نفس كل نحو علم فكان مقاله فوق المقال
وقد أبدى بحسبانـ كمينا يوصل سافلا منهـا لعال
وفكر في السموات افتكارا وجاوز شمسهن مع الهلال
تبين ماحوى الافلاك ممـا جرى جهة اتصال وانفصال
وبعد تبين الارضين حتى تبدت سـفي عوالمها الثقال
ارته جمادها فرآه حيا يسبح ربه بفصيح قال
ارته نباتهـا نضراً بهيجاً تزين بالنظام وبالجمال
ارته اعجم الحيوان يزرـ بذى نطق عن العرب العوالى

ارته حقيقة الانسان فيهـا — عجائب فوق أعداد الرمال
ارته النفس فى شرف خطير — وأمرا آتيا من ذى الجلال
ارته سياسة الامم الأواتى — وراء سياسة الامم الخوالى
ارته عجائب العمران طراً — وشرعة ربهـا بين الموالى
فهذى تسع آيات كموسى — ولكن نفعها بادى اقتبال
تكفلها كتاب منه سام — منظمة كعقد منه خال
الا يا جوهرى رعاك مولى — ارادك للمعارف والمعالى
فأن وتفق الانام وأنت منهم — فأن المسك بعض دم الغزال

القصيدة الثانية لسعادة الفاضل يحيى بك قدرى مأمور ادارة أوقاف الحلمية نظمها من بحر المتدارك (الخبب) وأهداها للمؤلف فشكرنا له وآثرنا نشرها لعذوبة ألفاظها ورونق اسلوبها واصلة المودة بينهما قال حفظه الله

ان رمت الفلسفة العليا ... ابنى الاسلام والامم
أوشئت الحكمة مستقيا ... من غيث العلم المنسجم
بادر لجواهر قد نسقت ... في شعر يزهو بالحكم
يهدى الحيران ويرشده ... لنظام الكون المنبهم
فيه التطبيق على حكم ... من محكم تنزيل الحكم
فيه الآيات تعلمنا ... ما في الملكوت من العظم
فيه التفصيل يشوقنا ... لجمال الصنع المنتظم
صنع الافلاك وانجمها ... كنظام الشمس المبتسم
وثلاث مواليد وجدت ... في الارض بخلق من سدم
وسياسات وتدابير ... جاءت كالنور على علم
قرنت بمسائله تحف ... عن أهل العلم ذوى القلم
زانته براهين سطعت ... كشفت عن سر مكتتم
قد صيغ الرشد باسطره ... كنجوم ضاءت في الظلم
فالفضل لمنش عنونه ... بنظام العالم والامم

﴿ فهرست ﴾

(الجزء الثانى من نظام العالم والامم)

﴿ الباب التاسع ﴾

﴿ المقالات الاصمعية ﴾

﴿ المقالات الرازية ﴾

﴿ جدول الخطأ والصواب ﴾

صحيفة	سطر	غلط	صواب
٦	١٢	لهؤلاء	كهؤلاء
١٠	١	طنيه	ظنيه
١١	١٤	ينظرنا	بنظرنا
١٥	٤	معه	منه
١٦	٢	المسقط	المقسط
١٦	١٦	أيضا	. .
٢٣	١٥	فبملله	فلله
٢٣	١٦	من	فمن
٢٧	١٥	الجهة السورياةة	الجهة الشمريانيه
٢٨	٩	او ينزل	وينزل
٢٨	١٣	او يترقى	ويترقى
٢٩	١٢	لاعن انسان	عن الانسان
٢٩	١٧	والحامل	عن الحامل
٣٢	٨	ان العلم	انه بالعلم
٥١	٨	هى	وهى
٥٨	١٥	تراقبنا	ترقينا
٦٢	١١	فى ملكوت	الى ملكوت
٦٣	١٢	الشاكلة	المشكلة
٦٤	٧	شافك	شاقك

صحيفه	سطر	غلط	صواب
٦٤	١٣	اصورها	بصورها
٦٨	٢	سابقناها	سابقتاها
٦٨	٢	فكأنما	فأنما
٧٠	٤	لعلف	لطيف
٨٠	٨	لكنا	كنا
٨٩	١١	يأن	يان
١١٤	٣	علنها	هى عنها
١١٤	٤	مقادره	مقاديره
١٤٤	١٢	للأدارة	للأرادة
٢١٤	١٦	فتأكل	فتأمل
١٢٠	٨	يسمه	يسميه
١٢١	٣	وعلى	على
١٢١	٥	كراة	كرات
١٢٢	٥	اوحضه	ادحضه
١٢٢	٦	توضت	او حضت
١٢٢	١٥	فى اصل	فأصل
١٢٣	١٤	يغمص	يغمض
١٢٤	١٧	ذلك	فلك
١٢٥	٤	ذلك	فلك
١٢٥	٨	ارفع	اومع
١٢٥	٩	ادمعها	اومعها

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
١٢٦	١٣	القضبان	الغضبان
١٢٧	٣	فأخروجها	فأخرجوها
١٢٧	٥	فى من	من
١٢٥	٨	سمين	سجين
١٢٨	١٤	مفهومان	مفهومتان
١٤٠	١٥	من الجمع	من حيث الجمع
١٤٣	١٦	والعسغيره	والصغيره
١٤٣	١٧	فهم المعدة	فهم كالمدة
١٥٣	١٤	فارحين	فرحين
١٥٤	١١	صورة	سوره
١٥٧	٩	الى قشورها	الا قشورها
١٦٩	٧	النظارة	النظر
١٦٩	١٢	والغرينيه	الغربية
١٧٢	١٥	الاسخاص	الاشخاص
١٧٥	١٢	ونيلهم	نيلهم
١٧٥	١٤	استغنانها	استغنا بها
١٩٤	٦	الموضوع الخامس عشر	. . .
١٩٧	٣	وقال	قال
٢٠٧	١٧	دثا	ومن زاد
٢١٠	١٢	أحد العقلاء من امته	احد من العقلاء
٢١١	١	وعددها	وعدوها

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٢١٢	١	الأئة	
٢١٢	٣	فيجب	يجب
٢١٤	١	ليحوذ	ليحوز
٢١٩	٦	اسمها	اسها
٢٢٠	٨	اذا	اد
٢٢١	٨	داخلين	وجعلهم داخلين
٢٢٢	٢	وتمليه	وتحليه
٢٢٢	٥	والحيوان	الحيوان
٢٢٣	٦	لبتجي	نبتجي
٢٢٣	٧	حصره	حسره
٢٢٥	١٧	الجامع	بالجامع
٢٣٧	١	اخرج	به اخرج
٢٣٧	٧	في الأيات	الأيات
٢٣٨	١	أم	اتم
٢٤٢	١١	توجد	نوجد
٢٤٢	١٢	ولأن	ولا ان
٢٤٢	١٢	لم نجعل	الم نجعل
٢٧٣	٥	يمكن	. . . .
٢٨٤	٧	وانما	انما
٢٨٨	٦	فقلبة	فغلبه
٢٨٨	١١	الثامنة	السابعة

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٢٩٠	١٣	والازكياء	والاذكياء
٢٩٠	١٧	بالرهان	بالبرهان
٢٩١	١٤	نفقة من نفقات	نفثه من نفثات
٢٩١	١٥	هل	....
٢٩٤	١٠	التاسعة	الثامنة
٢٩٦	٣	عزر	غزر
٢٩٨	٩	فلتنفقوا	تنقوا
٢٩٩	٤	مائتا	مائتى
٣٠٢	١٥	القطرتان	القطرتين
٣٠٣	١٢	كاوة	عامه
٣٠٦	٦	اذ	اذا
٣٠٦	٨	لابالمدارس	الا بالمدارس
٣١١	٩	افيرى	افبرى
٣١٣	٩	الشمع	الشمس
٣٢٤	٩	وايان	وايان
٣٢٧	٧	واحول	واحوال
٣٢٠	٣	وموس	وموسى
٣٣٠	١٢	عمر مهيمن	عمر ومهيمنا
٣٣٢	٤	يعل	بعل
٣٣٣	١١	بقيت	يقيت
٣٣٥	٥	وذقت	وذاقت

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٣٥٩	١٥	يورزم	يوهزم
٣٦٥	١٤	تفاحين	كفاحين
٣٦٦	١٠	النطر	النبط
٣٦٧	١٧	بادة	بأبادة
٣٧٦	١٤	كافة	. . . .
٣٧٧	١٧	المكر كسكوبيه	المكرسكوبيه
٣٧٨	١٠	وبسرعة	بسرعة
٣٧٩	١	بأخرى	بأحاديث
٣٨٠	٢	ينبة	ينبه
٣٨٢	١٠	ومع	مع
٣٨٤	١	برحم ماعز	برجم ماعز
٣٨٤	٣	ليؤثم	ليأثم
٣٨٤	١١	تأخذ	نأخذ
٣٨٤	١٤	السفا	العاً
٣٨٥	١٠	عرابى	اعرابى
٣٨٦	٥	فيها تاين	فيهاتين
٣٨٦	٦	وحيث	وجبت
٣٨٦	٤٨	ميراثى ذكر	. . . .
٣٨٨	١٣	والمنسوب	والمنسوخ
٣٩٨	٦	الجاخطز	الجاحظ
٤٠٠	٣	يمموا	يمموا

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٤٠٠	١٠	اسهل منها حق	بها
٤٠٤	٨	على بعض	. . . .
٤٠٤	٨	بعضهم	بعضهم على بعض
٤٠٥	٦	ولايستسنون	ولا يستثنون
٤٠٨	٥	الملايين	والملايين
٤١٠	٤	عبادة	بعبادة
٤١٠	١٤	ناداهم	ناواهم
٤١٣	١٤	لو نفي	نفي
٤٢٦	٨	من	ممن
٤٢٧	٦	فأشار	فاشار الى
٤٢٩	٨	الابن	ابن
٤٣٢	١٤	صفريها	مفربها
٤٣٣	١٧	تظن	بظن
٤٣٦	١	ويرحبوا	ويرجعوا
٤٣٦	٨	للأندلس	الاندلس
٤٤٢	١١	جهالهم	رجالهم
٤٤٣	٦	تلحمها	تلحقها
٤٤٦	٧	يوصفه	. . . .
٤٩٢	١١	ولكن	و . . .
٤٩٣	٣	بعدهم	بعد
٤٩٤	٦	فى اول	فى اول سورة
٤٩٤	١١	كانت	كانت اول

